https://t.me/montlq





مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

مناطق الخطر

كفاح دبلوماسي في سبيل المصالح الأمريكية

جون جونتر دين

مناطق الخطر

كفاح دبلوماسي في سبيل المصالح الأمريكية

This is an Arabic translation of *Danger Zones: A Diplomat's Fight for America's Interests*, by John Gunther Dean, and published in 2009, by VELLUM/New Academia Publishing, Washington, DC, with the Association for Diplomatic Studies and Training (ADST). The ECSSR is indebted to the author and publisher for permitting the translation, publication and distribution of this work under its name.

الطبعة الأولى 2017

الطبعة الثانية 2019

النسخـــة العاديـــة ISBN 978-9948-23-114-1
النسخـة الإلكترونية ISBN 978-9948-23-116-5

توجه جميع المراسلات إلى العنوان الآتي:

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567
أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: +9712-4044541
فاكس: +9712-4044542

E-mail: pubdis@ecssr.ae
Website: http://www.ecssr.ae



مركـــز الإمـــارات للدراســـات والبحـــوث الاســـتراتيجيـــة

دراسات مترجمة 82

مناطق الخطر

كفاح دبلوماسي في سبيل المصالح الأمريكية

جون جونتر دين

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 آذار/ مارس 1994؛ بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز لتوفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات، من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية أن يسهم بشكل فعال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات هي مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع، وذلك من أجل تحقيق أهدافه المتمثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحتويات

تقديم

«جون، لقد تم إلغاء جميع مواعيدك مع المسؤولين الأمريكيين الرفيعي المستوى، فلَمَ لا تأتي إلى بيتي ونتناول العشاء معاً؟».

كنتُ متعباً بعد رحلة طويلة بالطائرة من نيودلهي إلى مطار دالاس الدولي في واشنطن، وكان ينتابني القلق حول هذه الرحلة. طلبت مني زوجتي ألا أقوم بها، وهذه المرة الأولى خلال حياتي المهنية الطويلة كدبلوماسي تنصحني بعدم القيام بشيء ينطوي على خطورة. قالت لي: «لقد أخبرتَهم مسبقاً بمخاوفك، ولن يأتي خير من الرحلة إلى واشنطن».

ولكنني شعرت بضرورة الذهاب. كان عملي بصفتي دبلوماسياً يقتضي مني أن أقول الحقيقة التي رأيتها – الحقيقة الكاملة – لرؤسائي في واشنطن. فإن كان الرئيس وكبار مستشاريه سيتخذون أفضل القرارات بشأن المناطق الساخنة في العالم فسوف يكونون بحاجة إلى تقارير مباشرة وصادقة عن الأحداث في الميدان.

كانت الرحلة من نيودلهي إلى واشنطن غريبة؛ إذ رافقني موظف من وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه)، وبدلاً من السفر باسمي الحقيقي، كما كنت أفعل دائماً، تمت كتابة الاسمين الأوّلين، جون جونتر، على تذاكري. وبدا أن ممثل "السي آي إيه" كان عصبياً، كما لو أنه لم يكن يطيق أن يدعني أغيب عن ناظريه.

قدمتُ إلى واشنطن بصفتي سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية لدى الهند، وهو بلد تسيطر عليه حالة توتر دائم مع جارته باكستان. وقبل ذلك بأقل من شهر؛ أي في السابع عشر من أغسطس 1988، قتل رئيس باكستان، الجنرال محمد ضياء الحق، في حادث انفجار طائرة. وكان يبدو كل شيء يحيط بالانفجار مثيراً للشكوك. فقد كان ضياء الحق يصطحب معه على مضض، مجموعة من الجنرالات الباكستانيين وسفير الولايات المتحدة

الأمريكية لدى باكستان إلى عرض للدبابات. لم يكن ضياء الحق يرغب في شراء الدبابة المصنوعة بواسطة شركة أمريكية، ولكن أعضاء الجيش الباكستاني وعدداً من جماعات المصالح أقنعوه بالذهاب إلى العرض ليروا مدى فاعلية الدبابة التي تبين أنها لم تكن بتلك الجودة. وبعد العرض استقل طائرة لرحلة العودة، وبطرفة عين غدا ميتاً.

كان موت ضياء الحق مثيراً للقلق، لا لمجرد أن زعيماً في منطقة مضطربة من العالم تم قتله بعنف، أو أن مسؤولاً أمريكياً رفيع المستوى قتل معه، بل كان مقلقاً أيضاً لأنه أثر سلبياً في سلسلة من المصالح في المنطقة. فماذا حدث لباكستان؟ كيف تعاملت قيادة باكستان الجديدة مع أكثر القضايا تفجراً في تلك الآونة، وهي مساعي باكستان لتطوير قنبلة نووية؟ كيف أثرت تلك المساعي في الهند؟ وهل مضت الهند في الاستعداد النووي؟

وماذا عن أفغانستان المجاورة؟ فبعد تسع سنوات من الحرب المرة بين ثوار حرب العصابات المسلمين والاتحاد السوفيتي، كانت المفاوضات في طريقها لإقامة حكومة ائتلاف. وقد تعهد الرئيس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف بسحب القوات السوفيتية من أفغانستان خلال مدة متفق عليها بين جميع الأطراف. ولكن ما نوع الحكومة الأفغانية التي ستحل محل الحكومة التي فرضها السوفييت؟ لقد أثارت المعركة للسيطرة على أفغانستان، كلاً من الهند والاتحاد السوفيتي ضد باكستان والولايات المتحدة الأمريكية. فما نوع التحالف الذي ستدعمه كلّ دولة من هذه الدول؟ ومن سيسطر على ذلك التحالف: العلمانيون أم الأصوليون؟ لقد ثار القلق بالفعل من أن المجاهدين الأصوليين، الذين تم دعمهم على مدى سنوات على يد الأمريكيين، سينقلبون على الغرب. فقد دعموا أنفسهم جزئياً بالاتجار بالمخدرات في السوق العالمية، وهذا مصدر قلق رئيسي منذ فضيحة إيران-كونترا قبل ذلك ببضع سنوات. كانت "طالبان" جماعة رئيسية ضمن الجيش الأصولي. فماذا سيحدث - يا ترى - لو أن طالبان أو جماعة مشابهة لها في الفكر استولت على أفغانستان؟

كان ثمة أمر آخر يجري كذلك. كان نائب الرئيس الأمريكي وقتها جورج إتش دبليو بوش قد ترشح للرئاسة ضد مرشح الحزب الديمقراطي، الحاكم مايكل دوكاكيس، وبدا أنه كان متقدماً عليه بفارق كبير. وبعد تراجع بوش في استطلاعات الرأي خلال الصيف، كان قد دمر دوكاكيس بشن سلسلة من الهجمات ضده، وهي التي تدور حول انعدام الوطنية لدى دوكاكيس وافتقاره إلى حسن التقدير المفترض. ولكن أحداثاً رئيسية يمكن أن تغير الانتخابات الرئاسية. فقد كان الحزبان - على مدى سنوات - يساورهما قلق شديد حول «مفاجأة أكتوبر »، وهو حدث رئيسي سيوجِّه لأحد المرشحين ضربة قاضية. فالمرشحون المتقدمون في استطلاعات الرأي يسعون لإضاعة الوقت في الأسابيع الأخيرة من الحملة. وشأن المرشحين في ذلك شأن فريق كرة السلة في إحدى الكليات؛ إذ يحاول أن يتسلم زمام المبادرة في الدقائق الأخيرة من المباراة، فهم يركزون على عدم اقتراف الأخطاء، وعلى عدم إثارة الجمهور للتفكير من جديد في انتماءاتهم.

كنتُ قد قدمت إلى واشنطن لمقابلة وزير الخارجية جورج شولتز ومدير وكالة الاستخبارات المركزية ويليام وبستر، كما فكرت أيضاً بالظفر ببعض الوقت مع نائب الرئيس جورج بوش الذي قد يكون لعب دوراً في تعييني سفيراً في الهند قبل ذلك بثلاث سنوات.

كنت أرغب في التحدث وجهاً لوجه مع كبار المسؤولين في إدارة الرئيس رونالد ريجان، حول قلقي من أن الأحداث كانت تخرج عن السيطرة في إحدى أكثر المناطق أهمية في العالم. لم أكن أعرف بالضبط لماذا انفجرت طائرة الجنرال ضياء الحق، ولكنني كنت مقتنعاً بأنها كانت عملية اغتيال نُفذت بمساعدة واحدة على الأقل من وكالات الاستخبارات في العالم. وبما أن المنطقة كانت خطيرة جداً، ولأن عدداً من الأمريكيين كانوا على متن الطائرة، فقد اعتقدتُ أن الأشخاص الذين يصنعون السياسة الخارجية في واشنطن، لا بد من أن يكونوا قد أجروا محادثة مباشرة وصادقة مع أحد دبلوماسييهم

المخضرمين. عندما يتم اغتيال القادة فإن المؤسسات في العالم تصبح أكثر هشاشة. إننا بحاجة إلى سبر أغوار المؤامرة المشتبه بها، والتي أدت إلى مقتل ضياء الحق.

عندما استقبلني مورت أبراموفيتش Mort Abramowitz، رئيس البحوث والاستخبارات في وزارة الخارجية الأمريكية، وهو صديق قديم في دالاس، فوجئت بإلغاء المواعيد المرتبة مسبقاً مع كبار المسؤولين في الحكومة الأمريكية. قال لي أبراموفيتش، ومسؤولون آخرون بوزارة الخارجية في وقت لاحق، إن اجتماعاتي المرتبة مسبقاً قد ألغيت. لن أجتمع مع بوش أو شولتز أو وبستر، وبدلاً من ذلك سأجتمع مع مساعد وزير الخارجية ريتشارد مورفي وجورج فيست، المدير العام للسلك الدبلوماسي.

عندما التقيت صديقي ورئيسي السابق جورج فيست، فهمت أخيراً كل هذا السلوك المحير.

مازلت مذهولاً حتى يومنا هذا من الرسالة التي أوصلها جورج فيست إلي. قال فيست: إن الأطباء في وزارة الخارجية قرروا أنني تعرضت لضغوط في منصبي جعلتني مختلاً عقلياً، وحدث لدي «تغيُّر في شخصيتي»؛ ونتيجة لذلك، فلن يُسمح لي بالعودة إلى السفارة الأمريكية في الهند. وبدلاً من إرسالي إلى مصحة عقلية، فقد اقترح جورج فيست على الوزارة أن تسمح لي بالذهاب إلى منزل التزلج التابع لأسرة زوجتي في سويسرا.

مكثت في المنزل في سويسرا مدة ستة أسابيع قبل أن أعود إلى نيودلهي لحزم أمتعتي الشخصية والعودة إلى واشنطن. وعندما أدركت أنه لم يعد لدى وزارة الخارجية منصب آخر لي أخبرتهم برغبتي في الاستقالة من السلك الدبلوماسي، وعلى الفور تم شطب التقويم عن حالتي الصحية، ولم أعد في نهاية المطاف فاقداً للأهليّة من الناحية العقلية بأي شكل من الأشكال.

إثر قرار ترك الحكومة، تدفقت الكلمات الرقيقة، ووصلتني رسائل مفعمة بعبارات الشكر والتهنئة من الرئيس رونالد ريجان، ونائب الرئيس بوش، ووزير الخارجية شولتز،

وغيرهم كذلك. وأشاد رئيس وزراء الهند راجيف غاندي بي أيضاً. كان كل شيء جميلاً جداً، ولكنه لم يكن لطيفاً بما فيه الكفاية لشخص عمل بشرف لدى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام 1950. لقد كنت في حاجة إلى معرفة ما حدث.

كان الأمر واضحاً: ثمة شخص في واشنطن كان في حاجة إلى أن يبعدني من الطريق، وكانت معرفة من هو، بمنزلة سر من أسرار أجاثا كريستي. هل كان نائب الرئيس الذي كان قلقاً من أن ردة فعل عاصفة دولية من شأنها أن تهدد فرص مشاركته في الانتخابات؟ أم أنه كان وزير الخارجية أو غيره من أعضاء المؤسسة الدبلوماسية الخارجية، الحريصين على إسكات الخطاب الذي كانوا يعدونه تحريضياً بشأن قضايا مرتبطة باغتيال ضياء الحق؟ أم أنه كان اللوبي المؤيد لباكستان داخل الولايات المتحدة الأمريكية (أو خارجها)؟ أو أنه كان المجمع الصناعي العسكري الذي جمع ثروات من بيع الأسلحة لجميع الفصائل المتحاربة في الشرق الأوسط؟ أم أنه كان الحكومة الإسرائيلية أو جهاز استخباراتها الخائفَين من امتلاك باكستان «القنبلة الإسلامية»؟

خلال مسيرتي المهنية، وجدت نفسي متورطاً في الجدل في عدد من المناطق الساخنة في العالم. فقد توليت مهمات عدة في فيتنام، ولاوس، وكمبوديا. وفي خمسينيات القرن الماضي، عملت في مشروعات تنموية في هذه البلدان الثلاثة جميعاً، وبعد ذلك عملت مع الجيش الأمريكي في وسط فيتنام في أوائل السبعينيات.

بعد ذلك قمت بالوساطة في الاتفاق الذي أنهى الحرب في لاوس. فبعد سنوات من مقاومة الفكرة، سمحت وزارة الخارجية لي بالعمل مع جميع الأطراف في هذا الصراع الطويل والمر ، وتوصلنا إلى اتفاق سمح لحكومة حيادية بتولي الحكم في البداية. وتصديت أيضاً لمحاولة انقلاب عام 1973 ضد النظام المحايد لرئيس الوزراء سوفانا فوما Souvanna Phouma. وبعد سقوط سايجون [عاصمة فيتنام الجنوبية بيد الشماليين عام 1975] وبنوم بنه [عاصمة كمبوديا بيد الخمير الحمر]، تولت حكومة شيوعية الحكم في لاوس، ولكن لاوس كانت قد تجنبت العنف الشامل الذي وقع في فيتنام وكمبوديا.

لم يكن النجاح حليفي في كمبوديا؛ فعلى الرغم من أنني كنتُ أجادل بحماسة بأننا بحاجة إلى الجمع بين جميع الأطراف لإنهاء الحرب في كمبوديا، فقد كان وزير الخارجية هنري كيسنجر يرفض جهودي. كنت آخر رجل خرج من كمبوديا في 12 إبريل 1975. وقد ظهرتُ على غلاف مجلة **نيوزويك** حاملاً العلم الأمريكي، حينما غادرتْ آخر مروحية مدينة بنوم بنِه، واقتربت قوات الخمير الحمر منها.

وبعد سنوات، في تايلند، عملت عن كثب مع جلالة الملك بوميبول في عدد من المشروعات التنموية، فضلاً عن مشروعات لتأمين التدريب العسكري للجيش التايلندي، وضمان قواعد عسكرية للولايات المتحدة الأمريكية.

وقد شغلت أيضاً منصب سفير لدى لبنان؛ حيث عملت بجد للتعرف إلى جميع الفصائل في هذه الأمة المقسمة. وقد روجت لفكرة «لبنان واحد - دولة واحدة»، مع العديد من الفصائل. وبناءً على تعليمات من إدارة جيمي كارتر، عملت بنجاح مع القادة الفلسطينيين للمساعدة على تحرير المجموعة الأولى من الرهائن الأمريكيين في إيران. وكنت أيضاً هدفاً لمؤامرة اغتيال؛ حيث تعرض موكبي لكمين في الطريق من السفارة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت.

وفي أوقات مختلفة، توليت مهمات أقل إثارة للجدل في دولتين إفريقيتين، هما: توجو ومالي، كما استمتعت بثلاث سنوات جميلة سفيراً في الدنمارك.

كنت معروفاً تماماً باستعدادي للعمل مع الجميع: من شيوعيين ورأسماليين ودبلوماسيين وجواسيس؛ ومن سكان المدن والأرياف؛ وقادة متخندقين ومصلحين ومسيحيين ويهود ومسلمين وهندوس وبوذيين. وكنت دائماً أرى أن عمل الدبلوماسية يتطلب الحديث والاستماع إلى جميع الذين يشاركون في العيش في بلد ما. وكلما زاد عدد الناس الذين تتحدث إليهم وسارعتَ إلى ذلك، زاد عدد الخيارات لديك. كنت دبلوماسياً ناشطاً؛ فقد عملت بجد على الجمع بين الناس بدلاً من أن يقتل بعضهم بعضاً.

كنت دائماً أتبع الأوامر الصادرة من واشنطن، سواء كنت أخدم رئيساً جمهورياً؛ مثل ريتشارد نيكسون، أو جيرالد فورد، أو رونالد ريجان، أو رئيساً ديمقراطياً؛ مثل جيمي كارتر. وكنت دائماً أضع المصالح الأمريكية أولاً. وقد عملت بجد لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، سواء كانت مصالح شركات، أو مصالح عمالية، أو جماعات دينية، أو غير ذلك، ولكن ولائي كان للولايات المتحدة الأمريكية كلها.

أما الآن فقد انتهت مسيرة حياتي المهنية. وعندما وصلت إلى واشنطن يوم 10 سبتمبر 1988، لعقد اجتماعات حول الوضع المتفجر في الهند، وباكستان، وأفغانستان، فوجئت بأن الأحداث واللاعبين أكبر – وأشد خفاء – مما يمكنني التعامل معه. إن ما حدث، والدروس التي يمكن لمسيرتي المهنية أن تقدمها للسياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين، هي أسئلة آمل أن أستكشفها في هذه المذكرات الوجيزة.

شكر وتقدير

يستند هذا الكتاب إلى التاريخ الشفوي الذي سجلته على مدى سبع سنوات (1996-2003)، مع ستيوارت كينيدي من جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب (ADST)، في مدينة آرلنجتون بولاية فرجينيا. وهو يغطي الفترة منذ ولادتي عام 1926 حتى اعتزالي السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة الأمريكية عام 1989.

في عام 2003، تلقيت طلباً من الرئيس الأسبق جيمي كارتر، تم دعمه في وقت لاحق من رئيس أسبق ثانٍ هو جيرالد فورد، للتبرع بالأوراق والوثائق المتعلقة بحياتي المهنية في السلك الدبلوماسي والموجودة في حوزتي إلى المحفوظات الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية. واستجابة لذلك، تبرعت بما طوله أكثر من 12 قدماً من الوثائق والرسائل للأرشيف؛ حيث تم وضعها في مكتبة جيمي كارتر في مدينة أطلنطا بولاية جورجيا. وفي عام 2004 أرسل مدير عام السلك الدبلوماسي، السفير جورج روبرت بيرسون، التاريخ الشفوي الذي كنت قد سجلته لدى جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، إلى المحفوظات في مكتبة كارتر التي وضعته على شبكة الإنترنت. واعتباراً من عام 2008، أفرج الأرشيف عن أوراقي التي تغطي الفترة حتى عام 1981 للجمهور، أما الوثائق التي تغطي فترة عملي سفيراً في تايلند (1981-1985)، والهند (1985-1988)، فلم يتم رفع السرية عنها أو الإفراج عنها.

وأخص بالشكر جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، ولاسيما رئيسها السفير السابق كينيث ل. براون، وستيوارت كينيدي، مدير برنامج التاريخ الشفوي في الجمعية، الذي يضع في متناول الجمهور تجارب الدبلوماسيين وآراءهم ممن مثلوا الولايات المتحدة في الخارج منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل ذلك. وهناك نحو 1500 من هذه الروايات الشفوية هي الآن متاحة من خلال موقع مكتبة الكونجرس على الشبكة العنكبوتية، المسماة «دبلوماسية الخط الأول».

وأخيراً، أود أن أنوه بصداقتي والتعبير عن الامتنان لكثير من موظفي السلك الدبلوماسي الذين عملت معهم على مر السنين، وكثير منهم لم يعد على قيد الحياة. وقد تعلمت منهم كيف أمثل بلادنا بصدق واحترام، أمام الصديق والعدو معاً. وأود أن أخص منهم بالذكر السفير تشارلز بولن، وأفريل هاريمان. لكن مسؤول السلك الدبلوماسي الذي تعلمت منه الكثير هو صديقي وزميلي، السفير السابق روبرت كيلي، فقد عملنا معاً مرتين خلال حياتنا المهنية، وأنا ما أزال أشعر إلى اليوم بالامتنان لنصائحه وتوجيهاته.

إن خدمة المرء قضية أكبر منه تعد شرفاً عظيماً؛ فشكراً لك يا أمريكا [لمنحي هذا الشرف].

جون جونتر دين

الفصل الأول

ألماني بالولادة، أمريكي تماماً

ولدت في ألمانيا، وأعيش الآن في باريس. وقد عشت في العديد من البلدان بوصفي ممثلاً للولايات المتحدة الأمريكية، ولكن ما يصلح تعريفاً لي هو أنني أمريكي. وما أهتم به أكثر عندما أكون خارج عائلتي هو أن أعيش وفقاً للقيم العالمية المقبولة، والتي أود أن تبرزها الولايات المتحدة الأمريكية في الخارج. لقد فرغت حياتي للدفاع عن المصالح الأمريكية.

لقد ولدت باسم جونتر داينستفيرتيج Gunther Dienstefertig في المنطقة الصناعية بمدينة بريسلاو، في وادي الرور بسيليزيا، في 24 فبراير 1926. وعندما كنت أعيش هناك، كانت بريسلاو مدينة ألمانية يبلغ تعداد سكانها حوالي 600,000 نسمة. وخلال الألفية السابقة، انتقلت السيطرة على بريسلاو من بولندا إلى النمسا، ثم إلى بروسيا فإلى ألمانيا. كانت بريسلاو مكاناً فكرياً حيوياً، وموطن تسعة فائزين بجائزة نوبل في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وقد تكوت المدينة كلها من البروتستانت والكاثوليك، باستثناء ما يقرب من خمسة بالمائة من السكان كانوا من اليهود. كانت الكنائس وغيرها من المباني القوطية الكبرى، تهيمن على المنظر العام، وبخاصة في وسط المدينة القديمة، فقد كانت نقطة انطلاق للفرسان التيوتونيين الجرمان لإيصال المسيحية إلى أوروبا الشرقية في العصور الوسطى.

وقد تجاوزت الحياة الفكرية الغنية في بريسلاو - جامعتها، ومعهدها الطبي، وحدائقها النباتية، ومرصدها، ومدرستها، ومنظماتها الخيرية - حدودَ الدينامية الاقتصادية في المدينة إلى حد بعيد. وبالإضافة إلى الألمانية، التي هي اللغة الأم، كان عدد كبير من المثقفين يتحدثون الفرنسية، التي كانت اللغة الأساسية في العالم في ذلك الوقت. وبما أن

بريسلاو تقع بالقرب من حقول الفحم والحديد، عند التقاء خطوط السكك الحديدية، ويسهم الممر المائي العميق لنهر أودر في ربطها على مقربة من تشيكوسلوفاكيا [سابقاً] وبولندا، فقد كانت قوة صناعية يتم فيها صنع الطائرات والقاطرات. وبريسلاو - مثل بعض المراكز الصناعية وليس كلها - ترجمت قوتها الاقتصادية وتاريخها الثقافي المتنوع إلى مدينة عالمية فيها جامعة من الدرجة الأولى.

كان والدي، جوزيف داينستفيرتيج، محامياً ترأس العديد من مجالس إدارات الشركات، بما في ذلك المصارف ومصانع أدوات الآلات، ومشروعات التعدين. ولعل الأمر غير العادي هو أنه على الرغم من أنه كان يهودياً، فقد ترأس مجلس إدارة الأمراء هوهينلوهه، التي كانت عائلة أرستقراطية قوية. كانت أسرة هوهينلوهه تملك عقارات واسعة في سيليزيا، ومناجم ومصانع للخشب، ومنها آخر مستشار في ألمانيا الإمبراطورية تحت حكم القيصر فيلهلم قبل الحرب العالمية الأولى.

عاشت أسرة والدي في سيليزيا مدة خمسة قرون. وكان والدي ناشطاً في الشؤون المدنية في المدينة، وكان يهودياً يعد حياته الدينية مسألة شخصية. وعلى الرغم من أنه كان رئيس الجالية اليهودية لفترة من الوقت بين الحربين العالميتين، فقد استمد أعمق هوية له من جنسيته. وعندما طُلب إليه حضور افتتاح الجامعة العبرية في القدس في عام 1929، وافق هو وزعماء يهود آخرون، ولكنه قال أيضاً: «أنا مواطن ألماني من الملة اليهودية. أنا لست صهيونياً. إنني أؤمن باستيعاب اليهود وجميع الآخرين في مجتمع أكبر. إن ديننا هو أمر بيننا وبين خالقنا».

كان والدي يبدو مواطناً ألمانياً كلاسيكياً في زمنه، وكان رجلاً ممتلئ الجسم، ومتوسط الطول، ومتورد البشرة، وشعره بني داكن، وكان يرتدي ملابس أنيقة، ومازال لدي صورة له يرتدي فيها بذلة جميلة من ثلاث قطع، ويقف بفخر واعتزاز، وقد مشط شعره القصير إلى الخلف عن جبهته المرتفعة، وكانت معدته الرخوة تتوسط جسمه. لقد كان مثقفاً من جميع الوجوه ورجلاً عصامياً. وكان يجمع الأشياء التي تعبر عن ذوقه الراقي؛

من كتب بطبعتها الأولى، ولوحات لفنانين رواد من أوروبا، ومنحوتات، وسجاد، وأثاث جميل من القرن الثامن عشر. وكان يهتم بالأشياء التي تعبّر عن قيمه وثقافته.

أما والدتي، لوسي أشكناكزي Lucy Ashkenaczy سابقاً، فكانت ذات هوية أقرب إلى الدولية. كان والدها رجلاً مصرفياً ازدهر في عهد الإمبراطورية النمساوية-المجرية، ولكن أسرته تشتت شملها في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا. اعتنق بعض أفراد الأسرة الكاثوليكية، بينما بقي آخرون على اليهودية. وقد صعد العديد من أفراد أسرتها إلى مكانة بارزة في مجالات عملهم؛ وأصبح أحدهم رئيس شركة الكيماويات البترولية البريطانية، وكان آخر سفيراً بولندياً إلى بلاط سانت جيمس، وفي وقت لاحق غدا مندوباً لدى عصبة الأمم، وأصبح آخر رئيساً لكلية الطب في جامعة هارفارد. وقد حارب أخوها مع الفرنسيين في الحرب العالمية الأولى، وقاتل ابنه ضمن المقاومة الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية. وكانت في نشأتها تتحدث البولندية، ولكنها كانت تتقن التحدث بالألمانية والفرنسية كذلك، وفي وقت لاحق تعلمت اللغة الإنجليزية.

الأمر الأكثر أهمية بالنسبة إلي وإلى أصدقائي، هو أن والدتي كانت امرأة ودودة ورقيقة؛ فقد كانت تحب حياتها مع ولديها وزوجها، وتعيش في مجتمع راقٍ ضمن شقة فخمة مليئة بالتحف والأعمال الفنية الجميلة. كانت «مُتي»، وهو الاسم الذي كنت أدعوها به، ذات شعر بني كان أوفى من شعر والدي. وكانت رشيقة القوام وشاحبة البشرة. كانت ترتدي أفضل الملابس في وقتها. وكانت تحب الأزياء وتحيط نفسها بالملابس طوال حياتها، في البداية بوصفها مستهلكة ثرية في أوروبا، ولاحقاً موظفة مبيعات من الطبقة الوسطى في أمريكا. ولكن أهم صفة لها كانت انفتاحها. وبما أنها ذات طابع دولي أكثر من والدي، فقد كانت مغامرة تسعى لاستكشاف الأفكار من جميع الثقافات.

كنت أطمح إلى استلهام كثير من صفات والديّ؛ فقد كنت أعدهما مثالاً لعيش حياة رغيدة وكريمة، وكنت أقلد سلوكهما، وأسعى لفهم قيمهما. لم يكن ذلك صعباً؛ لأن والديّ

عاشا حياة نابضة بالحيوية، وجعلا الوقت يفسر القيم التي كانت توجه خياراتهما. كان أول درس تعلمته هو التسامح؛ فوالدي لم يكن يهمه دين الشخص أو جنسيته، بل المهم أن يكون الشخص مجتهداً ونزيهاً وصادقاً.

كان التسامح القيمة الأساسية لدى والديّ ومجتمعهما. كان التحامل موجوداً، ولكن الناس كانوا يعرفون كيف يواجهونه بجرأة. أذكر والدة رفيق لي في اللعب وهي تأمر ابنها بألا يلعب معي لأنني كنت يهودياً، فرد صديقي بالقول: «لن تقولي لي ألا أرافقه. إنه رفيقي. لا يهمني إن كان يهودياً أو لا». واستمر كلانا في اللعب مع الآخر. كان بعض الناس يفهم، حتى في عمر صغير، أن الفضائل الشخصية والمدنية أكثر أهمية من طرائق الاختلاف بين الناس. كان والدي يعلمني دائماً - بالكلام وبالقدوة - ألا أحكم على الناس إلا من خلال أعمالهم.

داومت في المدرسة حتى عام 1936، عندما جعلت قوانين نورمبرج* من الصعب على عائلة يهودية أن تحافظ على الروتين العادي في المدرسة والمجتمع. كانت مدرستي، فون زاواتزكي Von Zawatzki، تحوي نحو عشرين طالباً في الصف الواحد؛ أي ما مجموعه ثمانون طالباً، وكان هناك طالبان فقط من اليهود في المدرسة. وكنت أشعر أنني موضع ترحيب في المدرسة مثل أي طفل آخر، ولم أكن أشعر بأي وصمة عار بسبب كوني يهودياً. كانت المدرسة تطلب الجد والاجتهاد، وكان لدي الكثير من الواجبات المنزلية. كانت الدراسة والرياضة، ولاسيما كرة القدم التي نلعبها في كثير من الأحيان، هما ما يهمنا يوماً بعد يوم، وليس سياسة الدين. كانت المرة الأولى التي أذكر أنه تم استبعادي فيها بسبب الدين، عندما أخرجني أستاذي من مسرحية المدرسة. وقال أستاذي لوالدي: «لعل من الأفضل ألا يشارك بسبب قوانين نورمبرج». كنت أشعر دائماً برغبة كبيرة في أن

* هي سلسلة من القوانين العنصرية التي أقرها الحزب النازي في اجتماعه بمدينة نورمبرج عام 1935، والتي أسست للعديد من النظريات العنصرية المسيطرة على الحزب، واستهدفت هذه القوانين الفصل القانوني والاجتماعي بين اليهود والألمان في ألمانيا من خلال حرمان اليهود من المواطنة وحظر الزواج المختلط بين اليهود وغيرهم. (المحرر)

أكون جزءاً من الفرقة المسرحية، وشعرت أول مرة في حياتي بأني مهمل، ولكن مع ذلك لم يكن ذلك يعني الكثير جداً بالنسبة إلي.

في عام 1938، تم إرسال نسيب والدتي، بول ستيرن Paul Stern، إلى معسكر اعتقال في بوخنفالد Buchenwald، وسعت الأسرة لإخراجه. وكان يترتب على الجميع الإسهام بالمال من أجل إطلاق سراحه، وقد صادرت الدولة مطحنة الدقيق التي كان يملكها في براندنبورج، ولم تكن بعيدة عن برلين، ولم يسمح له بأن يأخذ إلا بعض لوحاته الانطباعية ولوحات عظيمة أخرى عندما غادر إلى إنجلترا. وقد فاز ابن عمه الكبير، أوتو ستيرن Otto Stern، بجائزة نوبل في الفيزياء.

لم أكن أرى والديّ كثيراً خلال الفترة التي كنا فيها نعيش في ألمانيا. كنت أراهما غالباً أيام الآحاد، عندما كنا نشارك في عشاء كبير يوم الأحد، أما في بقية أيام الأسبوع فكنت أرى والدي عندما كان يأتي إلى البيت ويقبلني قبل النوم. كان هناك معلّم اسمه هير بيزيت وسيدة إنجليزية اسمها إليانور ماري مكارثي كانا يترددان عليّ عام 1936 لتعليمي اللغة الإنجليزية في المنزل، وكانا يتابعان تعليمي فيما بينهما، وكانت هناك مربية ألمانية تعتني بي طوال اليوم. كنت أدرس اللغة الإنجليزية، والحساب، والعلوم، واللغة الألمانية، والتربية المدنية، والأدب، والموسيقا؛ وألعب مع الأولاد الذين هم في مثل سني. كنت أعيش حياة صارمة ومنضبطة، لكنها كانت حياة مرح ومغامرة أيضاً. كانت لعبتي المفضلة كرة القدم. ففي كل يوم تتاح لي فيه الفرصة كنت أذهب إلى حديقة في الحي وألعب كرة القدم مع بقية الأطفال، كباراً وصغاراً. لقد كنت رياضياً جيداً.

لم يكن أخي الأكبر، فولفجانج Wolfgang، مثقفاً مثل بقية أفراد الأسرة. وفي سن المراهقة، بدأ في الاستعداد لمهنة في متجر متنوع يملكه نسيب والدتي في جهة أخرى من المدينة. كانت تلك هي الحال في ألمانيا. كان أحد الأشخاص يقوم بتقويمات مبكرة حول استعداد الطفل، ويصوغ حياة الطفل وفقاً لذلك التقويم. كنا جميعاً نحب فولفجانج، فقد

كان يميل إلى العبث، ولا يميل إلى الكتب والثقافة الرفيعة، ولكنه كان لطيفاً وتجده دائماً ضاحكاً وصاخباً، كما كان وسيماً وكنتَ تجد البنات يسعين وراءه.

في البداية لم يكن تولي هتلر السلطة يعد مثيراً جداً للقلق، ولاسيما بين طبقة رجال الأعمال التي ينتمي إليها والدي. فقد كان هتلر يجادل - بحق - بأنه لا يمكن مطلقاً لألمانيا أن تنفذ شروط معاهدة فرساي بعد الحرب العالمية الأولى. ففي عهد جمهورية فايمار عانت ألمانيا التضخم والبطالة اللذين سبّبا لها الشلل. وقد وعد هتلر بالتخلي عن المعاهدة، وإحياء القوة الصناعية والقدرات العسكرية في البلاد.

أعرب هتلر، في كتاب **كفاحي** عن كراهيته الشديدة لليهود، ولكن الطبقة البرجوازية لم تأخذ ذلك المسلك السياسي في الحسبان حينما صعد إلى السلطة. فقد كانت جمهورية فايمار الديمقراطية تتصف بالعديد من الميزات الرائعة، ولكنها مع ذلك كانت غير قادرة على التعامل مع مشكلات ألمانيا بعد الحرب. فقد كان الفاشيون على اليمين والشيوعيون على اليسار يتنافسون على التعاطف من الشعب الألماني.

أصبح واضحاً أكثر من أي وقت مضى أن هتلر سيستهدف اليهود اقتصادياً واجتماعياً حينما عزز سلطته بوصفه مستشاراً. واضطُر اليهود إلى بيع مصالح أعمالهم على سبيل الإرجاء المؤقت للحكم بالاعتقال. وفي مقابل التخلي عن مصانعهم ومستودعاتهم، سُمح لهم بمغادرة البلاد مع أمتعتهم. كانت هذه هي الحال مع عمي بيترزدورف Petersdorf، الذي اضطر إلى بيع متجره المتنوع الكبير والأنيق (وهو الذي مايزال قائماً اليوم). ولم يسمح لليهود بإخراج أي مبلغ كبير من المارك الألماني خارج ألمانيا. وبالإضافة إلى ذلك، كان هتلر قد قطع صلة العملة الألمانية مع النظام النقدي الدولي. استطاع بعض الناس تخزين الأموال في البنوك الأجنبية في سويسرا أو في أماكن أخرى، وقد حثت والدتي والدي على القيام بذلك، لكنه رفض. وقال «كيف يمكنني ألا آتي بالمال إلى وطني؟ أنا محامٍ وكاتب عدل، وهو منصب حكومي، فكيف يمكنني ألا ألتزم القانون؟» كان ألمانياً قومياً ووطنياً إلى النخاع.

استمر والدي في الاعتقاد أنه يمكن – بل يجب – أن يبقى في ألمانيا، وأن أسوأ مخاوف اليهود لن تتحقق. وقد أيد بعض شركاء والدي في الأعمال هتلر، ثقةً منهم بأنهم يستطيعون السيطرة على عصبيته، وأنهم لم يكن لديهم بدائل مقبولة في ألمانيا. وكان أبي يقول إن المشكلات التي تواجه اليهود في ألمانيا «سوف تتلاشى». ولكن تصديق ذلك أصبح أكثر صعوبة فأكثر، وبدأت والدتي تجادل والدي بغية المغادرة، فقد انتقل أقاربها إلى نيويورك في أوائل ثلاثينيات القرن الماضي، وكانت قد زارتهم في مارس 1938.

علمتْ والدتي خلال تلك الزيارة، أن أخي قد مات من مرض معدٍ. وكان ذلك قبل اكتشاف المضادات الحيوية، فتوقف قلبه عن النبض. كان عمره ستة عشر عاماً فقط. وقد أصاب والدتي الذهول إلى درجة أنها بدأت تتحدث عن الانتقال إلى نيويورك أيضاً. وبينما كانت هناك، كانت تتطلع إلى أن تجعل أقاربنا يكتبون شهادة خطية يتعهدون فيها بأنهم سيعتنون بي؛ حيث سيساعد ذلك على السماح لي بالحصول على أوراق للذهاب إلى هناك. وبعد عودتها إلى بريسلاو، طلبت أثاثاً أصغر حجماً تحسباً للهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تم تصميم الأثاث المصنوع من باوهاوس، بحيث يكون مناسباً للدَّرج الضيق في مباني السكن في نيويورك. ومايزال لدي مكتب باوهاوس الذي جئنا به إلى نيويورك عندما هربنا من ألمانيا. ففي نوفمبر من عام 1938، جاءت الشرطة إلى والدي، فأسرع بواب مبنى شقتنا بصعود الدرج لتحذيرنا من أن الجستابو [البوليس السري الألماني] قد أتوا لإلقاء القبض عليه، وصاح: «دكتور، دكتور! إنهم قادمون! بسرعة!!». فانسل والدي هارباً إلى أسفل الدَّرج الخلفي، ثم ذهب إلى برلين؛ حيث جعل محامٍ أمريكي يدعى جازيلي، القنصليةَ الأمريكية تضيف اسمَيْ والديّ إلى الشهادة الخطية التي حصلت عليها أمي من أجلي في نيويورك. وفي غضون أسبوعين كنا في طريقنا إلى أمريكا.

في نوفمبر، أخذنا الأثاث وبعض الملابس وبعض الأعمال الفنية التي لا تقدر بثمن ولم يصادرها النازيون. لم يكن لدينا الكثير من النقود لنأخذها؛ لأن والدي القومي النزعة كان يرفض إيداع أمواله في البنوك الأجنبية. ذهبنا أولاً إلى هولندا؛ حيث استضافنا

شريك تجاري لوالدي كان يعمل في شركة تعدين في اليونان؛ ومن ثم إلى إنجلترا، وأخيراً سافرنا إلى نيويورك على متن الباخرة "إس إس كوين ماري".

وقعت في علاقة حب مع أمريكا على الفور، ففي اليوم الأول الذي خطوت فيه خارج شقتنا في كيو جاردنز بكوينز، رأيت بعض الصبية يلعبون لعبة البيسبول، فجريت نحوهم لكي أنضم إليهم. تعلمت كيف أرمي كرة البيسبول وأصوب كرة المضرب. كان الناس لطفاء معي، وتلاءمت أنا معهم، وشعرت كأنني في بيتي. وعلى الرغم من أنني لم أصبح مواطناً متجنساً إلى أن انضممت إلى المجهود الحربي في عام 1944، فقد أصبحت أمريكياً في العقل والروح بعد ظهر ذلك اليوم.

اعتمدت عائلتي، شأنها شأن غيرها من المهاجرين، اسماً أمريكياً أقصر عند وصولنا إلى بلدنا الجديد. فبدلاً من داينسفيرتيج Dienstfertig أصبحنا نسمي أنفسنا دين Dean، وحصلنا على موافقة محكمة في نيويورك على التغيير. فقد غيرت اسمي الأول بعد حديث أجريته مع مدير مدرستي. «يا ولد، أنت لا تريد أن تنادى باسم جونتر! بل تريد اسماً أوّلَ أمريكياً. ما الاسم الذي تريده؟» قلت إنني أحببت لفظ اسم توم. «لا، هذا ليس مناسباً. لماذا لا تدعو نفسك جون؟» ووافقت. واقترح المدير اسم جون جونتر، على اسم الصحفي الذي ألف فيما بعد أكثر الكتب مبيعاً **أيها الموت لا تفخر**. وسرعان ما سمح لي والداي بتغيير اسمي إلى جون جونتر دين.

كل ما كنت أريده هو التلاؤم والانسجام. أردت أن أكون مع الآخرين وأن أكون مثلهم. فقد سخر الأولاد من لهجتي الإنجليزية التي حصلت عليها من أستاذي البريطاني. «مهلاً، إنها لهجة إنجليزية!» وعلى الفور بدأت العمل على صقل الألفاظ التزيينية البريطانية، وإضفاء خشونة اللهجة الأمريكية وبساطتها.

ذهبت إلى المدرسة الثانوية في كيو جاردنز Kew Gardens. وقد شعرنا، أنا وأمي، بالسعادة في وطننا الجديد، فقد كانت دائماً تهوى الموضة والأزياء، وقد وجدت عملاً في

متجر لبيع الملابس، أما والدي، الذي كان في السابق رجلاً محترماً ومهماً في مجتمع متطور فقد سعى جاهداً كي يجد عملاً كمحامٍ.

وسرعان ما أخبرنا ابن عمي، هنري ستيرن - ابن والدي بالمعمودية - أن هناك مزيداً من الفرص لوالدي في مدينة كانساس سيتي. كانت كانساس سيتي مركزاً زراعياً، وكانت عائلة ستيرن تعمل في صناعة المطاحن في براندنبيرج، وكان قد قدم إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1937. كانت صناعة المطاحن عالماً صغيراً، وسرعان ما وجد طريقه إلى ولاية ميسوري. وأخبر والدي أن بإمكانه العثور على عمل في وظيفة محاسب. انتقلنا غرباً بجوار جراي هاوند Greyhound بعد أن عشنا في نيويورك لمدة خمسة شهور.

كان للعيش في مدينة كانساس سيتي أثر عميق في نفسي. استأجرنا شقة في مبنى مؤلف من أربع وحدات سكنية في حي هاريسون أفنيو. كنا مختلفين عن جيراننا الذين وجدونا غريبين منذ البداية، ولكنهم تقبلونا تماماً. وقد أمالوا رؤوسهم في حيرة حينما نقلنا التحف واللوحات والمنحوتات إلى منزلنا الصغير المتواضع. ولكننا سرعان ما أصبحنا جزءاً من حياة المجتمع.

في المبنى السكني المؤلف من أربع عائلات - حيث كنا نسكن - كانت لدينا شرفة ننام فيها خلال فصل الصيف للتغلب على الحرارة. كان قلة من الناس تملك مكيفات للهواء في تلك الأيام. وكان حي هاريسون أفنيو موطناً لطبقة وسطى مكافحة في مدينة كانساس سيتي. كان الحي جزءاً من شبكة الشوارع المنتظمة نفسها التي كانت تحدد معالم مناطق كثيرة في أمريكا: منتظمة، ومستقيمة، ومعروفة مسبقاً. كان الناس هناك لطيفين جداً، وكان الجيران يعرفون شيئاً عن ماضينا.

كان والدي ووالدتي كلاهما، يعملان، بينما كنت أنا أدرس في المدرسة، وسرعان ما كونت صداقات مع أولاد آخرين في الحي. كما أنشأ والدي شبكة جديدة من الأصدقاء وشركاء الأعمال في المدينة، وغدا رئيس جماعة المهاجرين الألمان المحليين. وأصبحنا

جزءاً من الجماعة اليهودية الإصلاحية المحلية، التي أعارت مبناها لجماعة المصلين من الكنيسة المسيحية التي كانت قد تهدمت بسبب حريق شب فيها.

شعرت بحزن شديد على والدي؛ فقد كان شخصية كبرى عندما كان في ألمانيا، ولكنه تراجع إلى عمل عادي نوعاً ما في الولايات المتحدة. عندما غادرنا ألمانيا، انتهت الحياة التي كان يعيشها. فقد عمل محاسباً في مخزن كراون للأدوية. ولفترة من الوقت، كان محاضراً زائراً في القانون الدولي بجامعة كنساس في لورنس، ولكنه خسر هذه الوظيفة عام 1940 عندما انتقد علناً تشارلز ليندبيرج Charles Lindbergh الذي كان يعارض دخول أمريكا في الحرب العالمية الثانية، وكان متعاطفاً مع النازيين.

وبعيداً عن هيبته ومكانته القديمة، أصبح والدي يفرغ نفسه لي بتفانٍ ومرح وأصبحت تراوده أحلام من أجلي؛ فقد كان يريدني أن أكون أحد المصرفيين. وكنت قد أخبرته في وقت مبكر جداً أنني أريد أن أكون في السلك الدبلوماسي، فقال: «أنت؟ أنت تريد أن تكون في السلك الدبلوماسي للولايات المتحدة؟» دلت نبرة صوته ضمناً على أن ولادتي خارج الولايات المتحدة ستجعل فرصي ضعيفة في تحقيق مثل هذا الهدف. لكنه تقبل اختياري، وفرغ نفسه لضمان مهنة الحياة التي أردت.

كنت أفعل كل ما كان يفعله الأولاد الأمريكيون في الغرب الأوسط. كنت ألعب الرياضة، وانضممت إلى الكشافة واعتنقت شعارها، وتوليت أحد مسارات توزيع صحيفة **كانساس سيتي ستار**. تعلمت كيف أتحمل المسؤولية عن عمل تجاري صغير، وكذلك التعامل مع شكاوى العملاء، وإدارة الأموال. كما عملت أيضاً في تعبئة مواد البقالة في متجر كروجر للمواد الغذائية. وعملت أيضاً في تعبئة الملابس للشحن في متجر هارتسفيلد المتنوع، ثم عملت في سكة حديد ريلواي إكسبريس في دفع الصناديق إلى داخل القطارات. وعندما كنت أنتهي من العمل كنت أجد الكثير من الوقت للعب مع عصبة من الفتيان في الحي. وكنت أحلم بأن أتمكن ذات يوم من الالتحاق بجامعة هارفارد، والانضمام في وقت لاحق إلى السلك الدبلوماسي.

كان من حسن حظي أن انتقلت عائلتي إلى مدينة كانساس سيتي. ففي نيويورك كان المهاجرون يتجمعون مع بني جنسهم، ويتحدثون لغتهم القديمة، ويبنون عالماً مكثفاً وفياً للماضي كما هو وفي للحاضر. ولكن في قلب أمريكا، كان يتعين على مهاجرين أمثالنا أن يصبحوا جزءاً من مجتمع أكبر. كان علينا أن نتحدث باللغة الإنجليزية ونتكيف مع حياتنا الجديدة. فقد شجعت طبيعة الحياة في الغرب الأوسط نزعة عائلتي للانسجام مع كل شيء. وعلى الرغم من أن مدينة كانساس سيتي بولاية ميسوري، كانت تحتفظ ببشاعة العزل والتمييز العنصريين، فقد كان المجتمع عموماً متسامحاً مع مختلف الأفكار والأشخاص.

تمثل التغيير الكبير بالنسبة إلي في أمريكا بأنني أصبحت الآن أقضي الكثير من الوقت مع والديّ. وبدلاً من أن يعيشا حياة أعمال نشيطة وحياة اجتماعية مزدحمة ويتركا رعاية الأطفال لمربيات ومدرسين، صارا الآن يقضيان معظم وقتهما في المنزل ومعي. وعندما كنت أعود إلى البيت من المدرسة كانت والدتي تقدم لي وجبة خفيفة أمريكية نموذجية مكونة من الكيك وكوب من الحليب، وكنا نتبادل الحديث حول ما حصل في ذلك اليوم. وفي المنزل كنا نتحدث ونحن جالسون إلى مائدة المطبخ، كما كنا نتحدث ونحن نقوم بمهمات في جميع أنحاء المدينة. كنت أتحدث عن كل شيء مع والديّ: عن المدرسة، ورفاق اللعب، والسياسة، والعمل، وما كنت أريد أن أصبح عليه عندما أكبر. تحدثنا كثيراً عن الأخلاق ونظام الحياة الصحيح. كانت الكلمات ذات معنى بالنسبة إلي؛ لأنها كانت جزءاً من حديث ودي متواصل. تحولت الحياة التي عشتها في ألمانيا، مدللاً في عالم من المعلمين والخدم، إلى الحياة في حضني والديّ الدافئين في أمريكا. لم يكن ثمة طريقة لأن يستعيد أبي نمط الحياة التي كان يحياها في بريسلاو وفخامتها؛ ولذا تفرغ لي هو ووالدتي. ومهما كلف الأمر لتعليمي، ورعايتي، ودفع تكاليف دراستي في جامعة هارفارد أو في أي مكان آخر، فقد عقدا العزم على القيام به.

كان والدي يعلمني بالقدوة والموعظة معاً، وأذكر بوضوح أنني كنت أجلس معه في الترام في وسط مدينة كانساس سيتي عندما صعدت امرأة سوداء إلى الترام، والتعب بادٍ عليها من عمل يوم طويل، فوقف والدي، وأمال قبعته، وأعطاها مقعده، فغضبت إحدى الراكبات من البيض وشتمت والدي، ومازال صوتها الأجش يتردد في أذني: «أنت حبيب الزنجيات، أنت تقف لتلك الفتاة هنا. ما هذا الذي يجري هنا؟».

ثم التفت سائق الترام إلى والدي وقال: «اسمع، أيها الرجل العجوز، خذ ابنك وانزل من هذا الترام. لا أريد أي مشكلة هنا». لم أفهم تماماً ما كان يحدث، ولكنني نظرت إلى والدي وأدركت أنه لا بد من أنه كان على حق. وحتى يومنا هذا، أجد أنه من غير المفهوم تماماً أن يفكر الناس أن غيرهم أدنى منهم بسبب لون بشرتهم، أو بسبب الدين أو مستوى التعليم أو أي عامل آخر غير صفاتهم الشخصية.

لم تؤدِ ظروفنا المتواضعة إلى إضعاف الحماسة لدى والدي للأمور الطيبة. كان علينا ببساطة أن نقوم باختيارات لتحديد الأمور الأكثر أهمية. كان والدي مايزال يريد الكتب والسجائر. وبما أنه لم يعد يملك الكثير من المال، فقد قال إنه كان سعيداً بالتخلي عن سيجار لأجل كتاب. كانا يضحيان دائماً لأنهما كانا يريدان إرسال جوني إلى الكلية، فإذا كان لديهما دولار، فإنهما يوفران منه عشرة سنتات.

كان من عادة والدي أن يستشهد بالشعر والأدب والفلسفة؛ ليعطيني قواعد أعيش وفقاً لها. وسواء كان يعلم ذلك أو لا، فقد كان يتصرف بروح المساعدة الذاتية التي اعتبرها بنجامين فرانكلين جزءاً مميزاً من المصطلحات الأمريكية. وقبيل أن أغادر إلى جامعة هارفارد، كتب لي المقتطفات الآتية من الحكمة:

أن تكون لا أن تبدو، وأن تفعل لا أن تتكلم فحسب.

أحبَّ جارك كما تُحبُّ نفسك.

كن نظامياً، فسيوفر ذلك عليك الكثير من المشكلات.

أحب ما استطعت ذلك؛ لأن الساعة التي ستقف فيها بجوار القبر وتحزن تقترب.

مهما تفعل من شيء، فكن حكيماً واحترم الغاية.

استفد من يومك.

كونك إنساناً.. تلك الفكرة بالذات يجب أن تجعلك متواضعاً.

كونك إنساناً.. تلك الحقيقة ينبغي أن تجعلك ترفع رأسك من جديد.

إن أتيت للعالم بجنة على الأرض فلن تكافَأ؛ لذا فكر في نفسك وعائلتك.

تعبر هذه المقتطفات عن حقائق كونية تنطبق على حالات في جميع أنحاء العالم. وهي تمثل دليلاً على ممارسة الحياة؛ فهي تقول لك إنك مَدين بشيء للعالم. وقد حاولت أن أتبع هذه الحقائق؛ لأنني كنت أريد أن أحظى باستحسان والدي. وحتى اليوم، بعد نحو ستين عاماً، أسعى للحصول على استحسان والدي، ومازالت لدي مجموعة الاقتباسات هذه.

كنت أقضي ساعات في المكتبة العامة، أقرأ خلالها التاريخ والفلسفة، وكنت أتحدث مع والدي عما كنت أتعلمه. وقد أقمت صداقات مع المعلمين وأمناء المكتبات، والجيران وأصحاب المحال التجارية. قلت ذات مرة لأمينة إحدى المكتبات إنني أود أن أعرف المزيد عن أمريكا، وإنني مهتم بحياة ألكسندر هاملتون. قالت لي إنها تعتقد أن هاملتون كان استبدادياً جداً، وأنه ينبغي أن أفكر في الاطلاع على توماس جيفرسون وجيمس ماديسون أيضاً، وهو ما فعلته. واليوم تتخذ المُثل السياسية لدي في صميمها حكمة ماديسون الذي كان يدافع عن نظام انتشار السلطة، والضوابط والتوازنات، والمسؤولية المشتركة، وليس العمل بتواضع فحسب، بل تحمل مسؤولية التصدي لإساءة استخدام السلطة من الآخرين في النظام أيضاً. وعندما قرأت مقالات **أوراق فيدرالية** التي كتبها

هاملتون وماديسون وجون جاي لتعزيز اعتماد دستور الولايات المتحدة الأمريكية، غدت جزءاً أساسياً من شخصيتي ومما أؤمن به.

وحينما درست قصص عظماء أمريكيين، وجدت أنهم أصبحوا جزءاً من تراثي. ينسى الناس أحياناً أنك عندما تصبح أمريكياً، فإنك تغدو جزءاً من الانتماء القومي، تماماً كما لو أن عائلتك كانت دائماً في الولايات المتحدة الأمريكية. فأنا أعد جورج واشنطن جدي الروحي، وتوماس جيفرسون، وأبراهام لنكولن، وتيدي روزفلت، وفرانكلين روزفلت، جميعاً، جزءاً من انتمائي الفكري. كان كفاحي في أمريكا يتمثل في الدفاع عن فرانكلين روزفلت. وكان هناك فتى يتفوه بكلام مسيء لروزفلت، فنشب عراك بيني وبينه، فعدت إلى البيت وآثار اللكم ظاهرة على وجهي، بيد أني لم أبالِ، فقد كنت أدافع عن رئيسي.

في سن الشباب، بحثت عن كل وسيلة ممكنة للاستعداد لجامعة هارفارد. وقد أعطاني والدي دروساً متواصلة عن الفلسفة والتاريخ والفن والثقافة. وكنت أطلب من المعلمين وقادة الكشافة ومن كل شخص، نصائح حول كيفية تحسين مستواي. وقد نصحتني إحدى المعلمات بقراءة مسرحية مختلفة لشكسبير كل أسبوع، فاتبعت نصيحتها. وعندما كانت تمر بي كلمة لا أفهمها، كنت أبحث عنها في القاموس وأكتب منه تعريفها. وقد بقيت دروس شكسبير معي فلم أنسَها. فقد صور التناقضات في طبيعة الإنسان وأحواله، بطريقة أو بأخرى. فالإنسان ذكي وأعمى، ومحب وغيور، وقوي ومثير للشفقة، ورقيق وعنيف، ومتواضع ومتأنق، ومَن ثمة أمل في إنقاذه، ومن هو ميئوس منه. كان من حسن حظي أن اهتديت إلى شكسبير في وقت مبكر، وقد عشت من العمر ما يكفي لرؤية جميع دروسه ماثلة أمام عيني.

راقبنا الأحداث في أوروبا باهتمام كبير. وأذكر الاستماع إلى جهاز الراديو في مايو 1940 عندما جاءت الأخبار بأن فرنسا استسلمت للألمان. فقد أذاع كالتنبورن H.V. Kaltenborn أحد المذيعين الرواد للأخبار، خبر استسلام فرنسا من قاطرة السكك الحديدية نفسها التي استسلمت فيها ألمانيا لفرنسا عام 1918. كانت أمي تبكي.

لم يكن الشخص العادي في الغرب الأوسط يعير الحرب كثيراً من الاهتمام. كان الناس في مدينة كانساس سيتي يتحدثون عن فريق البيسبول في الدوري الثانوي، والجهاز السياسي للحزب الديمقراطي في كانساس سيتي بقيادة توم بندرجاست، والجدل حول الصالونات التي كانت موضع سخرية، ولماذا كان على المدارس أن تغلق أبوابها قبل شهر من موعد نهاية الدراسة بسبب العجز المالي. كان معظم الناس الذين اهتموا بالحرب على الحياد. ولم يتيقظ كثير من الناس إلى مطامع النازيين الوحشية إلا بعد الدمار الذي أحدثه الألمان بهجماتهم الصاعقة. وبما أنه كان لدينا أفراد من الأسرة في جميع أنحاء أوروبا، بمن في ذلك بعض الناس في معسكرات الاعتقال، فقد تابعنا الحرب عن كثب. كنا نعرف المدن المتأثرة بالحرب، ووصلتنا رسائل من فرنسا وإنجلترا وبلجيكا، وكانت جميعها تعلق على الحرب والأوضاع في أوروبا.

وحينما كبرت، اتخذت قراراً بأنني أريد المشاركة في القتال بالحرب. كنا نعرف أن الولايات المتحدة ستكون جزءاً من قضية الحلفاء قريباً، وقد دخلت الحرب أخيراً عندما قصفت اليابان ميناء بيرل هاربر في 7 ديسمبر 1941.

كان والداي قد خسرا كل شيء تقريباً عندما اضطرهم النازيون إلى الفرار من ألمانيا، ولكنهما لم يعربا مطلقاً عن الاستياء أو المرارة من تجربتهما. أنا مَدين بكل ما عندي من ولاء لأمريكا، ولكن لا يمكنني أن أكره ألمانيا. فقد مضى جيلان على استيلاء النازية على ألمانيا، وتهديدها أوروبا والعالم. لا يملك بعض الناس إلا أن يطلقوا العنان للتعبير عن خسائرهم وعن الألم الذي ينتابهم، أما أنا فلا أستطيع أن أحمل مثل هذه المشاعر السلبية. لقد ظهرت أجيال جديدة في ألمانيا، وبلدي الأصلي هو أكثر ديمقراطية وانفتاحاً الآن مما كان عليه في أي وقت مضى. لا أستطيع أن أقول للآخرين كيف ينبغي أن يشعروا، ولكنني كنت أومن دائماً بأن من الأفضل أن نعيش في الحاضر، نبني على الماضي بدلاً من التطلع إلى ما قد ضاع. إننا بحاجة إلى تضميد الجراح بدلاً من رش الملح عليها وزيادة ألمها.

كلما ذكر موضوع الماضي - كم خسرنا عندما اضطررنا إلى الفرار من ألمانيا - كانت والدتي غالباً ما تقول لي: «لا يمكنك أن تنظر إلى الوراء. انظر إلى ما ينتظرنا في المستقبل».

كان استشراف المستقبل بالنسبة إلي يعني الذهاب إلى جامعة هارفارد والاستعداد للعمل في مجال الخدمة العامة. وقد تخرجت في مدرسة ويستبورت الثانوية عندما كان عمري ستة عشر عاماً، وذلك في شهر يونيو من عام 1942.

الفصل الثاني

قوة المعرفة

كان لوالدي صديق من ألمانيا يـدعى هـاينريخ بـرونينج Heinrich Bruning، كـان مدرّساً في جامعة هارفارد. كان برونينج، وهو كاثوليكي متدين، رئيـس حزب المحـافظين المعتدلين، وأصبح مستشاراً لألمانيا عام 1930؛ حيث بقي في السلطة حتى عام 1932. وبما أن برونينج كان يحكم بموجب مرسوم، فقد اتخذ تدابير جذريـة - لم تحـظَ بشـعبية - ضـد التضخم، لكنـه اضـطُر إلى مغـادرة منصـبه عـام 1932 عنـدما قـام الرئيـس بـول فـون هيندينبيرج بتعيين فرانز فون بابن مستشاراً. غادر برونينج ألمانيا عام 1934 وانضم إلى هيئة التدريس في جامعة هارفارد في قسم الإدارة الحكومية عام 1937.

عندما تقدمت بطلب إلى جامعة هارفارد عام 1942، كتب والدي إلى صديقه الدكتور برونينج على أمل أن يوضح نبذة عني لمجلس القبول في جامعة هارفارد. كنت قد اجتـزت امتحان مجلس الكلية الشـرقية؛ ما جعلني مؤهلاً للقبول. ولكن ما فرص طالـب مدرسـة عامة للمهاجرين تخرج في مدرسة ثانوية صـغيرة في الوسـط الغـربي في القبـول في جامعـة هارفارد؟ لم يكن قد حدث قط أن التحق أحد مـن مدرسـة ويسـتبورت الثانويـة بجامعـة هارفارد، كما ذكّرني مدير المدرسة. ولكن بعد مقابلة في مدينة كانسـاس سـيتي مـع عضـو متنقل في مجلس القبول في جامعة هارفارد، كنت أول متقدم في مدينتي يتم إشعاره بأنني قد قبلت. كان يوماً عظيماً بالنسبة إلي، ولكنه كـان أعظـم بالنسـبة إلى والـديّ اللـذين كانـت أهدافي في الحياة ذات أهمية قصوى لديهما.

كنت مصمماً على الالتحاق بجامعة هارفارد إلى درجة أنني لم أكن أفكر في التقـدم إلى أي جامعات أخرى. وقد فعلت كل ما في وسعي للتحضير للجامعة. فقد أصبحت أجيـد

لغات عدة بطلاقة، ودرست التاريخ والثقافة الأمريكيين، وقرأت الفلسفة والأدب، وتأججت لدي الرغبة في الإنجاز.

في تلك الأيام، كان مطلوباً من طلاب جامعة هارفارد، أخذ مقررات في ستة مجالات مختلفة: التاريخ، والعلوم الإنسانية، والرياضيات، والعلوم، وغيرها، وأخذ ستة مقررات في مجال واحد من التركيز. كان منهج "التركيز والتوزيع" هذا قد سبق ظهور المنهج الدراسي الأساسي الذي كان يهدف إلى إعطاء طلاب جامعة هارفارد أوسع نطاق ممكن في فهم الحضارة والمعارف الغربية.

وفي عامي الأول كنت أعيش في ويجلزوورث، وهو مهجع الطلبة الجدد في هارفارد يارد. وبما أن والديّ لم يستطيعا تحمل تمويل إلا جزء من تكاليف الدراسة في هارفارد، فقد عملت نادلاً للطلبة في وينثروب هاوس؛ الأمر الذي ساعدني على تغطية وجبات الطعام، ثم عملت لدى مؤسسة قرب هارفارد سكوير في تسويق العقود الضرورية لغسل وكي الملابس للطلاب الأكثر ثراء، وكنت أحصل على عمولة عن كل عقد من العقود المبيعة. ومازال أحد زملائي في الصف، ولاحقاً زميلي آرثر هارتمان، الذي أصبح سفير الولايات المتحدة في فرنسا والاتحاد السوفيتي، يتذكر ممارستي تلك الأعمال. وقد كسبت ما يكفي لدفع ثمن تذكرتين للسينما، وكانت فتيات رادكليف أو ويلسلي الجميلات حريصات على لقاء طلاب هارفارد، وكانت الحياة رائعة.

أصبح الشباب الذكور نادرين في الفترة 1942-1943؛ لأن الخدمة العسكرية جندت المزيد والمزيد من الرجال. ففي أحد الأيام في أوائل عام 1943 في دار السينما بميدان هارفارد سكوير، بينما كنت أشاهد شريطاً إخبارياً، رأيت المارشال فون باولوس يقوم بتسليم فيلق من الجيش الألماني بأكمله إلى السوفييت في ستالينجراد. وماتزال صورة فون باولوس وهو يرفع عالياً عصا المارشالية ماثلة في ذهني بعد مرور أكثر من خمسة وستين عاماً. ولعل هذه الحادثة عززت رغبتي في الالتحاق بالقوات المسلحة الأمريكية في أقرب وقت ممكن.

تؤوي هارفارد الطلاب في قاعات للسكن، بحيث يشكلون مجتمعاً اجتماعياً مستقراً، أما أدامز هاوس؛ حيث كنت أعيش في السنة الثانية، فكان أحد مساكن الكلية الأكثر عدداً في الطوابق، وقد كان في السنوات السابقة سكناً لفرانكلين روزفلت، وبكمنستر فولر، وويليام راندولف هيرست الابن.

أسهمت الحرب العالمية الثانية في صوغ شكل بيئة الحياة في جامعة هارفارد. وبالنظر إلى أن الرجال ذهبوا للقتال في أوروبا والمحيط الهادي، فقد تضاءل حجم صفوف الهيكل الطلابي. فقد كانت هارفارد على مدى أجيال، موطناً لطلبة المدارس الثانوية الذين لهم صلات بقطاع الأعمال والحكومة، ولكن عندما التحقت بها، أسهم اللاجئون من الدول التي مزقتها الحروب، مثلي أنا، في إضفاء أجواء دولية على هارفارد.

كان عميد الجامعة، بول باك، يقول للطلاب الجدد إنهم «لا حقَّ لهم» في الحياة الجامعية، ما لم يفكروا في الخدمة في المجهود الحربي. وتم تغيير التقويم الأكاديمي للمحافظة على الدوام في الجامعة طوال اثني عشر شهراً في السنة، مع إضافة فصل الصيف البالغ اثني عشر أسبوعاً إلى فصلي الخريف والربيع النظاميين. وقد أصبحت ساحة هارفارد يارد، ميداناً للتدريب على برامج عسكرية مماثلة لهيئة تدريب ضباط الاحتياط؛ حيث كانت التدريبات اليومية تبدأ في الساعة السادسة صباحاً. كان أدامز هاوس أحد مباني الحرم الجامعي القليلة التي لم يتم تسليمها للمجهود الحربي. اختفت البهارج الجامعية وسياسة الحرم الجامعي المعتادة تقريباً، وتم تعليق منافسات كرة القدم التقليدية بين جامعتي هارفارد وييل مؤقتاً لخفض تكاليف السفر، ولعبت هارفارد مع كلية بوسطن بدلاً من ذلك. وقد سلطت المقررات الأكاديمية التركيز أكثر من أي وقت مضى على العلوم والتكنولوجيا، فضلاً عن تدريب مكثف على اللغات الأجنبية التي قد تكون مفيدة للمجهود الحربي.

بعد عامين، تركت هارفارد للانخراط في الجيش. واضطررت إلى التطوع للتجنيد؛ لأنني كنت ما أزال «غريباً معادياً»؛ أي مواطناً ألمانياً؛ ومن ثم لم يمكن بالإمكان تجنيدي.

كان أول عمل لي بعد التجنيد أن أصبح مواطناً بالتجنيس. لم يخامرني شك مطلقاً في أني سأصبح ذات يوم مواطناً أمريكياً. وبعد أن تم إرسالي إلى فورت بيلفوار، بالقرب من عاصمة البلاد؛ للتدريب الأساسي، ذهبت إلى المحكمة الاتحادية في واشنطن لحضور حفل مع حوالي عشرين جندياً آخرين كانوا يريدون أن يصبحوا مواطنين أمريكيين، بمن في ذلك واحد كان مرفوضاً؛ لأنه كان عضواً في جماعة فريتز كوهن الألمانية المناهضة للولايات المتحدة. وقد تضمنت شهادة الجنسية صورتي في البذلة، وكأنني فتى صغير. لقد كانت لحظة عظيمة بالنسبة إلي، فقد كنت سأصبح جزءاً من الولايات المتحدة الأمريكية! كان الحفل قصيراً وهادئاً، على عكس بعض المراسم المعقدة التي تقيمها دائرة الهجرة والجنسية اليوم في أماكن مثل قاعة فانويل أو جزيرة إليس. أقسمنا الأيمان، وتناولنا الغداء معاً، وعدنا إلى القاعدة.

لقد مثلت الحياة كجندي مشاة في التدريب العسكري الأساسي في فورت بيلفوار درساً في العمل مع الناس من مختلف الخلفيات. التقيت عدداً كبيراً من الشبان من جبال الأبلاش الذين لا يستطيعون القراءة أو الكتابة. كانوا أناساً طيبين، ولكن كان لدينا القليل من القواسم المشتركة. وأتذكر عقد اتفاق مع جندي المشاة كورفين، وهو فتى أمي من أبالاتشيا Appalachia، كان عمره ثمانية عشر عاماً ومتزوجاً. ففي مقابل قراءتي وكتابتي رسائله، كان يقوم بتنظيف بندقيتي. أصبح صديقي، ولكننا تلقينا أوامر مختلفة في نهاية المعسكر. وقد قتل كورفين فيما بعد في معركة البلج the Bulge في آردن في أواخر عام 1944.

بعد أربعة أشهر من التدريب، وفي «حفل التخرج» في ميدان العرض، قام القائد بدعوة المجندين واحداً تلو الآخر، وطلب إليهم المضي إلى مهماتهم في الخارج. وكنت المجند الوحيد الذي لم ينادَ على اسمه. ونظراً إلى مهاراتي اللغوية، تم إرسالي إلى عملية استخباراتية في غاية السرية خارج واشنطن، تعرف باسم «صندوق البريد 1142». وكان ذلك أول اطلاع لي على أهمية جمع المعلومات الاستخباراتية. كنت جزءاً صغيراً من العملية، ولكننا جميعاً كنا نشعر بأننا نسهم في المجهود الحربي. كان أحد رفاقي هناك

يسمى ألكسندر دالين، وقد أصبح فيما بعد أستاذاً في جامعة كولومبيا وستانفورد؛ حيث ألف كتابين مع طالبة واعدة حول الشؤون الدولية، هي كوندوليزا رايس.

كانت إحدى مهماتي في وقت لاحق العمل مع الدكتور هاينز شليك Heinz Schlicke، وهو عالم ألماني. وكانت قوات الحلفاء قد أسرت شليك عندما استسلمت غواصته، التي كانت متجهة إلى طوكيو وتحمل معادن ثمينة، قبالة سواحل أوروجواي في مايو 1945، عندما كانت الحرب مع اليابان ماتزال مشتعلة. وكان من بين الذين على متن الغواصة اثنان من الضباط العسكريين اليابانيين قاما بالانتحار بطريقة هارا كيري اليابانية عندما استسلمت الغواصة للحلفاء.

كان شليك يعمل في تقنية الأشعة ما تحت الحمراء في بينيموندي Peenemünde؛ حيث طوّر فيرنر فون براون صواريخ V-1 وV-2 الألمانية التي كانت تستخدم ضد إنجلترا. وقد مكّنت الأشعة ما تحت الحمراء الطائرات الألمانية من الرؤية من خلال العقبات والموانع؛ مثل الغيوم والغابات والظلام؛ لتحديد موقع قوات العدو بواسطة الحرارة المنبعثة من الأجسام البشرية. وعندما تم أسر شليك كانت الغواصة في طريقها لتسليم اليابانيين أسرار تقنية الأشعة ما تحت الحمراء، التي لم تكن قوات الحلفاء قد امتلكتها بعد. وقام مسؤولون عسكريون ذوو خلفية علمية بإقناع شليك بالعمل مع العلماء الأمريكيين، بحيث تتمكن الولايات المتحدة من استعمال تقنية الأشعة ما تحت الحمراء.

كانت مهمتي مرافقة شليك وأن أصبح صديقه، فكنت أخرج للنزهة معه، وأتناول الطعام وألعب الرياضة معه. وعندما اقتنع بتبادل معلوماته وخبراته معنا، طلب إلينا أن نساعده على إخراج زوجته وأطفاله من المنطقة الروسية في ألمانيا. كانت الحرب قد انتهت في أوروبا، وكان جميع الحلفاء يحاولون ما في وسعهم التعرف إلى التكنولوجيا والعلوم الألمانية، وتم إرسالي إلى ألمانيا لإخراج زوجة شليك وطفليه من منطقة الاحتلال الروسي إلى المنطقة الأمريكية، وقد نجحت في القيام بذلك.

وفي السنوات اللاحقة في السفارات، قضيت الكثير من الوقت في إنشاء أقسام العلوم والتقنية المختصة. وفي بعض الأحيان كانت العملية مسألة تبادل المعرفة مع الدول الصديقة. وفي أحيان أخرى كان اكتشاف المرحلة التي وصلت إليها دول أجنبية في تطوير تقنيات جديدة؛ حيث يمكن استخدام معظم الاختراعات التقنية والعلمية لأغراض مزدوجة؛ فعلى سبيل المثال، يمكن استخدام الأشعة الذرية لتدمير بعض الأورام الخبيثة، كما يمكن استخدامها أيضاً لقتل جنود العدو. ويمكن استخدام بعض المواد الكيميائية في علاج أمراض معينة، في حين يمكن استخدام المادة الكيميائية نفسها في جرعات مختلفة لتدمير الحياة.

كان الحصول على أسرار العلوم والتكنولوجيا يكمن في تطور المعلومات الاستخباراتية في النصف الثاني من القرن العشرين؛ فالمعرفة هي القوة. وفي وقت لاحق من حياتي المهنية في السلك الدبلوماسي، كثيراً ما كنت أحث العلماء الأجانب المبدعين على العمل في الولايات المتحدة الأمريكية؛ لأن من شأن ذلك أن يشجع التقدم العلمي في بلدي. وفي المقابل، كنت أساعد على إقامة صلات بين جامعات أمريكية علمية وتقنية مشهورة ونظيراتها في البلدان التي كنت أعمل فيها. كما أنني حاولت إيجاد أموال لإرسال أساتذة أمريكيين للعمل في مؤسسات علمية أجنبية، وقد نجحت في هذا المسعى في أماكن؛ مثل تايلند والهند.

لم أكن أعرف بالضبط ما يعنيه مصطلح atomzertrümmerung – انقسام الذرة – في أكتوبر عام 1944، عندما سمعته أول مرة من أحد «الضيوف» الألمان خلال عملية «صندوق البريد 1142». وبعد عام تقريباً أصبح كل شخص في العالم يعرف ما تعنيه الكلمة. فقد ألقت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناجازاكي في 6 و9 أغسطس من عام 1945. وقد عجّلت القنبلتان باستسلام اليابان ونهاية الحرب، كما أسفرتا أيضاً عن سباق التسلح النووي، وعصر الخطر النووي، الذي يمكن فيه لأي دولة تملك القنبلة نسف العالم، أما الآن؛ أي في الأيام الأولى من القرن

الحادي والعشرين، فقد اتسع نطاق «النادي النووي» إلى خارج الولايات المتحدة، وروسيا، وبريطانيا العظمى، وفرنسا؛ ليشمل الصين والهند وباكستان وإسرائيل وكوريا الشمالية، مع سعي إيران للانضمام إليه. ويبقى التهديد النووي أحد أكبر التحديات للإنسانية. وقد أثارت هجمات 11 سبتمبر 2001 مخاوف جديدة من احتمال أن يمتلك الإرهابيون ذات يوم التقنية اللازمة لتفجير قنبلة نووية. وحتى الآن لم يستطع المجتمع الدولي العثور على طريقة لإجراء خفض كبير في مخزون مواد الأسلحة النووية التي هي عرضة للجماعات المارقة. وحينما كنت أخدم في القوات المسلحة في «صندوق البريد 1142»، اشتملت دراستي في السياسة الواقعية على محادثات طويلة مع بعض الشخصيات البارزة من ألمانيا وروسيا، وكان أحدهم، وهو جوستاف هيلجر Gustave Hilger، دبلوماسياً ألمانياً مقره في الاتحاد السوفيتي. وقد ولد هيلجر في أسرة ألمانية ميسورة كانت تعيش في روسيا منذ نحو قرنين من الزمان؛ ومن ثم فقد كانت لديه معرفة عميقة بماضي روسيا وحاضرها، تفوق ما كان يعرفه أي شخص آخر في الولايات المتحدة في ذلك الوقت. كان رجلاً متعلماً تعليماً عالياً، واسع الثقافة والمعرفة، صادقاً، ومتسامحاً، وكان يكن احتراماً للثقافة الألمانية والحضارة الروسية. وقد طلبت إليه جمهورية فايمار نحو عام 1924 أن يقوم بتمثيل الصليب الأحمر الألماني في الاتحاد السوفيتي. وعندما أقامت الحكومة الألمانية علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي في أوائل الثلاثينيات، قبل وصول هتلر إلى السلطة، طُلب إليه الالتحاق بالسفارة الألمانية مستشاراً.

شارك هيلجر في مفاوضات عام 1939 التي أدت إلى المعاهدة الألمانية-السوفيتية التي قسّمت بولندا بين البلدين. وقد نقلت الصحف في جميع أنحاء العالم الصورة التي تحيي ذكرى حدثهم التاريخي؛ حيث ظهر فيها وزير الخارجية الألماني فون ريبنتروب Von Ribbentrop جالساً بجانب وزير الخارجية السوفيتي مولوتوف Molotov، وخلف ريبنتروب مباشرة كان يقف جوستاف هيلجر.

وفي أواخر عام 1944؛ أي بعد نزول الحلفاء في نورماندي، سلّم هيلجر نفسه للسلطات الأمريكية وتم نقله إلى الولايات المتحدة. وقد قتل ولده الوحيد في ستالينجراد، وأصيب بخيبة أمل تماماً من اشتراكية هتلر القومية وشيوعية ستالين معاً. حاول هيلجر مساعدة الأمريكيين على فهم الاتحاد السوفيتي في عهد ستالين، والمشكلات التي كانت في انتظار الغرب الديمقراطي بعد الحرب. وبقي في الولايات المتحدة مع زوجته مدة خمس سنوات تقريباً قبل أن يعود إلى ألمانيا.

بما أن هيلجر لم يكن يستطيع التحدث باللغة الإنجليزية، بل كان يتحدث الألمانية والفرنسية، فقد تم تكليفي بالمسؤولية عنه، فكنت أقضي ساعات أسليه في أثناء ساعات فراغه. وقد عمل معه ضباط مدنيون وعسكريون أمريكيون آخرون رفيعو المستوى بشكل مهني. وبينما كنا نشرب القهوة أو الشاي، كان هيلجر يوضح لي طبيعة النظام السوفيتي، بما في ذلك المدى الكامل للأهوال الستالينية: الملايين الذين ماتوا من الجوع والتهجير القسري، والملايين غيرهم ممن قتلوا في الحرب. وحكى لي كيف استقبل الأوكرانيون الغزاةَ الألمان فرحين بأقواس مصنوعة من الزهور، وممتنين لتحريرهم من البؤس ومن عنف ستالين. كما أخبرني عن حياة الروس البائسة في المدن والأرياف. لا شيء من هذا يمثل عذراً للفظائع النازية، لكنه علّمني بالفعل فيما يتعلق بالخيارات الرهيبة التي قد يواجهها المرء في الشؤون الخارجية. وعلى الرغم من الحال الرهيبة التي كان عليها ستالين، فقد لعب الروس دوراً رئيسياً في كسب الحرب للحلفاء. يهاجم أنصار تنقيح التاريخ الآن روزفلت وتشرشل بسبب رضوخهم لستالين في مؤتمر يالطا؛ فكيف يمكن للحلفاء أن يسلّموا ألمانيا لستالين، أو بولندا، أو يوغوسلافيا؟ هل كان لدينا خيار حقاً؟ لقد فعلنا ما استطعنا كما فعلنا في يالطا. ولعل يالطا أيضاً كانت وراء القرار الذي اتخذته أمريكا باستخدام القنبلة الذرية. قال ستالين لشركائه إنه كان يود أن يُجهز على اليابان تماماً. فهل كان أملنا الوحيد للتغلب على السوفييت باستخدام القنبلة الذرية على اليابان؟ إذا كان الأمر كذلك، فقد كان ذلك خياراً مروعاً. كان ذلك هو السياسة الواقعية *realpolitik*.

كانت الحياة اليومية في منشأتنا العسكرية لدينا في «صندوق البريد 1142» تسير ببطء. وسرعان ما حظيت بسمعة لحبي للرياضة، وذات يوم تحداني شخص بالسباحة عبر نهر بوتوماك ذهاباً وإياباً. وكان الرهان بيننا على عشرين دولاراً بأنني لا يمكنني أن أفعل ذلك؛ كان ذلك مبلغاً كبيراً من المال بالنسبة إلي. قمت بالغوص على الفور، ولكنني بعد ذلك اكتشفت شيئين لم أكن أتوقعهما. أولاً، كان التيار في النهر قوياً. كانت مقاومة الماء شديدة، وكان علي أن أسبح ضد التيار لمجرد البقاء في الجزء نفسه من النهر. والأمر الأشد صعوبة هو أن النهر كان "مجروراً" بالمعنى الحرفي للكلمة. ففي تلك الأيام، كان نهر بوتوماك حيث يتم تصريف المراحيض من واشنطن والمجتمعات الأخرى. شعرت بالغثيان وأنا أسبح وسط الحطام العائم عبر النهر. ولكن العبور لم يكن كافياً؛ إذ كان علي أن أسبح عائداً، وقد فعلت هذا، وحصلت على الدولارات العشرين، ولكنني نذرت ألا أراهن مرة أخرى مطلقاً إلا بعد معرفة كل شيء عن التحدي.

وقد حدث مؤخراً تطور مرتبط بخدمتي في الجيش خلال الحرب العالمية الثانية، وذلك في 17 أكتوبر 2007، فقد أقر مجلس النواب الأمريكي القرار رقم 753 لتكريم أولئك الذين خدموا في فورت هانت بفيرجينيا، في وحدة «صندوق البريد 1142» قبل أكثر من ستين عاماً! وكان القرار ينص على ما يأتي:

> تقرَّر، أن يكرم مجلس النواب، الجنود في صندوق البريد 1142، ويقدم خالص تقديره لهم على تضحيتهم لأجل أمتنا خلال زمن الحرب، وسعيهم للحصول على المعلومات الضرورية من خلال الوسائل الإنسانية، وخدمتهم التي ظلت زمناً طويلاً جداً من دون تقدير.

وقد قدرت من أعماقي هذا الاعتراف من بلادنا بعد الحرب العالمية الثانية بسنوات عديدة.

غادرت الجيش عام 1946، وعدت إلى هارفارد؛ من أجل فصل الخريف الدراسي. كانت قد اختفت القيود المالية التي كنت قد رزحت تحتها خلال السنتين الأوليين في

الكلية. فقانون .G.I لحقوق قدامى المحاربين، أصبح الآن يدفع رسومي الدراسية. وقد أصبح والداي أيضاً أكثر أمناً من الناحية المالية، بعد أن حصّل والدي وظيفة - بفضل صديقه ماكس واربورج - في أحد مصارف نيويورك. وظللت جدياً فيما يتعلق بدراستي، غير أنني قررت أن أستمتع بوقتي أيضاً. فقد كنت أحب البنات، والحفلات، وارتياد دور السينما. كنت أرى أن من حقي أن أمتع نفسي.

كان والدي يريد مني أن أتذكر الحضارة الألمانية؛ لذلك أخذت دورة مدتها فصل دراسي واحد حول كتاب **فاوست** لجوته. ولم أندم على ذلك قط. أليست الإغراءات التي وصفها جوته في **فاوست** هي نفسها التي نواجهها جميعاً في الحياة؟ أليس هناك شيء من جيكل وهايد في كل واحد منا؟ عندما يكتب جوته أن خلاص رجل ما يكمن في استخدامه قواه لتحقيق أهدافه، فلا يمكنني إلا أن أعترف بأن الأفكار نفسها، قد أصبحت مهيمنة على سلوكي في الحياة.

كان ثمة درس فكري كبير آخر تمثل في حضور دورة عن الدين والأخلاق في كلية اللاهوت كان يقوم بالتدريس فيها جورج لابيانا، سُمح لي بأخذها في عامي الأخير في جامعة هارفارد. وعندما عدت إلى جامعة هارفارد بعد الحرب، شعرت بالارتباك؛ فقد كنت في حاجة إلى نوع من التوجيه المعنوي والفكري.

وعندما ذهبت إلى أوروبا لإحضار أسرة هاينز شليك شعرت بالصدمة من الدمار الذي أحدثته الحرب. ففي كل مكان ذهبت إليه كانت هناك أحياء بكاملها مدمرة، بحيث يصعب التعرف إليها. وفي كثير من الأحيان كانت المباني قد تحولت إلى ركام، وكان الناس هائمين على وجوههم، تقرأ على وجوههم علامات الخوف والقلق. ومع اقتراب الحرب من نهايتها في أوروبا، أطلق الجانبان العنان للقوة المدمرة على المجمعات السكانية التي لا يقيم فيها إلا النساء والأطفال وكبار السن: أشخاص لم يكونوا يشكلون أي تهديد عسكري، وأناس عانوا بالفعل الحرب لفترة طويلة جداً.

رأيت أيضاً جنوداً يستفيدون من سلطتهم في المجمعات التي كانوا يحتلونها. فقد كان بعض الجنود الروس يغتصبون النساء الألمانيات إلى أن وصل ضباطهم إلى المكان ومنعوهم من ذلك. لم يكن أحد يخلو من العيوب. فقد كان الجنود الأمريكيون يستخدمون جوارب النايلون والقهوة للظفر بخدمات جنسية من النساء والفتيات الألمانيات الشابات. لم يكن ذلك من قبيل الاغتصاب، ولكنه كان استغلالاً لطرف من قبل الطرف الآخر. وأنا شأني شأن جميع الأمريكيين - وخاصة مثل كل ضحايا النظام النازي - كنت أريد هزيمة الألمان، ولكني في الوقت نفسه كنت أشعر أيضاً بالأسف للألمان العاديين.

زودتني دورة لابيانا تلك، بالتوجيه الذي كنت أحتاج إليه. كانت كل محاضرة مشحونة بالفائدة؛ فقدكان لابيانا مرجعاً في تاريخ الكنيسة وشخصية بارزة في المناقشات حول هل سيتم تحديث الكنيسة الرومانية الكاثوليكية؟ وكيف؟ ولد لابيانا في باليرمو بصقلية، وكان كاهناً معيناً يدرّس في جامعة هارفارد منذ عام 1916.

لم يكن لابيانا لامعاً فحسب، بل كان شجاعاً أيضاً. فقد كان يتحدث حتى عن القضايا السياسية المعاصرة. وانتقد الفاتيكان لاتفاقه مع دكتاتور إيطاليا، بينيتو موسوليني؛ ما أعطى الكنيسة السلطة على النظام التعليمي في إيطاليا. كما تناول قضايا الرقابة والحرية الأكاديمية، والإجهاض، والحد من الزيادة السكانية، وكذلك دور الكنيسة كمجموعة ضغط وتأثير في عصر الديمقراطية. وكان لابيانا منخرطاً في حياة الجامعة، ويشارك في المناقشات حول النظام التعليمي بجامعة هارفارد، ويأتي بمتحدثين ومناقشات حول القضايا المعاصرة إلى جامعة هارفارد. في تلك الأيام، لم يكن لدى الكليات ثروة من المتحدثين والمؤسسات كما هو متاح لها في وقتنا الحاضر. لقد لعب أشخاص مثل لابيانا دوراً مهماً في التعليم الديمقراطي للطلاب.

في يوم آخر محاضرة له قبل تقاعده عام 1947، تحدث لابيانا عن ألبيرتوس ماجنوس، وهو عالم لاهوتي من القرن الثالث عشر، وهو تلميذ القديس توما الإكويني.

كان ألبرت يـؤمن بـأن الطريقـة الوحيـدة لاكتشـاف الحقيقـة العلميـة، هـي مـن خـلال التجريب. كانت تلك فكرة راديكالية في ذلك الوقت، وعندما يفكـر المـرء في ذلـك، فقـد كانت من أكثر الأفكار إسهاماً في تغيير العالم عبر كل العصـور. وقـد جمـع مـاجنوس كـل حقائق البحث العلمي المعروفة في كتاب واحد، لكنه كان متواضعاً وبسـيطاً. وكـان لديـه شعور بمدى ما يجهله الإنسان، ولم يسهم تواضـعه في عـدم تنديـد المؤسسـة الكاثوليكيـة بعمله فحسب، بل أسهم أيضـاً في تعميـق إحساسـه بالخشـوع أمـام صـنع الله. وفي نهايـة المحاضـرة، أشار لابيانا إلى أن مهنته مدرساً على وشك الانتهاء، واختتم بفقرة من الكتاب الثاني من كورنثوس [باللاتينية]: *Dominus autem Spiritus est ubi autem Spiritus Domini ibi libertas*، وتعني: «وأمـا الـرب فهـو الـروح، وحيـث روح الـرب فهنـاك حرية». وعلى الرغم من أنني لسـت رجـل ديـن، فـإنني أفهـم حـدود الإدراك البشـري وعظمة القوى التي تحركنا، أكثر من أي وقت مضـى، مع تقدمي في العمر.

وصل يوم التخرج يوم 5 يونيـو 1947. وكـان المتحـدث في البدايـة وزيـر الخارجيـة جورج مارشـال؛ حيـث لخـص في خطابـه الـذي اسـتغرق اثنتـي عشـرة دقيقـة الفكـرة الراديكالية المتمثلة في استخدام القـوة الاقتصـادية الأمريكيـة؛ لإعـادة بنـاء الـدول التـي تعرضت للدمار في الحرب العالمية الثانية. وقد أعلن مارشال، في كلمته الرتيبة الفـاترة، أن الولايات المتحدة ستقدم مساعدات ضخمة لإعادة بناء اقتصادات أوروبا. وقال مارشـال إن التدمير الشامل للمصانع، والمناجم، والسكك الحديدية، والمدن، والبلدات، قـد كلـف أكثر مما يستطيع أي بلد أوروبي تحمـل قيمتـه مـن دون اللجـوء إلى القـروض الخطـيرة. لم يقتصـر الدمار في الحـرب عـلى الأصـول الماديـة، بـل عـاث خرابـاً في الأسـس القانونيـة والاجتماعية للاقتصاد. ولم يكن ممكناً إلا بجهد دولي كبير أن يعيـد الازدهـار إلى أوروبـا، ويسمح للمؤسسات الحرة بأن تزدهر. وقـال: «يكمـن العـلاج في كسـر الحلقـة المفرغـة واستعادة ثقة الشعب الأوروبي بالمستقبل الاقتصادي لبلـدانهم ولأوروبـا كلهـا». وحـذر مارشال من عودة ظهور استغلال البؤس في أوروبـا لتحقيـق أربـاح فاحشـة، قـائلاً: «إن الحكومات والأحزاب السياسية، أو الجماعات التي تسعى لإطالة أمد البؤس البشـري من

أجل جني الربح هناك سياسياً أو غير ذلك، ستواجه معارضة الولايات المتحدة الأمريكية».

وهكذا بدأت خطة مارشال التي أنفقت مليارات الدولارات على إعمار أوروبا، وبذلك تم ضخ ثقة متجددة بمستقبل تلك الدول الأوروبية التي اختارت أن تشارك في هذه المبادرة الأمريكية.

في ذلك الوقت، حظي خطاب مارشال بقليل من الاهتمام. قام الجمهورُ في جامعة هارفارد بتحية مارشال بحماسة قبل خطابه وبعده، ولكنهم لم يقاطعوه بالتصفيق. كانت الحماسة لمارشال الرجل. وبدا أن صحفاً قليلة استوعبت أهمية هذا الإعلان. وأكدت صحيفة **نيويورك تايمز** أهمية «الوحدة الأوروبية» في إعادة إعمار القارة بدلاً من توقع مبادرة أمريكية كبرى. وبدا أن صحيفتي **هيرالد تريبيون** في نيويورك و**جلوب** في بوسطن، قد أدركتا أن الخطاب بشر بمبادرة كبرى. وحتى جيمس ب. كونانت، رئيس جامعة هارفارد، اعترف بعد سنوات من الخطاب بأنه قد فاته فهم أهمية ذلك الخطاب. وما لبثت خطة مارشال أن قدمت لي مكاناً لبدء حياتي المهنية في الشؤون الخارجية.

بعد حصولي على درجة البكالوريوس من جامعة هارفارد، واصلت دراستي في معهد الدراسات الدولية العليا بجامعة باريس، ثم عدت إلى جامعة هارفارد بغية الحصول على درجة الماجستير في العلاقات الدولية.

كانت الدراسة في باريس نتيجة لعملية التفاف رتب لها والداي. فقد التقيت أنا وأفضل صديق لي، ماكس بيتشيك Max Petschek، اثنتين من النساء الجميلات، وقررنا أن نتزوج. أخبرت والديّ بخططي، ففعلا أمراً ذكياً جداً. فبدلاً من الاحتجاج ضد الزواج باعتبار أنني كنت صغيراً على ذلك؛ الأمر الذي من شأنه أن يزيد من عنادي وثقتي بنفسي، أعربا عن فرحتهما بالخبر. وقال والدي؛ مثل كولومبو في المسلسل التلفازي وهو يغادر مقابلة مع أحد المشتبه فيهم: «لماذا لا تجلب فتاتك لترانا في عطلة صيفية؟ ولماذا لا

تذهب إلى مدرسة في الخارج لمدة سنة وتمنح نفسك المزيد من الفرص لرعاية نفسك وزوجتك المستقبلية؟»، ووافقت.

في الرحلة على متن الباخرة عبر المحيط الأطلسي، بهرتُ بنساء جميلات أخريات كن على متنها أيضاً. وبعد خمسة أسابيع في باريس، كتبت إلى والدي: «كما تعلم، يا بابا، أعتقد أنني قد أكون صغيراً جداً على الزواج».

في باريس، درست القانون الدولي، وكتبت أطروحتي حول الاتحاد الجمركي النمساوي - الألماني عام 1931. وقد اخترت هذا الموضوع على الأغلب؛ لأنه كان موضع اهتمام لدى المشرف عليّ في هارفارد، هاينريخ برونينج. وقد تضمن الموضوع مسائل التعاون الدولي، التي كانت دائماً موضع اهتمام بالنسبة إلي، وكان يمثل بالنسبة إلي مشكلة معقدة في عالم الواقع لأقوم بتحليلها. وبما أنني كنت أعمل في إحدى الجامعات الفرنسية، فقد طبقت نهجاً أكثر صرامة حيال المشكلة مما كنت قد استخدمته من قبل. فقد كان الفرنسيون يفهمون أن منشأ جميع المشكلات من التناقضات المتأصلة في الترتيبات القائمة، والتي أنتجت توتراً كان بحاجة إلى حل من خلال الدمج والتكامل بين جوانب مختلفة من المشكلة. وكما هو الشأن مع الألمان العاملين بتقليد كانط، وهيجل، وماركس، فقد حل الفرنسيون المشكلة من خلال فهم كيف يتم التغلب على فرضية ونقيضها من خلال وضع صيغة توفيقية جديدة. هذه هي الكيفية التي بدأت أحلل المشكلات بها.

بعد حصولي على درجة الدكتوراه في باريس عام 1949، عدت إلى هارفارد لمزيد من الدراسات العليا، فحصلت على درجة الماجستير عام 1950. والتحقت ببرنامج الشؤون الدولية في كلية الدراسات العليا برئاسة الدكتور دان شيفر Dan Cheever. وقد بقي بعض زملائي الطلاب الذين التقيتهم، هناك أصدقاء مدى الحياة: جون براديماس John Brademas، الذي أصبح سوط الديمقراطية في مجلس النواب الأمريكي، وروبرت ميلر Robert Miller وتوماس شوسميث Thomas Shoesmith، اللذان أصبحا سفيرين للولايات المتحدة الأمريكية، وهربرت جودمان Herbert Goodman، الذي دخل القطاع

الخاص، وارتفع إلى المراتب العليا في مجال أعمال النفط. وقد شحذ البرنامج المواهب التي كنت قد حصلت عليها في الشؤون الخارجية، مع التركيز على الاقتصاد الدولي.

كنت على استعداد الآن لبدء حياتي في الدبلوماسية. كان الوقت قد حان لاتخاذ قرار التحدي المتمثل في بناء العالم الجديد الذي كان جورج مارشال قد لخصه في خطاب حفل تخرجي قبل ثلاث سنوات.

وفي عام 1951، اقترضت نقوداً من صديقي العزيز ماكس بيتشيك لأخذ والديّ في عطلة طويلة. أردت أن أبين لهما أنني أشق طريقي. سافرنا إلى جنوب فرنسا، ومكثنا في أفضل الفنادق، وأكلنا في أفضل المطاعم. قمنا بزيارة مونتي كارلو. وكان والدي يظن أنني قد صنعت النجاح، بينما لم أكن قد فعلت ذلك، ولكنني كنت في طريقي إلى ذلك. ومات بعد ثلاثة أسابيع رجلاً سعيداً.

الفصل الثالث

المنعطفات الاستعمارية

بدأ تعرفي إلى الشؤون العالمية مع خدمتي العسكرية في أثناء الحرب العالمية الثانية التي كانت من أعظم أحداث العصر الحديث وأكثرها مأساوية. بدأ تعرفي إلى عالم الدبلوماسية مع نهاية الاستعمار في الهند الصينية، بقرار الفرنسيين المغادرة والقرار الأمريكي الباهظ التكلفة لتسلمها من الفرنسيين. ولكن كان ثمة فرق بين السياستين خلف القرارين. كان الفرنسيون قد بدؤوا عملية إنهاء الاستعمار، بينما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تطبق سياستها في احتواء الشيوعية في جنوب شرقي آسيا، والحيلولة دون الانتهاكات الشيوعية في إفريقيا. وفي كلتا المنطقتين كان على الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تتعاملا مع الشعور القومي المتنامي.

وبعد الانتهاء من دراساتي العليا في جامعة هارفارد عام 1950، تلقيت عرضين للعمل: أحدهما للعمل في وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه)، والآخر للعمل في باريس مع المقر الأوروبي لإدارة التعاون الاقتصادي التي تم تأسيسها لتنفيذ خطة مارشال. كان أفيريل هاريمان Averell Harriman، من كبار الشخصيات في السياسة الخارجية الأمريكية، وهو بحاجة إلى شخص يذهب إلى باريس للعمل في مشروعات التطوير الاقتصادي بأوروبا.

أقنعني والدي بقبول العمل في باريس؛ حيث قال لي: «جون، كإنسان أنت تحتاج إلى ثناء، فلو عملت لدى "السي آي إيه" فلن تحظى بالثناء والتشجيع. إن كان شيء ما ناجحاً فلن يعترفوا به، وإن أخفق فقد يُلقى عليك باللائمة».

كانت نصيحة حكيمة. وعبر السنين عملت مع مئات العاملين في الاستخبارات، فلا يمكنهم المشاركة فيما يفعلونه حتى مع أقرب الناس في أسرهم، وليس لديهم سبيل إلى

معالجة إحباطاتهم بين يوم وآخر. لا شيء مطلقاً يتبدى بقيمته الظاهرية في عالم الاستخبارات. إن كنت لا تملك العقلية المناسبة لعيش حياة سرية فسوف تشعر بالاختناق وبعدم الظهور في بعض الأحيان.

ضم الفريق الذي ألّفه هاريمان في باريس بعض كبار الشخصيات في المجال الأكاديمي، وفي مجال الخدمة العامة في الجيل اللاحق. وكان هناك توماس شيلينج Thomas Schelling، العالم في السياسة الذي كان من شأن عمله في نظرية اللعبة أن يكون له نفوذ قوي في تنظير السياسات الخارجية. وفي عام 2005 حصل على جائزة نوبل في مجال الاقتصاد. وكان هناك أيضاً في الفريق هنري تاسكا Henry Tasca الذي شغل فيما بعد منصب مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوروبية ومنصب سفير لدى فرنسا والاتحاد السوفيتي، ولينكولن جوردون Lincoln Gordon الذي ترك جامعة هارفارد ليخدم في خطة مارشال، وأصبح فيما بعد مساعد الوزير لشؤون أمريكا اللاتينية.

تبلورت خطة مارشال في فترة مضطربة ومستقطبة من الحرب الباردة. في الأصل، عرضت الولايات المتحدة المساعدة على الاتحاد السوفيتي، وكذلك على الدول الأوروبية الأخرى التي دمرتها الحرب. ولكن السوفييت فضلوا الانسحاب، ورفضوا المقدِّمات الأولى للخطة؛ الأمر الذي بدا معقولاً بالنسبة إليهم. كان جورج مارشال دائماً يتحدث بصراحة بأن هدف المجهود هو إحياء اقتصادات السوق في المنطقة، وكان الاتحاد السوفيتي في خضم نهجه الجماعي تجاه تطوير صناعة ثقيلة وزراعة جماعية.

كان شبح الشيوعية السوفيتية في كل مكان، بما في ذلك فرنسا واليونان وإيطاليا وبلجيكا. وقد انجذب العديد من الأوروبيين – الذين هيمنت عليهم مهمة إعادة بناء اقتصاداتهم من نقطة الصفر – إلى التعبئة المركزية في النموذج السوفيتي. وكان بعضهم أيضاً يصدقون الخطاب السوفيتي حول ثورة البروليتاريا. كانت العمالة المنظمة قوية في أوروبا، وكان الخطاب الشيوعي حول التماسك الطبقي جذاباً لعمال المصانع في مانشستر ببريطانيا، وعمال أحواض السفن في مارسيليا بفرنسا، ومزارعي الهضاب في اليونان. وقد

تضمنت ائتلافات العديد من الحكومات الأوروبية أحزاباً شيوعية. كان التحدي أمام فريق خطة مارشال يتمثل في كيفية تقديم العون الذي يسهم في إنعاش الاقتصادات ونظام السوق.

وفي مقر خطة مارشال لأوروبا في باريس، عملت عن كثب مع موظفين من اليونان وتركيا في برامج التنمية. وقد مثّل هذان البلدان نافذة إعلامية على مشكلات أوروبا بعد الحرب. وقد دلت المساعدات لكلتا الدولتين على أهمية العلاقة بين الأمن العسكري والأمن الاقتصادي. كانت اليونان في غمار حرب أهلية، أما تركيا فكانت صديقة للنازيين في أثناء الحرب العالمية الثانية. وبالنظر إلى الوراء، كان كثير من الناس يظن أن تركيا واليونان كانتا هوامش في خطة مارشال، ولكنهما كانتا بين أوائل الدول التي تلقت مساعداتنا، وكانتا الأهم استراتيجياً من نواحٍ عديدة. فقد كانت كلتاهما "تتأرجح" سياسياً واقتصادياً في ذلك الوقت، وكانت مساعداتنا حاسمة في إبقائهما داخل المعسكر الغربي.

لم تعانِ تركيا الدمار المادي في أثناء الحرب، ولكن اقتصادها تعرض لضغوط خطيرة وأضعفته ميزانيتها الحربية. كان للدولة جيش قائم ضخم، أولاً لحماية نفسها ضد العدوان الخارجي، ولحماية نفسها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ضد السوفييت. كان نصف ميزانية الدولة تقريباً مخصصاً للمؤسسة العسكرية، وكان مليون رجل تقريباً يخدمون في القوات المسلحة في أثناء الحرب، و600,000 بعد انتهاء الحرب. وقد هدفت خطة مارشال، من خلال تقديم العون الاقتصادي، إلى توسيع الاقتصاد الكلي، بحيث تتمكن تركيا من تحمل نفقات جيشها والمعدات العسكرية الحديثة. وكان جانب كبير من المساعدات موجهاً للزراعة، غير أنه تم استخدام الأموال أيضاً لأجل تشييد الطرق والبنى التحتية الأخرى، ولتحديث الصناعة الثقيلة. وقد عملتُ في مصنع الحديد في زونجولداك، وهو ميناء للفحم على البحر الأسود؛ حيث ركزت على تحديث منشآت التحميل والشحن التي أسهمت بشكل واضح في زيادة القدرة الإنتاجية للمناجم القريبة.

كانت لدينا مهمة ضخمة لإدارة التعاون الاقتصادي في اليونان، للعون الاقتصادي والمساعدات العسكرية معاً؛ من أجل مساعدة الحكومة على وضع نهاية للتمرد. وقد سافرت مرتين إلى اليونان من باريس، وعملت مع سياسيَين أكبر سناً في البلاد، وهما جورج باباندريو George Papandreou وسوفوكليس فينيزيلوس Sophocles Venizelos، وكانا كلاهما حاضراً في المسرح السياسي منذ العشرينيات والثلاثينيات. لم يكن أي منهما يتكلم الإنجليزية، ولكنهما كانا يتحدثان الفرنسية والألمانية بطلاقة، وهو انعكاس لوضع السلطة في ذلك الجزء من العالم في تلك السنوات. وكان من السهل على التواصل معهما، أما اليوم، وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً، فإن غالبية اليونانيين تتحدث الإنجليزية. في تلك الأيام كانت السياحة الدولية ماتزال في مراحلها الأولية. وفي أوقات فراغي كنت أزور الأكروبوليس والآثار الإغريقية القديمة، وكنت أشاهد الشمس وهي تغرب في بحر إيجة من معبد سونيون المجيد، خلافاً لمئات السياح الذين كانوا يتجولون ويلتقطون الصور.

بعد العمل بمشروعات اليونان وتركيا، تم نقلي إلى بروكسل؛ حيث كان روبرت ميرفي Robert Murphy هو السفير الأمريكي هناك. كان معظم تركيزي في أثناء وجودي في بلجيكا على زواجي من مارتين دوفينيو Martine Duphenieux، وهي سيدة فرنسية. فقد طلبت إدارة التعاون الاقتصادي مني ومن مارتين أن نقوم بعمليات تفتيش أمنية عن الخلفيات وتواريخ الأشخاص. وكان من المفهوم أن الحكومتين الفرنسية والأمريكية كانتا ترغبان في التحقق منا. وفي منعطف مصيريّ واضح، لعبت أسرة زوجتي وبلجيكا دوراً في تعزيز التحالف الغربي. ففي عام 1965 طلب شارل ديجول من الناتو مغادرة باريس. وكانت أسرة زوجتي تملك قلعة قرب مونس في بلجيكا. وفي الحرب العالمية الثانية استولى عليها الألمان واستخدموها مقراً للقوات الجوية النازية، إلى أن قامت إنجلترا بقصف القلعة وتدميرها في يناير من عام 1945. ولأن ألمانيا كانت قد بنت مدرج طائرات جيداً هناك، فقد قدم البلجيكيون الموقع مقراً جديداً لحلف الناتو في أواخر ستينيات القرن العشرين.

في أثناء إرسالي في مهمة المساعدة الاقتصادية إلى بلجيكا، شهدت أول مرة في حياتي إغراءات الفساد. كانت إحدى مهمات شعبتي منح الشركات الأجنبية فرصة لكسب العملة الصعبة - الدولارات - بتصنيع الأشياء التي كان يحتاج إليها الجيش الأمريكي. وكان أحد الأشياء التي أعلنت الولايات المتحدة مناقصة لأجلها، شبكة أسلاك مضادة للغواصات؛ لكي يتم استخدامها في أحد موانئ المياه العميقة التابعة لبلجيكا. وقد فازت شركة في فلاندرز بالعقد البالغة قيمته ملايين عدة. وبعد بضعة أشهر جاء إلى مكتبي ضابط من الجيش الأمريكي ليحقق في العقد، ووجه أسئلة حول رئيسي. ومن دون علم مني كان الرجل قد أخذ رشوة ضخمة مقابل التوصية بترسية العقد على شركة فلمنكية لتنفيذ الشبكة المضادة للغواصات. ولم يخطر في بالي من سذاجتي أن أحداً سينخرط في تصرف مشين كهذا. استقال رئيسي، وتعلمت درساً حول التعاقدات الحكومية. ولاحظت أيضاً فرقاً بين موظف حكومي تحول إلى رجل أعمال يمضي سنتين في العمل لدى الحكومة، وموظف حكومي فرغ حياته المهنية كلها لخدمة الوطن. أليس الشرف أثمن من الكسب المادي السريع الذي يتم الحصول عليه على حساب التضحية بنزاهة المرء؟

بدءاً من عام 1953، أصبحت ملتصقاً بالجمال والمأساة في أشد الأماكن غرابة في العالم؛ وهو جنوب شرقي آسيا. وكما هو شأن أجزاء عديدة من الإمبراطوريات الأوروبية قبل الحرب، فقد مثلت فيتنام ولاوس وكمبوديا أحد أشد الاختبارات الجوهرية في العالم بعد الحرب العالمية الثانية: ما أفضل طريقة للتعامل مع المستعمرات المنتشرة عبر الكرة الأرضية؟هل يفترض بالقوى الاستعمارية أن تتمسك بممتلكاتها الواسعة، أم أن عليها أن تجد طريقة لتخفيف قبضتها وتهيئة انتقال سلس إلى الاستقلال؟

تطوعت للذهاب إلى الهند الصينية - الفرنسية من أجل خطة مارشال بعد وقت غير طويل من زواجي عام 1952. وقد ساعدتني طلاقتي باللغة الفرنسية على التعامل مع أهالي فيتنام ولاوس وكمبوديا؛ لأنهم كانوا تحت الهيمنة الفرنسية خلال الجزء الأكبر من

القرن العشرين. كانت زوجتي متحمسة لرؤية العالم خارج أوروبا. وبعد أن أخذنا مركزنا في سايجون - مع أنه تم اعتماد الدول الثلاث في الهند الصينية كمراكز لنا - أمضينا أوقاتاً كثيرة في الميدان، في زيارة مشروعات ممولة من الولايات المتحدة الأمريكية في سائر أنحاء المنطقة.

في ذلك الوقت كان للولايات المتحدة سفير واحد إلى الدول الثلاث جميعاً. وعلى الرغم من وجود اختلافات مهمة في الثقافة بين الدول الثلاث، فقد كانت تعد كتلة طبيعية تقريباً، أما كيف تختلف تلك الدول، وكيف أقحمت ديناميات‍ها السياسية في بعضها بعضاً، فقد أسهم ذلك في تشكيل المنطقة على مدى عقود.

بعد الحرب العالمية الثانية تم تنظيم الدول خارج العالم الصناعي في بؤر استعمارية لقوى أوروبا التقليدية: بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا وهولندا والبرتغال. وسواء عن طريق الاحتلال العسكري أو القوة الاقتصادية، حافظت الولايات المتحدة الأمريكية والقوى الأوروبية على السيطرة على عدد من الدول. ففي إفريقيا، سيطرت هذه القوى على مناطق تشكل الآن أربعاً وخمسين دولة مستقلة. وفي آسيا، سيطرت القوى الاستعمارية على 12 دولة، منها الهند وباكستان وماليزيا ولاوس وكمبوديا وفيتنام وإندونيسيا.

تعقدت الترتيبات الاستعمارية بعد الحرب بسبب بداية الحرب الباردة التي قسمت العالم إلى العالم الأول (الديمقراطيات الصناعية)، والعالم الثاني (الدول الشيوعية)، والعالم الثالث (الدول النامية). وقد تم تعريف القضايا بكل أنواعها - من حدود إقليمية، وتحالفات عسكرية، ومشروعات اقتصادية، وأنظمة تعليمية - بما لو كانت دولة أو إقليماً متحالفاً مع الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، أو مع الاتحاد السوفيتي والعالم الشيوعي. وحتى عندما لم يكن لأحد المجتمعات مصلحة حقيقية في التنافس الأمريكي - السوفيتي، فقد كان مضطراً إلى أن يختار الانحياز مع عواقب بعيدة المدى. وتمثل الهند الصينية الفرنسية حالة مثالية في هذا السياق.

منذ القرن الثامن عشر، حكمت فرنسا منطقة تعرف بالهند الصينية في جنوب شرقي آسيا، وبعد سقوط فرنسا أمام النازيين عام 1940، احتلت اليابان الهند الصينية عام 1941. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، قام رائد أمريكي يسمى بيتي Petty بالهبوط بالمظلة في فيتنام، وكان يعمل منسقاً مع هوشي منه. واستشرافاً لهزيمة اليابان، عرض الرئيس فرانكلن روزفلت - بشكل عَرَضي - السيطرة على المنطقة على شيانج كاي-شيك والصين، ولكن الزعيم الصيني رفض العرض، وأوضح لروزفلت أن تاريخ المنطقة يختلف كثيراً عن تاريخ الصين. وبعد الحرب استعاد الفرنسيون السيطرة، غير أن فرنسا بقيت منهكة اقتصادياً وعسكرياً بسبب سنوات الحرب والاحتلال. ونتيجة لعدم الاستقرار والانقسام السياسي، لم تكن القيادة الفرنسية قوية بدرجة كافية للقيام بالتنازلات الضرورية لهوشي منه عندما جاء إلى المفاوضات التي عقدت في قصر فونتينبلو بباريس عام 1947. كان يريد أن يبرم اتفاقاً تمنح فرنسا بموجبه الاستقلال لفيتنام ضمن «الاتحاد الفرنسي». لم يتم إبرام اتفاق، وبدلاً من ذلك، أعاد الفرنسيون رئيس الدولة باو داي Bao Dai، رئيس أنام Annam الوراثي السابق الذي كان يعيش في المنفى، ثم أعاد الفرنسيون إقامة ثلاث دول منفصلة: فيتنام، ولاوس، وكمبوديا. أجبرت فرنسا تايلند على أن تعيد إلى لاوس وكمبوديا الأراضي الواقعة غرب نهر ميكونج التي ضمتها تايلند في أثناء الاحتلال الياباني للهند الصينية - الفرنسية، ولعل ذلك كان «هدية ميلاد». وقد أنجزت فرنسا عملية الاسترداد هذه من خلال معارضتها انضمام تايلند إلى الأمم المتحدة إلى أن تتم إعادة الأرض.

سببت عودة فرنسا إلى الهند الصينية ثورة قومية في فيتنام. وكما فعل ماو تسي تونج قبله وفيديل كاسترو وتشي جيفارا بعده، استخدم هوشي منّه كاريزما شخصيته ووضعه الخارجي لحشد الشعب مع قضيته. إن منطق الحرب الثورية - التي تطورت في أثناء الثورة الأمريكية، عندما كانت القوة العسكرية للبريطانيين متفوقة كثيراً على قوة الأمريكيين - يكمن في التكاليف التفاضلية للحرب. فالثوار مستعدون لدفع ثمن أعلى للنصر؛ لأن لديهم سنداً عاطفياً وأيديولوجياً أعلى في النصر. فالمحتلون وقوى الوضع

الراهن – وهم المعتادون على أسباب الراحة التي تنطوي عليها الهيمنة – يشعرون بوخزة الخسائر المالية والبشرية بحدة أكبر، ونتيجة لذلك يرغب الثوار والمتمردون غالباً في الثبات في القتال فترة طويلة جداً، وبذلك يفوزون في حرب الاستنزاف.

التقيت الأمير نوردوم سيهانوك Prince Norodom Sihanouk من كمبوديا عام 1953، وغدونا أصدقاء في نهاية المطاف؛ حيث كنا نجتمع في قصره ونسافر معاً في أنحاء كمبوديا. ومنذ أوائل أربعينيات القرن الماضي حتى بداية القرن الحادي والعشرين، كان لسيهانوك دور رئيسي في سياسة كمبوديا.

أصبح سيهانوك – بالنظر إلى شخصيته اللامعة – التجسيد الحقيقي للشعب الكمبودي. كان شخصية محبوبة تتمتع بنوع فريد من الكاريزما: فتى لعوب كان يتميز بالجوهر الهادئ لشخص بوذي، وقوميٌّ متفانٍ مارس أيضاً السياسة العملية في كل مستوياتها. كان وفياً للفقراء البسطاء في بلده، ولكنه حفر انطباعاً على المسرحين الوطني والدولي؛ حيث أمضى سنوات في فرنسا.

كان سيهانوك رجلاً وسيماً، ذا وجه مستدير وشعر أسود فاحم. وكان لطيف المعشر، وكان يخرج ليلتقي الكمبوديين العاديين، ويزور المجتمعات الريفية الصغيرة دونما سابق إنذار، ويتحدث بانتظام عبر المذياع. ومنذ أيامه الأولى في الحياة العامة، كان سيهانوك يتردد بين شخصياته المختلفة: فرنسي الهوى، وفتى لعوب، وعازف لموسيقا الجاز، ومنتج أفلام وممثل، وصديق لأمريكا وصديق للصين، وحيادي صامد، وصديق وعدو لتمرد الخمير الحمر الشيوعيين. كان بإمكانه أن يكون متساهلاً ولطيفاً، ومتأنقاً وغاضباً، ولعوباً ومبدعاً، وساخطاً وعنيداً، وعادياً وإنسانياً، ومتعالياً ومتحفظاً.

ومهما كان غموض سيهانوك، فقد كنت دوماً أعده أعظم أمل لكمبوديا لإيجاد السلام والأمن خلال حياتنا. وفوق كل شيء آخر، فقد كان يملك الشجاعة. كان يعلم أن التاريخ عملية طويلة، وأن حظوظه ستتعرض لحالات لا تحصى من المد والجزر. كان

البوذيون يتمتعون بحس الأزلية، وهو فهم أن أحداث التاريخ لها قوتها الخاصة، وأن أفضل شيء يستطيع الناس فعله هو الاستعداد للعمل عندما تتوافر الفرص. كان سيهانوك يعرف أنه كان ممثلاً صغيراً، وأن كمبوديا كانت لاعباً صغيراً في الشؤون العالمية. ولكنه كان يعرف أيضاً أنه إن أثبت وجوده بالأسلوب الصحيح فقد يحوّل التاريخ لمصلحة أمته، وإن كانت الدول الكبرى ستحول كمبوديا إلى مسرح لتنافسها العالمي فإن ذلك يمكن أن يؤدي إلى دمارها، أما إن استطاع توجيه مسار حيادي فمن الممكن أن تزدهر هذه الدولة الزراعية البسيطة.

في عام 1954، ذهب سيهانوك إلى بانكوك، وأخبر الفرنسيين أنه لن يعود إلى وطنه ما لم تعلن أن كمبوديا دولة مستقلة. وأذعن الفرنسيون. وفي مؤتمر جنيف عام 1954، رفض سيهانوك الاعتراف بوجود الخمير الحمر، وهي حركة المقاومة الشيوعية التي اتخذت من الريف الكمبودي مقراً لها. وفي المؤتمر نفسه اعترفت فيتنام بوجود حركة فيت منّه Viet Minh، واعترفت لاوس بحركة باثيت لاو Pathet Lao. وكان سيهانوك يملك الجرأة للوقوف دفاعاً عن بلده، في الوقت الذي كان فيه آخرون يعاملون المستعمرات القديمة مثل بيادق صغيرة على رقعة شطرنج. كانت كمبوديا بلداً خاملاً وبطيء النمو؛ حيث كان الناس يعيشون فيه حياة بسيطة ولكنها سلمية وهادئة. وإن حدث أن شاهدت الفيلم الكلاسيكي **الأفق الضائع** *Lost Horizon* فإنك ستحصل على فكرة جيدة عن سلمية الأمة وجاذبيتها.* كانت كمبوديا بلد الابتسامات، وفيها طبقة صغيرة من الناس الأغنياء والمتعلمين، وجماعة كبيرة من الفلاحين الذين يحصلون على ما يكفيهم للأكل، ومن دون مشكلات ملحة. لم يكن هناك تمرد عسكري في تلك الأيام. فقد كان الكمبوديون شعباً سعيداً، يحميهم الفرنسيون من تايلند في الغرب ومن فيتنام في الشرق. وكان التحدي أمام كمبوديا أن تجد طريقاً ما للتحديث من دون تدمير قرون من التقاليد.

* هذا الفيلم، المستمد من رواية خيالية بالاسم نفسه للكاتب البريطاني جيمس هيلتون، تدور أحداثه في مكان خيالي منعزل عن العالم الخارجي ويعيش سكانه في تناغم مع الطبيعة من حولهم، اسمه شانجريلا، ومؤلف هذا الكتاب يشبّه كمبوديا قبل سقوطها بيد الخمير الحمر بشانجريلا، كما في الفصل السادس. (المحرر)

عندما تحدثنا عن موضوعات غير السينما والموسيقا، نال سيهانوك إعجابي بأفكاره حول الحياد. كانت الحرب الباردة واقعاً مراً حول العالم، غير أن سيهانوك أصر على أن دولاً مثل كمبوديا، لم تكن بحاجة إلى أن تقبل مقولة جون فوستر دالاس [وزير الخارجية في عهد الرئيس دوايت آيزنهاور]، إما أن تكون مع الأمريكيين أو مع السوفييت. وفي غضون عقد من الزمان أصبحت كمبوديا «عرْضاً جانبياً» للصراع المركزي في فيتنام. لقد تحولت أمة البسمات إلى أمة حرب ورعب وقتال. ولكن في الوقت الراهن كانت الحياة في هذه الحضارة القديمة وديعة وطيبة.

كانت فيتنام مسألة أخرى، فالناس ينسون أحياناً أصول التورط الأمريكي في فيتنام. ومن خلال فهمنا كيف وصلنا إلى هناك - منطق انخراطنا، والقرارات التي تمت أو لم تتم، والخيارات الاستراتيجية التي واجهتنا - يمكننا تكوين فهم أفضل للخيارات التي تواجه صناع السياسات الخارجية الأمريكية في مناطق ساخنة أخرى حول البسيطة.

في الواقع ليس وصف فيتنام ببقعة ساخنة دقيقاً. كانت ساخنة كما جعلناها نحن وبقية القوى الدولية، كالاتحاد السوفيتي والصين. لقد صرح قادة مختلفون - مثل فرانكلين روزفلت وهاري ترومان ودوايت آيزنهاور وجون كينيدي ووينستون تشرشل وشارل ديجول - أن فيتنام هي مكان كان بإمكان العالم تجنب الصراع فيه وتوفير الوقت بسهولة لتعالج مشكلات حقيقية، ولكن لأسباب مختلفة اخترنا أن نصنع صفقة ضخمة من فيتنام.

يمكن العثور على جذور مأساة فيتنام الحديثة في إذلال فرنسا في أثناء الحرب العالمية الثانية، فبعد تحرير فرنسا من النازية بحث القادة الغربيون عن طريقة لكي تستعيد فرنسا القوة الكاملة كقوة سياسية واقتصادية. كانت ثمة طريقة رمزية لرفع مكانة فرنسا وهي ترك فرنسا تكوّن علاقاتها المستقبلية مع إمبراطوريتها الواسعة. لكن الحكومات الفرنسية في الجمهورية الرابعة بعد الحرب، كانت أضعف من أن تهب استقلالاً ذا معنى لممتلكاتها في الهند الصينية. لم يحصل أي زعيم فرنسي لأي حزب سياسي على دعم الجمعية

الوطنية الفرنسية لتقديم ذلك النوع من العرض على الفيتناميين، الذي يمكن أن يقبله هوشي منّه. وعندما عاد هوشي منه إلى الأدغال، وأعاد الفرنسيون الإمبراطور باو داي، بدأ السوفييت والصينيون تسليح حركة هوشي منّه. وفي عام 1950، اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية ودول أخرى بفيتنام ولاوس وكمبوديا؛ بوصفها دولاً ثلاثاً تحت حماية الاتحاد الفرنسي. وما لبثت الولايات المتحدة - حتى حينما كانت فرنسا تتصرف بوصفها القوة الرئيسية في المنطقة - تزودها بمئات ملايين الدولارات في هيئة دعم عسكري واقتصادي. وبحلول عام 1954 كانت الولايات المتحدة تدفع 80٪ من فاتورة فرنسا للمحافظة على حكمها في فيتنام.

لكن ذلك انتهى على أي حال. ففي السابع من مايو عام 1954، أصيب الفرنسيون بهزيمة كارثية في معركة ديان بيان فو، وما لبثوا بعد ذلك أن غادروا المنطقة.

كانت ديان بيان فو قرية في الشمال الغربي من المرتفعات الفيتنامية، قرب الحدود مع الصين ولاوس. وكان الفرنسيون قد حشدوا قوتهم العسكرية في حوض طوله عشرة أميال، وكان الهدف من ذلك استدراج قوات حرب العصابات الفيت منّه والقوات النظامية إلى الجيب؛ ومن ثم تحقيق نصر حاسم بقطعهم عن طرق إمدادهم. وقد ظن الفرنسيون أنهم بتمركز قواتهم على طول حافة الحوض سيتمكنون من مهاجمة أي عدو مهاجم. ولكن الموقع المركزي للجيش الفرنسي كان في أسفل الحوض؛ الأمر الذي كان معناه أن يتعرضوا للنيران وللاحتباس هناك إن سيطر العدو على الأراضي المرتفعة، وهو ما حصل. وعندما استسلمت القوات الفرنسية في السابع من مايو 1954، كان الفرنسيون قد فقدوا 2200 رجل، والثوار 8000، ولكنها كانت نهاية الحرب، وبعد الهزيمة بقليل أعلن الفرنسيون أنهم سيغادرون جنوب شرقي آسيا.

وفي مؤتمر جنيف عام 1954، وافقت فرنسا على الانسحاب من مستعمراتها في جنوب شرقي آسيا. وقد قسم اتفاق جنيف فيتنام إلى فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية، مع التعهد بتوحيد المنطقتين في دولة واحدة، وإجراء انتخابات لاختيار حكومة، كما نص

الاتفاق على مدة محددة للانتقال الحر للناس بين النظامين. وقد استغل المجتمع الكاثوليكي الضخم في فيتنام الفرصة القصيرة لمغادرة فيتنام الشمالية والمجيء إلى فيتنام الجنوبية حيث تسود الحرية الدينية. وقد رفضت الولايات المتحدة توقيع اتفاق جنيف، وبدلاً من ذلك اعتمدت فيتنام الجنوبية؛ بوصفها أفضل أمل لترويج الديمقراطية ومنع استيلاء الشيوعيين على جنوب شرقي آسيا.

يدل ما يسمى «نظرية الدومينو»، على أنه إن سقطت دولة تحت سيطرة الشيوعية فإن الدول المجاورة ستتساقط بسرعة، وعلى التوالي؛ وللحيلولة دون استيلاء واسع النطاق للشيوعيين، كان على الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها أن يمنعوا أي دولة من أن تصبح شيوعية؛ أما فرنسا فقد قررت أن التمسك بالبؤر الاستعمارية في آسيا لم يعد مجدياً. وأدركت بخسارتها ديان بيان فو أن عناد القوميين الفيتناميين لم يعد ليسمح باستمرار الوجود الاستعماري.

مع مرور السنين أدركتُ أن الطريقة التي تترك بها قوة استعمارية بؤرها الاستعمارية، والطريقة التي تعمل بها مع قوى الاستقلال والقومية، تسهمان كثيراً في تحديد نجاح الدولة الجديدة. وبمجرد أن تقبّل الفرنسيون أن قدرهم لم يعد في فيتنام، قاموا بوضع نهج بنّاء للخروج، وقد عملوا مع الفيتناميين للتأكد من أن جميع أصدقائهم الفيتناميين قد خرجوا بسلام من الشمال، إن أمكن، من دون أن تمس ممتلكاتهم وكرامتهم. وعرضوا المساعدة على القادة الجدد في الجنوب، مع عرض فرصة كونهم حلفاء في المستقبل. ولم يغادروا كقوة منهزمة، بل كقوة حكيمة بدرجة تكفي لإدراك الحقائق الجديدة في السياسة العالمية.

التزاماً من الولايات المتحدة الأمريكية برؤية الحرب الباردة في ميزان القوة السياسي عبر العالم، لم تقبل ترك الهند الصينية وحدها لتقع احتمالاً في قبضة الشيوعيين.

غادرتُ سايجون عام 1956، وبعد إجازة في الوطن، تم تعييني ضابطاً سياسياً في فينتيان عاصمة لاوس؛ حيث خدمت مدة عامين (1956–1958). وقد جمعت مغامراتي

هناك في تلك الفترة من حياتي المهنية مع جولتي الثانية في لاوس، في بداية سبعينيات القرن الماضي، في فصل منفصل.

في مارس 1959 كنت ضمن أول مجموعة من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين فتحوا مراكز في إفريقيا. وكان هدف وزارة الخارجية من إرسالنا إلى إفريقيا أن يكون هناك وجود دبلوماسي أمريكي، بعد أن استقلّت مختلف المناطق والمستعمرات. وكانت مهمتي أن أساعد على إدارة الانتقال إلى استقلال الإقليمين اللذين كانا تحت السيطرة الفرنسية: توجو ومالي. فقد كانت هاتان الدولتان غرب-إفريقيتين، وإن كانت لهما ثقافتان وتاريخان مختلفان، في مرحلة الاستقلال عن سادتهما الفرنسيين، وبناء مصائرهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

بعد أن سافرت إلى توجو، مررت من خلال السنغال وليبيريا وساحل العاج وغانا. وكان القصد من محطات التوقف هذه أن أتمكن من فهم المنطقة بصورة أفضل، ومعرفة ما يمكنني فعله في توجو لتفادي الأخطاء التي حدثت في أماكن أخرى، أو تقليد النجاح في أجزاء أخرى من غرب إفريقيا. في ليبيريا دهشت لرؤية طريق واحدة معبدة فقط من العاصمة، مونروفيا، تصل إلى أعالي البلاد. وكانت تلك الطريق ذاتها توصل إلى مزرعة فايرستون، ولعل تمويلها كان يتم من قبل أصحاب المزرعة.

كان معظمنا ممن اختيروا لهذه المهمة إما عزاباً وإما تركوا زوجاتهم وأطفالهم في الوطن إلى أن تسمح ظروف المعيشة للأسر بالالتحاق بنا. وقد جاءت زوجتي وأولادي إلى توجو بعد وصولي بستة أشهر.

كان جميع «الرواد» من الدبلوماسيين في إفريقيا يتمتعون بكثير من الوقت لكي نتصرف بأنفسنا؛ فقد كان رؤساؤنا عادة بعيدين عنا في دول مختلفة أو حتى في قارات مختلفة. وكان علينا أن نستخدم الذوق السليم وحسن التمييز في شراء المباني أو تأجيرها

لاستخدامها مكاتب أو سكناً للموظفين الأمريكيين الذين سيصلون مع مرور الوقت. وكان ثمة واجب آخر ملحّ هو تعيين موظفين محليين لشغل الأقسام المختلفة في المركز. ومن الأمور المهمة أيضاً إقامة علاقة مباشرة مع الزعماء الأفارقة الذين ترأسوا الدول الجديدة، أو مع شخصيات كانت في المعارضة لأول رؤساء أفارقة بعد إعلان الاستقلال. وكان لا بد من تعهد هذه الاتصالات في الوقت الذي يتم فيه إقامة علاقات جيدة مع السادة الاستعماريين الذين كانوا مايزالون يمسكون بزمام الأمور.

وفيما يتعلق بالمراكز الإفريقية التي طلب إلي افتتاحها، كانت المؤهلات الأساسية تتلخص في القدرة على التحدث والكتابة باللغة الفرنسية بطلاقة، وتعدد المهارات بدرجة كافية للعمل في بلد لا يوجد فيه أمريكيون يقدمون النصح أو الإرشاد حول كيفية القيام بتنفيذ الأمور. وكان الأمريكيون وحدهم في توجو، هم بعض المبشرين المسيحيين داخل البلاد، كما لم يكن هناك رجال أعمال أمريكيون، ولا مصارف، ولا منقبون عن النفط أو التعدين، ولا مدرسون، ولا ممثلون عن المنظمات غير الحكومية؛ مثل مؤسسة "كير" CARE أو مؤسسة الرؤية العالمية World Vision. كان افتتاح مراكز في إفريقيا بالنسبة إلينا، كوننا موظفي سلك دبلوماسي أجانب شباناً نوعاً ما، بمنزلة تجربة مثيرة؛ فقد كنا متشوقين للتعرف إلى إفريقيا وثقافتها وأعراقها وتقاليدها المختلفة، وقبل ذلك كله احتياجاتها. وأدركنا أيضاً أننا كنا طلائع جيل جديد من الدبلوماسيين الأمريكيين العاملين في قارة لم تكن تشارك في الشؤون الخارجية طوال مائتي عام.

كان التقسيم الاستعماري لإفريقيا إلى ممتلكات منفصلة بصورة أساسية نتيجة لمؤتمر برلين في الفترة 1884-1885، عندما اجتمعت أربع عشرة دولة أوروبية بدعوة من المستشار الألماني أوتو فون بسمارك. في ذلك الوقت كانت سيطرة أوروبا على القارة محصورة غالباً في المناطق الساحلية. وعندما بدأ المؤتمر في شهر نوفمبر، كان مايزال نحو 80٪ من إفريقيا تحت سيطرة الشعوب المحلية. كان أكثر من 1000 قبيلة تحكم القارة وفقاً للتقاليد والأنظمة المحلية في القارة. وكانت تشن الحروب وتصنع السلام، وعلى الرغم من

أنها لم تكن مزدهرة بالمقاييس الغربية، فقد كانت تطعم شعوبها وتحافظ على بعض الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي.

ونتيجة لمؤتمر برلين، وعقدين آخرين من المفاوضات بين المشاركين في المؤتمر، تم بحلول عام 1914 تقسيم إفريقيا إلى خمسين إقليماً ومستعمرة وأمة. فقد هيمنت إنجلترا وفرنسا على القارة؛ إذ سيطرت بريطانيا على أراضٍ تمتد من مصر في الشمال الشرقي من القارة حتى جنوب إفريقيا، بينما سيطرت فرنسا على غرب إفريقيا. واستولت بلجيكا على الكونجو في وسط إفريقيا، أما البرتغال فاستولت على موزمبيق في الشرق وأنجولا في الغرب، وأخذت إيطاليا فيما بعد الصومال وإثيوبيا. لكن المشكلات كانت كثيرة، وخصوصاً أن الدول الجديدة لم تكن متوافقة مع الحدود والوقائع القبلية. وقد تم تقسيم القبائل غالباً بين دول مختلفة، ووضعت القبائل غير المتوافقة تحت سيطرة دولة واحدة. وفي أغلب الأحيان كانت القوى الاستعمارية تستغل المستعمرات لأجل مواردها المادية، مع إهمال تعليم أفراد الشعب أو السماح لهم بالمشاركة في حكم أنفسهم.

تنوع الإرث الاستعماري في إفريقيا، فقد بنى الفرنسيون الجامعات ودربوا الضباط العسكريين، بينما قام البريطانيون بعمل جيد إذ قاموا باستحداث خدمة مدنية ونظام قضائي، أما البلجيكيون فلم يفعلوا شيئاً، بل ركزوا فقط على استغلال بلد واسع يتمتع بثروات طبيعية، أما البرتغاليون فتزاوجوا وكانت ثمة نتيجة واحدة تمثلت في غياب التحاملات العرقية بصورة عامة. وقامت بعض القوى الاستعمارية بإنشاء البنية التحتية من طرق ومنشآت صحية ومدارس وغيرها.

ولكن في نهاية الحرب العالمية الثانية انتشرت حركات قوية من أجل الاستقلال عبر أنحاء القارة. ففي عام 1958 عرض شارل ديجول صفقة على مستعمرات فرنسا: اختيار إما الاستقلال من دون مساعدات وإما أن تصبح جزءاً من «المجتمع الفرنسي» وتحصل على العون الاقتصادي والعسكري. فاختارت غينيا وحدها الاستقلال، وانسحب

الفرنسيون، وأخذوا معهم جميع الأصول التي استطاعوا أخذها، وتركوا الأمة لتدافع عن نفسها.

كان لحركات الاستقلال في إفريقيا نصيبها من التحاملات والأوهام، ولكن الشعوب في هذه البلاد كانت على الأغلب تريد ببساطة السيطرة على حكوماتها ومدارسها ومؤسسات أعمالها وأديانها وحياتها الثقافية، وحتى إن لم يعش الأفارقة حياة جيدة مادياً فإنهم كانوا يريدون أن يتحكموا في مصائرهم. فقد قال أحمد سيكوتوري [رئيس غينيا] لديجول: «نفضل أن نكون فقراء في الحرية على أن نكون أغنياء في العبودية». وبالنسبة إلى الخوف من الإمبراطورية السوفيتية، فقد وجد كثير من الأفارقة الفكرة مربكة بعد سنوات من هيمنة القوى الغربية. قال أحد الزعماء الغينيين: «لماذا أخشى ما تسمونه الإمبريالية الروسية؟ لقد جربنا نحن في إفريقيا الاستعمار الفرنسي، والاستعمار البريطاني، والاستعمارين البلجيكي والبرتغالي، لكننا لم نجرب الاستعمار الروسي، وما رأينا دليلاً على الإمبريالية الروسية. يمكننا القلق بشأن روسيا فيما بعد».

التفتت غينيا إلى السوفييت طلباً للمساعدة واتخذتهم نموذجاً للتنمية. أسهمت التجربة الغينية في إدخال الحرب الباردة إلى إفريقيا. وبدلاً من التركيز حصرياً على كيفية تزويد الدول الناشئة بالبنية الأساسية السياسية والاقتصادية التي كانت تحتاج إليها للانضمام إلى مجتمع الدول، انشغلت الولايات المتحدة الأمريكية بالتنافس بين القوى العظمى.

كنتُ دائماً أفكر في أن خير طريقة للتعامل مع القوى الاستعمارية السابقة، هي العمل مع الدول التي لها مصلحة في المستعمرات القديمة لإيجاد مبادرات تنمية مشتركة، وإذا كان الفرنسيون قد لعبوا دوراً بارزاً في المستعمرة، فلم لا نرى ما كان الفرنسيون على استعداد للإسهام به نحو الدولة الجديدة؟ لم يكن على الولايات المتحدة أن تفعل كل شيء بنفسها. وليس من المهم كثيراً مَن الذي يحظى بالفضل. فلو أن كل طرف أسهم في حل لكانت هناك فوائد كافية لجميع الأطراف. وينبغي أن يكون الأمر الرئيسي مساعدة

هذه الدول الجديدة على التنمية اقتصادياً واجتماعياً؛ مادامت تريد أيضاً إرساء قيمنا في الديمقراطية والمشروعات الحرة والتنوع الثقافي وحقوق الملكية وحقوق الإنسان. لقد أردنا دولاً تستمر في التطلع نحو الغرب، سواء كنا بريطانيين أو فرنسيين أو أمريكيين.

عندما تسلمت المهمة لإقامة قنصلية أمريكية في توجو أخبرت أمي أنني ذاهب إلى لومي، فقالت: «رائع! لقد أحببت روما دائماً!»

قلت: «لا، مُتي، لومي!»

«أين لومي؟»

«قرب فولتا العليا»

فقالت: «همم... أين فولتا العليا؟»

عندما ذهبت إلى توجو في مارس 1959 لإقامة قنصلية أمريكية، كانت المنطقة ماتزال تحت وصاية الأمم المتحدة بإدارة فرنسية. وكان موظفون فرنسيون مع ممثلين بدلاء من توجو قد شغلوا معظم المناصب. كانت أول زيارة لي للحاكم الفرنسي الذي بدا مكتبه مثل قلعة على نهر الراين في ألمانيا، وكان المبنى قد بني في الحقيقة على يد الإدارة الاستعمارية الألمانية قبل عام 1914، عندما كانت توجو مستعمرة ألمانية. كنت أشغل منصب القنصل، وكانت القنصلية الأمريكية في توجو ضمن دائرة الاختصاص المباشر للسفارة الأمريكية في باريس.

كان رئيسي السفير الأمريكي لدى فرنسا، أموري هيوتون Amory Houghton، الذي قابلته في باريس. وقد أعطاني كتاب شيفرة، و5000 دولار، وعلَماً بحجم مناسب لوضعه على السيارة، على أن أستخدم كتاب الشيفرة إن رأيت أنني بحاجة إلى إرسال رسالة سرية عاجلة إلى باريس أو واشنطن أو أكرا عاصمة غانا، ولكن ذلك كان أمراً غير محتمل، فقد كان شبيهاً بالرصاصة التي احتفظ بها نائب عمدة مايبيري بارني فايف في جيبه

الأمامي [في المسلسل التلفزيوني «آند جريفيث شو» عام 1971]. وكان من دواعي بهجتي أن أعمل وحدي، على بعد آلاف الأميال عن رئيسي، لكن هذا استمر بضعة أشهر فقط، إلى أن وصل زميل أرفع مرتبة كرئيس مقيم لي.

كانت لومي بلدة صغيرة. وبينما كنت ما أزال أبحث عن البلدة، سألت عن الاتجاهات من السيارة، وقيل لي إنني كنت هناك. وفي 22 مارس ذهبت إلى مكتب البريد وسجلت العنوان التلغرافي للبرقيات العامة للقنصلية. وعندما وصلت إلى الفندق في لومي وسألت كيف أدخل المدينة أجاب الحارس: «أوه، ولكن مسيو، نحن في البلدة الآن!» كان الفندق يشبه موتيلاً فخماً قديم الطراز لم يحظَ بصيانة طوال سنوات عديدة. كان البعوض في كل مكان، ولم تسعفني الناموسية في غرفتي كثيراً، ولم يكن ثمة تكييف هواء، ولا دورة مياه خاصة. شكوت إلى الإدارة، ولكن لم يكن ثمة بديل. وبعد عام تم بناء فندق حديث لإيواء الضيوف لأجل احتفالات الاستقلال.

تم الترتيب لتنصيب سيلفانوس أوليمبيو رئيساً بعد الاستقلال. وفي تلك الأثناء كان يقوم بدور رئيس الوزراء بالنيابة تحت الحكم الفرنسي. كان أول أمر من أوامر العمل لي القيام بشراء مبنى يمكن أن يصلح ليكون قنصلية وسكناً لي؛ ومن ثم أبحث عن مبانٍ أخرى للموظفين الإضافيين الذين سيشكلون فريق العاملين في القنصلية الأمريكية. وقد ساعدني أخو أوليمبيو، وهو مقاول؛ حيث عثر على منزل مطل على المحيط للإيجار، مع خيار للشراء، وإصلاحه ليكون سكناً في غضون بضعة أشهر، ثم مضينا للبحث عن مبنى يصلح لأن يكون قنصلية بجوار مسكن سيلفانوس أوليمبيو. كان بسيطاً، ويشبه أحد المنازل في الحي الذي أقطنه في مدينة كانساس. كان البيت مبنياً من الحجارة والقرميد، ويتألف إجمالاً من أربع غرف. وكان ذلك مناسباً لي للعودة إلى العمل.

وعلى الرغم من بقاء توجو تحت وصاية الأمم المتحدة، فقد عمل رئيس الوزراء أوليمبيو تحت قيادة حاكم فرنسي. كان أوليمبيو رجلاً ذكياً، درس في الجامعات الغربية، وتمرس في عالم الأعمال. وقد تلقى تعليمه في مدرسة ألمانية في توجو، ثم في كلية لندن

للاقتصاد، وبعد ذلك في جامعة السوربون بباريس. وكان عضواً في مجلس إدارة شركة إفريقيا المتحدة، وهي شركة بريطانية. كانت أسرة أوليمبيو منفتحة ووطنية ومتعلمة. وكان أوليمبيو نفسه يتمتع بحضور قوي؛ فقد كان رجلاً متميز المظهر في الخمسينيات من عمره، أشيب، وحذراً إلى حد ما، وحسن الهندام بشكل دائم، ويتقن بسهولة ثلاث لغات أوروبية رئيسية، هي: الإنجليزية والفرنسية والألمانية. وكان ينتمي إلى قبيلة «يو»، وهي القبيلة الإفريقية الرئيسية في المنطقة الساحلية بتوجو وشرق غانا. كان أوليمبيو معروفاً في الأمم المتحدة؛ حيث كان يحظى بدعم قوي ليقود توجو بعد انتهاء وصاية الأمم المتحدة.

بحثت أنا وأوليمبيو ما يمكن أن تفعله الولايات المتحدة الأمريكية للمساعدة على تنمية البلد، واتفقنا على أن نعمل بشكل وثيق مع المسؤولين الفرنسيين المتمركزين في الدولة. وكان هدفنا ألا نتظاهر بأن الحقبة الاستعمارية لم تكن موجودة، بل أن نعمل مع أي جهة يمكنها المساعدة على بناء دولة جديدة. كانت توجو بحاجة إلى ما استطاعت تأمينه من تعاون، وبعد الاستقلال أدى استثمار أمريكي كبير من قبل شركة و. ر. جريس وشركاه في البوتاس والبوتاسيوم إلى إيجاد سلعة رئيسية للتصدير. قام الألمان بتحديث ميناء لومي، غير أن الفرنسيين ظلوا أكبر مزود للمساعدات للقطاع العام والاستثمارات الخاصة.

كان جانب كبير من السياسة الخارجية يرتكز على النهج التخريبي لسياسة فرّق تسد. لم أرَ قط أي مسوغ لإقصاء أي شخص آخر من الصورة، إن كان لم يسبب ضرراً للمصالح الأمريكية، ولاسيما إن استطعنا أن نعمل معه على نحو بنّاء. ولو أن الفرنسيين أرادوا أن يكونوا جزءاً من العملية ببنائهم مدارس أو مستشفيات، أو أراد الألمان بناء ميناء، لكان ذلك أفضل كثيراً.

حينما انتقلنا إلى الاستقلال - حيث كان الحفل الرسمي سيقام في إبريل 1960 - أرسلت الحكومة الفرنسية رجلاً يدعى البارون دي تيستا، مستشاراً دبلوماسياً إلى رئيس

توجو. ولعل دي تيستا كان الرجل غير المناسب للوظيفة. لم يكن ثمة توافق بين أوليمبيو ودي تيستا، ولعل دي تيستا لم يأخذ في الحسبان أن أوليمبيو في طريقه إلى أن يصبح رئيساً لدولة مستقلة، ولم يعد تحت الحماية الفرنسية. وفي أي حال فقد طلب أوليمبيو إلى الحكومة الفرنسية تبديل مستشار آخر بدي تيستا.

وبانتظار قدوم موظف فرنسي مختلف، كتب أوليمبيو إلى رئيسي في وزارة الخارجية، كريستيان هيرتر، سائلاً إياه: هل بإمكانه أن يساعده في تنظيم حفل الاستقلال لدولة توجو الجديدة، أم لا؟ وكان أوليمبيو يريد مني المساعدة على إقامة وزارة خارجية لتوجو. وافق الوزير هيرتر على وضعي تحت تصرف وزير التوجو لفترة محدودة.

قام النائب العام، ويليام ب. روجرز بتمثيل الولايات المتحدة في حفل الاستقلال الزاهي، وأقسم الرؤساء القبليون في أثوابهم المحلية يمين الولاء لرئيس توجو الجديد. وقامت فتيات صغيرات في أثوابهن الإفريقية بالترفيه عن الضيوف القادمين من أرجاء الدنيا برقصات تقليدية على أنغام الموسيقا الإفريقية. وقام أوليمبيو بالتحدث مع كل وفد أجنبي حضر الحفل بشكل منفرد، موضحاً لهم كيف يمكن أن تساعد الدول الأجنبية توجو في دورها الجديد كدولة مستقلة.

بعد الاستقلال، بقيت لإنشاء وزارة خارجية لتوجو. وقد تطلب ذلك تسجيل البريد الوارد والصادر، وإقامة نظام للملفات، وتنظيم مكتب الوزارة وموظفي توجو الجدد بحسب المناطق الجغرافية، وإرشاد الموظفين الدبلوماسيين من توجو المعينين حديثاً حول الدولة التي سيتم اعتمادهم لها مستقبلاً، وإعداد أوراق الإيجاز لأوليمبيو للاجتماع بالدبلوماسيين المعتمدين حديثاً. وفوق ذلك كله، كان علي أن أقوم بإعداد مسودات ردود على جبال من رسائل البريد الواردة في مناسبة استقلال توجو. وبما أن اتفاق نقل السلطة بين فرنسا وتوجو نص على أن اللغة الرسمية للاتصالات الخطية ستكون الفرنسية، فإن جميع مسوداتي للرسائل كان يتعين كتابتها بتلك اللغة. ولكن رسائل الردود هذه من جانب أوليمبيو لم تكن مجرد رسائل مجاملة، بل كانت تعني ضمناً اعترافاً من الدول المنشئة

للرسائل، والاستعداد للتبادل التجاري، وقبول الاستثمار من جانبها، والاستعداد كذلك لاعتماد سفراء أجانب أو إرسال دبلوماسيين من توجو إلى الخارج، وإقامة قنصليات، وغير ذلك. وقد سعيت في عملي مع الرئيس أوليمبيو للتأكد من موقفه حيال بعض القضايا قبل تقديم المسودة، مع السعي في الوقت نفسه لحماية المصالح الأمريكية.

في إحدى المرات كان علي أن أتلمس طريقي خلال سياسة جمهورية الصين الشعبية الشيوعية في البر الصيني وجمهورية الصين الوطنية في تايوان. في ذلك الوقت لم تعترف الولايات المتحدة بالصين في البر الرئيسي، وإنما اعترفت بتايوان التي كان شعبها بصورة عامة من الناس الذين هربوا من البر الرئيسي في عهد تشيانج كاي شيك في أثناء ثورة عام 1949. لكن الصين الشيوعية كانت تدعي أن تايوان تعد - قانوناً - جزءاً من نظامها. وتلقى أوليمبيو رسائل من الصين وتايوان معاً، وكلتاهما تقول إنها تود الاعتراف بتوجو وإقامة بعثات دبلوماسية في الدولة الجديدة، فوضعت الرسالة من تايوان في أعلى كومة الرسائل، بحيث يتم إرسال رد أوليمبيو الإيجابي إلى تايوان أولاً، وعندما اكتشفت الصين الشعبية ذلك قامت بسحب دعوتها إلى إقامة علاقات.

لم تكن جميع المراسلات بتلك الأهمية، ولكن كان لا بد من مراعاة البروتوكول الرسمي في كل خطاب. كنت أعد الرسائل، وكانت زوجتي تصحح لغتي الفرنسية بحسب الحاجة، وكان أمناء سر وزارة الخارجية في توجو يطبعونها، ثم يقوم أوليمبيو بتوقيعها. في البداية رفض أوليمبيو توجيه الرسالة إلى ملكة إنجلترا بتحيتها بكلمة «مدام»، ولكنني أريته سجل التشريفات وما لبث أن وافق.

كانت الرسالة إلى البابا أشد صعوبة؛ ففي إفريقيا تم تعديل القوانين الكاثوليكية حول العلاقات الجنسية للسماح بتعدد الزوجات، الذي كان تقليداً قديماً. وقد سمح لمعددي الزوجات بالذهاب إلى الكنيسة، ولكن لم يكن بإمكانهم تناول العشاء الرباني، أما الذين لديهم زوجة واحدة فبإمكانهم ذلك. ويوضح سجل التشريفات أنك إن كنت تتناول العشاء الرباني، فإن ذلك يحدد كيف يمكنك مخاطبة البابا. لم أشعر بالارتياح

بسؤال أوليمبيو عما إن كان لديه أكثر من زوجة، ولذلك سألته بالقول: «سيادة الرئيس، هل تتناول العشاء الرباني عندما تذهب إلى الكنيسة؟».

أجاب: «أجل، بالطبع أفعل». عرفت بذلك أنه لم يكن ممن يعدد الزوجات، واستطعت كتابة الرسالة، بحيث يمكن أوليمبيو أن يذيلها بتوقيعه «ابنك المخلص».

قمت أنا ومارتيني برحلات كثيرة عندما كان مركزنا في توجو. ومنذ أن غادرت ساحل إفريقيا الغربي، وهو نقطة انطلاق العبيد الذين يتم بيعهم، إلى أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، أصبحت مهتماً باستقصاء تعقيدات تجارة العبيد الأفارقة، التي أضرت كثيراً بثقافة القارة وحياتها الاقتصادية وصاغت شكلها. وذات يوم قمت بزيارة بيت رئيس إحدى القرى على ساحل داهومي، التي تعرف حالياً باسم بِنِين، وكان اسمه دي سانتوس؛ ما يدل على أن أصله كان من أصول إفريقية/ برازيلية. كان يعيش في بيت كبير على الطراز الغربي، مزود بثريات أنيقة، ومرايا، وأثاث خشبي ثقيل. وراح يشرح لي ولمارتيني أن أسرته كانت تعمل بتجارة الرقيق في القرن التاسع عشر، وفتح ملفات مسجَّلاً فيها أعداد الأفارقة الذين تم بيعهم، وجنس كل أسير وعمره وحالته الصحية، والسعر المقبوض، ووجهة الشخص المسكين. وأرانا أيضاً الثريا والمرآة الضخمة ذات البرواز التي أهديت إلى أجداده من تجار الرقيق؛ تقديراً لخدماتهم. وقال دي سانتوس: إن معظم التجار الذين يشترون العبيد في منطقته كانوا برتغاليين، وإن وجهة الذين تم بيعهم للعبودية كانت البرازيل على الأغلب. وأوضح أيضاً أن طقوساً وشعائر معينة ماتزال يتم الاحتفال بها في البرازيل من البرازيليين من أصل إفريقي، هي نفسها التي يتم أداؤها منذ نحو 150 عاماً في المناطق الداخلية من غرب إفريقيا. وتبقى بعض التذكارات لتلك التجارة المشؤومة ماتزال ماثلة على هيئة قلاع في غانا وعلى الساحل بين توجو وبنين، كانت بمنزلة مراكز احتجاز لشحن الأسرى.

في مارس 1960 تم تعييني موظفاً رئيسياً في باماكو؛ السودان الفرنسي. كان لي مركزي وأنا في سن الرابعة والثلاثين. كان السودان الفرنسي جزءاً من اتحاد مع السنغال

كانت عاصمته في داكار؛ ومن هنا كنت أترأس قنصلية ضمن دائرة اختصاص السفير الأمريكي في داكار. في ذلك العام بدأ يتفجر الشعور القومي الإفريقي والدافع إلى تقرير المصير وهوية منفصلة، ليس ضد القوى الاستعمارية السابقة فحسب، بل حتى ضمن الدول المستقلة حديثاً، وهي التي حصلت على حريتها بالفعل. كانت تلك هي الحال مع السنغال؛ حيث انفصل الجزء الشرقي من الاتحاد الذي كان يعرف رسمياً بالسودان الفرنسي، وأعلن الاستقلال باسم دولة مالي، ويعود الاسم إلى العصور الوسطى، وهي تشتهر باسم أرض تمبوكتو.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى باماكو، كان تقسيم الاتحاد قد استكمل، وتم إعلان موديبو كيتا رئيساً لجمهورية مالي. ذهبت لزيارته، وأتبعت الحكومة الأمريكية ذلك بإعلان مركز باماكو مرتبطاً مباشرة بواشنطن، وتم قطع جميع الصلات بين القنصلية الأمريكية في باماكو والسفارة الأمريكية في السنغال. كان رئيسي موظفاً في وزارة الخارجية بواشنطن، وأنا تلقيت أوراق اعتمادي قائماً بالأعمال بصفة أصلية ودائمة. وكان ذلك يعني أنني رئيس البعثة الدبلوماسية. في المستقبل المنظور لم يكن ليتم تعيين سفير أمريكي مقيم في باماكو، وكنت أنا «المسؤول».

كان كيتا يشبه تماماً بطل كرة السلة في ولاية أوهايو؛ فقد كان طويلاً - ست أقدام وثلاث بوصات - وكان رياضياً متميزاً. ومن الطرائق التي جعلتنا نسترخي، في الواقع، ونتعرف إلى بعضنا بعضاً، لعب الكرة الطائرة مع موظفيه وأي شخص يتصادف أن يكون موجوداً. كان كيتا رجلاً ذكياً وواسع الثقافة، وكان في مرحلة من مراحل حياته المهنية عضواً في الحكومة الفرنسية.

من الأمور البارزة في الفترة التي أمضيتها قائماً بالأعمال لقاء المؤلف الوجودي الفرنسي الكبير أندريه مالرو، الذي كان يشغل منصب وزير الثقافة الفرنسي. كان مالرو في المدينة للاجتماع بكيتا ولتوجيهه بعيداً عن السوفييت.

بقيت مالي في منطقة الفرنك الفرنسي في غرب إفريقيا؛ ما جعل عملتها قابلة للتحويل، ثم بدأ الشبح الثوري لسيكوتوري، رئيس غينيا، يخيم على مالي. كانت تراود موديبو كيتا فكرة إقامة عملة مالي الخاصة بها، الفرنك المالي. بعد ذلك طلب إلى القوات العسكرية الفرنسية مغادرة مالي. كانت البعثة السوفيتية في باماكو مشهورة تماماً في أوساط السياسيين الماليين، وقدّم السوفييت المساعدات والمستشارين من غينيا. أظهرت مالي ميولها السياسية بإقامة مسيرات احتجاج ليلية على أضواء المشاعل، احتجاجاً على مقتل باتريس لومومبا في الكونجو. وأوضح الماليّون في ذلك الوقت أن هناك جريمة قتل وراء موت لومومبا، وأن الغرب كان مسؤولاً عنها. كانوا قد بدؤوا يتساءلون حول صلاتهم بالقوة الاستعمارية السابقة، ويبحثون إذا ما كانوا سيتخلون عن منطقة الفرنك الفرنسي الغرب-إفريقي وينهون عضويتهم في الاتحاد الفرنسي، أو لا.

عندما قابلت مالرو في باماكو في ساعات الصباح الأولى بالمطار، شكرني على لقائه في طائرته، وأوضح السبب وراء قدومه إلى مالي، قائلاً: «علينا العمل على إبقاء الماليّين في منطقة الفرنك الفرنسي الغرب-إفريقي. لا نريد أن نكرر ما حصل في غينيا وأن يكتسحنا المستشارون السوفييت والأيديولوجية السوفيتية في مالي». وأكد مالرو أيضاً على «الموقع الاستراتيجي» لمالي. لم أفكر مطلقاً بمالي بهذه الطريقة. تقع مالي بموقعها جنوب الجزائر، إلى الشمال من ساحل العاج وغينيا؛ ما يعطيها إطلالة على المحيط الأطلسي، وهي أيضاً على الطريق التجارية القديمة بين الشمال الإفريقي العربي وقبائل السود في غرب إفريقيا. ألح مالرو على أن تُطلع الولايات المتحدة الفرنسيين على الأمور تجنباً لأي ازدواجية في الجهود.

بعد ذلك بقليل ذهبت للقاء الرئيس كيتا، فقال إنه يود إقامة عملته الخاصة، وبدلاً من إعطاء إجابة سلبية أو إيجابية، أخذت ورقة ورسمت ميزانية، ووضعت الدخل والنفقات مقابل بعضها، وأريته البنود التي ينبغي وضعها تحت الأصول وما ينبغي إيراده تحت بند "الخصوم" في ميزانية المصرف المركزي. وأوضحت له أنه لا يمكنه الدخول إلى

خزينة المصرف المركزي وأخذ الأوراق النقدية كما لو أنه كسبها. وناقشنا الحاجة إلى وضع ميزانية وطنية وميزات عملة قابلة للتحويل.

وبوصفي ممثلاً للولايات المتحدة الأمريكية، كنت دائماً أريد أن أتعاون مع الدول الأخرى، لا الدولة المضيفة فحسب، بل الدول الغربية الأخرى في المنطقة أيضاً. وعندما طلب كيتا إلى الولايات المتحدة الأمريكية تقديم التدريب للمظليين وافقت، غير أنني أردت أولاً التأكد من الفرنسيين. كنت أطلع الفرنسيين باستمرار عند كل خطوة على الطريق. ووقّعنا اتفاقات تعاون عسكري واقتصادي مع مالي عام 1961.

كان كيتا – مثل زعماء العديد من الدول المستقلة حديثاً – يريد جميع زخارف السيادة القومية الظاهرة. كان يريد شركة خطوط طيران وطنية – Air Mali – ولكن لم تكن هناك سوق كبيرة لرجال الأعمال أو السياح من مالي وإليها؛ ومن ثم لم يكن لها معنى. وكان كيتا أيضاً يرغب في عملة وطنية، ولكن حال مالي ستكون أفضل بارتباطها بعملة دولية قائمة مثل الفرنك الفرنسي. وإن كان ثمة شيء تحتاج إليه دولة جديدة؛ مثل مالي، فهو الاستقرار الذي يمكن أن يقدمه الفرنك أو عملة دولية أخرى.

كان كيتا قومي النزعة بشدة، وكان منجذباً إلى قول «لا» لديجول، ولكنه أدرك أيضاً أنه كان جزءاً من نظام أوسع. وفي نهاية المطاف، ساد الرأي الأفضل لكيتا. وعندما غادر الفرنسيون مالي، رتب كيتا والسلطات الفرنسية لإقامة مراسم الخروج. قاد الجنرال شارل، رئيس القوات الاستعمارية الفرنسية في مالي، قواته في موكب رسمي، وبعد ذلك غادر القوات بأسلوب أنيق. وبقيت مالي ضمن منطقة الفرنك الفرنسي الغرب–إفريقي وظلت موالية للغرب بقوة.

عندما كنت في مالي أمضيت أربعاً وعشرين ساعة لا تنسى مع المارشال جوزيف بروز تيتو، رئيس يوغوسلافيا، وهو من الشخصيات السياسية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية. قدم تيتو إلى مالي بأكاليل بطل حرب ماركسي نجح في البقاء خارج فلك

السوفييت، وأصبح أحد قادة حركة عدم الانحياز، وحافظ على وحدة الأمم العرقية والدينية المختلفة في يوغوسلافيا. أضف إلى ذلك أن يوغوسلافيا كانت تتطور بسرعة اقتصادياً واجتماعياً، مع المحافظة في الوقت نفسه على عدد من الحريات الشخصية؛ مثل السفر إلى الخارج، والتسامح الديني، والسلام. كان الزعماء القوميون الأقوياء الإرادة يجذبون الأمم الإفريقية الجديدة الخارجة من نير الاحتلال، وكان ذلك ينطبق على شخصية تيتو.

كان موديبو كيتا يعلم أنني عملت في خطة مارشال التي شاركت فيها يوغوسلافيا، وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت لها علاقات جيدة بيوغوسلافيا؛ ولذلك طلب إلي مرافقة تيتو في أثناء زيارته القصيرة إلى مختلف الفعاليات التي أقيمت على شرفه. كان مترجم تيتو يتحدث الفرنسية والألمانية؛ ما سهل علينا التواصل، علاوة على أن سفيرة يوغوسلافيا الجذابة لدى مالي، وهي سيدة مسلمة من البوسنة والهرسك، ساعدت على الطواف بتيتو هناك.

ما صفات تيتو؟ كان قصيراً وممتلئ الجسم، وينضح بالقوة البدنية. وكان من خلال أسئلته يبدي اهتماماً بالجوانب التقنية لمشروعات التنمية في مالي. كان مرتاحاً للأفارقة، وقد سألهم عن نظرتهم إلى المستقبل، وطلب مشاهدة الحيوانات المتوحشة وهي تتجول طليقة، وبما أنه كان هاوياً للصيد فقد شعر بالأسف؛ لأنه لم يعد معه بتذكار للصيد. كان يتمتع بشخصية قوية واجتماعية منفتحة. وقد رأى الماليون في تيتو زعيماً سياسياً مهتماً بمساعدة المحرومين، وناجحاً في الشؤون الخارجية بعدم تجاوز مناطق نفوذ الآخرين، ولكن من دون التضحية بطموحاته القومية.

ختاماً، أود القول إن الوجود الأمريكي القوي في مالي، حال دون تحولها إلى الشيوعية كما فعلت غينيا. بقيت مالي في منطقة الفرنك الفرنسي، وجزءاً من غرب إفريقيا، وحافظت على علاقات وثيقة بالغرب. وقد بذلت الولايات المتحدة الأمريكية وسعها في

مالي، بينما لم تستطع الدول الشيوعية إفسادها أو كسبها بعيداً عن سبيل الديمقراطية. واليوم تبقى مالي أحد أكثر المجتمعات الإفريقية انفتاحاً وتسامحاً.

في الوقت الذي عدت فيه إلى واشنطن لقضاء بضع سنوات في وزارة الخارجية، كنت قد تعلمت أموراً مفيدة عن الحقائق الجديدة للسياسة العالمية. فقد قابلت بعض أكثر الشخصيات سحراً وجاذبية في العالم الناشئ، من أوليمبيو وموديبو كيتا في إفريقيا إلى تيتو وأندريه مالرو في أوروبا، إلى شخصيات قيادية في السياسة الخارجية الأمريكية. ورأيت الأمل لدى الدول المستقلة حديثاً والواقعية الجديدة للقوى القديمة. وشهدت إمكانية السلام والتعايش في أماكن؛ مثل كمبوديا ولاوس، ولكنني لاحظت أيضاً تفضيل بعض العناصر في أمريكا سياسة تقسيم العالم إلى صديق وعدو: إلى مَن هو «معنا» ومن هو «ضدنا». وفكرت في نفسي: لم لا نصب مزيداً من التركيز على نهج مرن جديد يمكن أن يمنع الحرب والدمار؟

الفصل الرابع

المـأزق

في الأيام الأولى من عام 1967، حينما زادت الولايات المتحدة الأمريكية من غـارات القصف على فيتنام الشمالية، ازدادت المعارضة للحرب في الولايات المتحدة، ولكن معظم الناس ظلوا يؤيدون الجهود الحربية للرئيـس ليندون جونسون، وشـككت قلـة في نظريـة الدومينو التي تؤمن بأن فقدان إحدى الدول إلى أحضـان الشـيوعية يقـود إلى موجـة مـن الخسائر عبر آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، وحتـى في أوروبـا. ولكـن عـلى الـرغم مـن الإجماع على الموضوعات العامة للحرب الباردة، فقد ازداد قلق الأمـريكيين بشـأن نطـاق الموت في جنوب شـرقي آسيا.

وكان عام 1968 عام انتخابات رئاسية، وكان أحد المنافسين الرئيسـيين على الرئاسـة من جانب الديمقراطيين السيناتور روبرت ف. كينيدي الذي كان وقتها عضـواً في مجلـس الشيوخ عن نيويورك، وقد أحدث منعطفاً رئيسـياً منذ الأيام التي كان فيها من الصقور في إدارة أخيه جون ف. كينيدي. كان السيناتور مايزال يبحث عن هـدف مفيـد في السـنوات التي تلت اغتيال الرئيـس كينيدي؛ فقد كان يكنّ في نفـسه سـوء ظـن شـديداً بالرئيـس ليندون ب. جونسون؛ حيث عده غاصباً تقريباً، وبادله جونسون سوء الظن، والأهـم مـن ذلك أن بوبي كينيدي كان يعتقد أن السياسة الأمريكية قـد أخـذت منعطفـات خطـيرة في السنوات الأخيرة؛ فقد كان الاغتيال مجـرد إحـدى العلامـات، وكـذلك كانـت أحـداث الشغب في المدن، وجرائم قتل مارتن لوثر كينج الابن، ومالكولم إكـس، والتـوتر العرقـي المتنامي الذي امتد من الجنوب العنصـري إلى المدن والضواحي الشـمالية، ومـأزق العـمال المهاجرين في حقول كاليفورنيا، ومصيبة المخدرات في المدن الجامعية والشوارع، ومـا بـدا حرباً لا يمكن الفوز بها في فيتنام.

في العام السابق، أعد كينيدي خططاً لجولة في عواصم أوروبا الرئيسية لتقدير حجم القضايا العالمية التي تواجه أمريكا، وكانت إحدى المحطات التي توقف فيها باريس؛ حيث لعبت دوراً.

كان العمل مع بوب كينيدي تعليماً حقيقياً بالنسبة إلي، فقد كان ذكياً وسريعاً ومبدعاً. وكان في وقته الخاص يتصرف كالمستهتر، ولكن ذلك كان شأنه، وأما ما كان مهماً لعمله كسياسي، فهو أنه كان يتمتع برؤية شاملة النطاق للعالم؛ فقد كان بإمكانه أن يرى كل ما كان يدور حوله، حتى عندما يزور مكاناً لبضعة أيام.

عندما وصل كينيدي إلى باريس في أواخر يناير 1967، كانت فرنسا في حالة حداد على موت المارشال ألفونس جوان، أحد كبار القادة العسكريين الفرنسيين في الحرب العالمية الثانية. لم يكن كينيدي يعرف الكثير عنه، ولكنه قرر على الفور أن يظهر علناً في مبنى الإنفاليد الذي يعود بناؤه إلى القرن السابع عشر، والذي يضم قبر نابليون، وحيث يرقد جثمان جوان في قبر مهيب. وأمر كينيدي بإحضار إكليل ضخم إلى نعش جوان، مع بطاقة كتب عليها: «من آل كينيدي». وقد رافقته إلى الإنفاليد حاملاً الإكليل، وحينما وصلنا إلى النعش المغطى بالعلم الفرنسي أعطيت كينيدي الإكليل، وركع يصلي، وهو يبكي بكاء خفيفاً. كان ذلك التصرف سياسياً ومثيراً وعاطفياً، وكل ذلك في آنٍ واحد. وقد صورت آلات التصوير التلفازية تلك اللحظة التي وضع فيها كينيدي الإكليل. لم ترفع تلك اللفتة كينيدي في أعين الفرنسيين فحسب، بل قوّت من مركزه كحامل لاسم آل كينيدي، وعززت أواصر عائلة كينيدي الغامضة مع الناس في أنحاء العالم.

وصل كينيدي إلى باريس بعد وقت قصير من نشر صحفي يساري في أستراليا مقابلة مع وزير خارجية فيتنام الشمالية نجوين دوي ترينه، فتحت احتمالات جديدة لحل تفاوضي في اللحظة التي سئمت فيها الولايات المتحدة وفيتنام الجنوبية معاً من الحرب.

وعلى مـدى سـنوات لم يُبـدِ الجانبـان المتحاربـان مـيلاً إلى إنهـاء القتـال عـن طريـق المفاوضات. كانت مهمة هوشي منـه هزيمـة فيتنـام الجنوبيـة وتوحيـد الـدولتين في دولـة شيوعية واحدة، أما الولايات المتحدة، التي كانـت غارقـة في الحـرب البـاردة، فلـم تكـن مستعدة للتسليم بإمكانية استيلاء فيتنام الشمالية الشيوعية على فيتنام الجنوبية. واسـتمرت الولايات المتحدة في إمطار فيتنام الشمالية بالقنابل، حتى قامت قبـل نهايـة الحـرب بإلقـاء أطنان من القنابل على فيتنام فاقت ما ألقاه جميـع الأطـراف المتحـاربين في الحـرب العالميـة الثانية، ولكن الشماليين لم تفتّ لهم عزيمة، بل أحرزوا تقدماً من خلال حرب العصـابات. فقد كان درب هوشي منّه، الذي التف واستدار على طول 12,000 ميل في الغابات، يمثـل طريقاً للإمداد إلى فيتنام الجنوبية، وملاذاً من القنابل الأمريكية. وبقدر ما كانت الولايـات المتحدة تريد أن ترى فيتنام نظامين وثقافتين متميزتين، فقد اخترق الفيتكونج الجنوب تماماً والدولتين المجاورتين لاوس وكمبوديا.

ولكن نجوين دوي ترينه قال: «إن توقفت عمليـات قصـف الشـمال تمامـاً، فسـوف تصبح هناك ظروف جيدة ومناسبة للمحادثات».

منذ وصولي إلى باريس عام 1965 كنت قد أقمت علاقة عمل وثيقة مع إيتيان مانـاك Etienne Manac'h رئيـس قسم آسيا في وزارة الخارجية الفرنـسية، الـذي كـان يعـرف الهند الصينية عن كثب. كان ماناك يمثل خيرة من في فرنـسا ما بعد الاستعمارية، فقد كـان يهتم بشعوب المستعمرات السابقة في آسيا، ويرغب في أن يفعل شيئاً لإنهـاء الحـرب التـي كانت تدمر المدن والأرياف. تحدثنا مراتٍ عن ثقافة فيتنام وسياستها والحرب. كان مانـاك يؤمن بأن الحرب لم يكن لها إلا صلة قليلة بنشـر الشيوعية عبر البسيطة، بل كانت منطلقـة من رغبة الفيتناميين في الاستقلال، فقد كانوا حركـة قوميـة. كـان الفيتنـاميون الشـماليون يقاتلون من أجل أرضهم ونظامهم في الحياة، وكانت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة جهـة غريبة من دون مصلحة ملموسة في رخاء فيتنـام. كـان الفيتنـاميون سـيقاتلون إلى الأبـد، وكان ثمة حدود للولايات المتحدة، كفرنـسا قبلها.

اطلع ماناك على المقابلة مع ترينه ورأى أنها تمثل تقدماً كبيراً؛ فلو أن الولايات المتحدة الأمريكية استغلت الفرصة في وقت مبكر، لاستطاعت التوسط في وضع نهاية للحرب التي كانت في تلك المرحلة أقل ضرراً بدرجة كبيرة مما كانت عليه ديان بيان فو بالنسبة إلى الفرنسيين. فقد سأل ماي فان بو، كبير دبلوماسيي فيتنام الشمالية لدى فرنسا عن احتمال كون القصد من المقابلة أن تكون بمنزلة مفاتحة رئيسية لإيجاد طريق لبدء المفاوضات بهدف إنهاء الحرب، أو لا، فقال ماي فان بو: إن الأمر كان كذلك.

كان ماناك يريد التأكد من أن الرسالة وصلت إلى الولايات المتحدة بصورة واضحة قدر الإمكان؛ وهكذا، نجد أنه عندما وصل كينيدي إلى وزارة الخارجية الفرنسية كان ماناك مصمماً على نقل الخبر إليه. وفي اجتماعهما قام صديقه ويليام فان دين هفيل William Van den Heuvel بمرافقة كينيدي، وقمت أنا بدور المترجم الشفوي ومسجل الملاحظات. قال ماناك لكينيدي إن نجوين دوي ترينه يمكن أن يوجد بداية لمفاوضات على إنهاء الحرب. لم أكن متأكداً من كون كينيدي قد أدرك ما يخبره ماناك به أو لا؛ ولذلك قاطعته، وسألته: هل كان ذلك يعني أن الفيتناميين الشماليين على استعداد للجلوس وإيجاد طريق للتفاوض حول إنهاء الحرب؟ فقال ماناك: أجل، تماماً.

اندفعت عائداً إلى السفارة لكتابة برقية سرية لإرسالها إلى واشنطن حول محادثة كينيدي مع ماناك. كان واضحاً أن الحرب في فيتنام لم تكن على ما يرام، ويمكن أن تزداد سوءاً، على الرغم مما كان يقوله الجنرالات والرئيس والصقور، والآن ثمة مخرج، وهو مخرج مشرف.

ما لم أكن أعلمه أن مجلة **نيوزويك** حصلت على نسخة من إحدى البرقيات التي أرسلتها، ونشرت تقريراً عن المفاتحة في عددها اللاحق، وأن صحيفة **نيويورك تايمز** ستضع خبر التقدم الذي تم إحرازه في الصفحة الأمامية. كان دوجلاس ماك آرثر الثاني، مساعد وزير الخارجية للشؤون التشريعية، قد سرب الوثائق في مسعى منه لإضعاف أي تحرك في اتجاه محادثات السلام. ومن خلال تسريب المعلومات الحساسة، دفع ماك آرثر

إدارة جونسون إلى التراجع، إن حدث أن مالت إلى السعي خلف محادثات السلام في المقام الأول. وإن كان روبرت كينيدي يسعى وراء أمر، فسيكون ليندون جونسون ضده.

عكس مقال **نيويورك تايمز** صورة الارتباك في تلك الفترة، بشأن كيفية البدء في مفاوضات مفيدة: «حتى الآن يتفق جميع الأطراف على أن ما سمعه سيناتور نيويورك من مسؤول فرنسي في باريس لم يكن "رسالة سلام" من هانوي، كما ورد في مجلة **نيوزويك** منذ أسبوع، وإنما تقويم مسؤول فرنسي لما يمكن أن تكون هانوي مستعدة لفعله، إن أوقفت الولايات المتحدة قصف فيتنام».

كان هذا الرفض لعرض حقيقي - محادثات سلام لوقف القصف - خاطئاً. لقد كانت مفاتحة حقيقية، وشيئاً كان يمكن أن ينجح. ليس للسلام فرصة إلا عندما يقرر جانبان التنازل قليلاً للحصول على شيء بالمقابل. لم يكن إيتيان ماناك يحلم أو يؤلف شيئاً. فقد حصل على تأكيد مباشر بأن الفيتناميين الشماليين كانوا على استعداد للتفاوض على نهاية للحرب. من يعلم إلى أين كانت تلك المفاوضات ستؤدي لولا هذا الشجب؟ ولعلها، في أحسن الأحوال الممكنة، كانت ستؤدي إلى إعادة تأكيد اتفاق جنيف لعام 1954، وهو إقامة فيتنام موحدة، وتفويض بإقامة انتخابات علنية وعادلة. وربما لا، لكنك لا تعلم مطلقاً. ولكن بسبب السياسة الداخلية - التنافس المر بين الديمقراطيين والجمهوريين - تم التفريط بالإمكانيات قبل أن تتاح لها فرصة لكي تتطور.

كان ليندون جونسون شديد الغضب مني. عندما قرأ مقال **نيويورك تايمز** - الذي نقل أنني رافقت كينيدي إلى الاجتماع مع ماناك - انفجر الرئيس صارخاً: «من هو جون دين؟ اطردوه!».

تعلمت درسَين ثمينين من تلك الحادثة. أولاً، لا تثق دائماً بالأشخاص من جانبك؛ وفي هذه الحالة الإدارة التي أعمل لديها. وبسبب السياسة الرئاسية، قام موظف في وزارة الخارجية بإعلان مبادرة دبلوماسية حساسة قبل أن تكون المبادرة جاهزة للكشف عنها.

ثانياً، تأكد من أن لديك دليلاً على دورك في القضايا المعقدة. إن كان ثمة أشخاص مستعدون لتقويض عمل بنّاء، وكانوا كذلك، فينبغي التأكد من عدم قدرتهم على الكذب بشأنه أيضاً. وعند تلك النقطة في مسيرتي المهنية، قررت الاحتفاظ بنسخ من جميع المذكرات والبرقيات التي أعددتها. وإن أردت الإقدام على مجازفات من أجل السلام - وهذا هو عمل الدبلوماسي - فقد احتجت إلى الحرص على ألا يستطيع أشخاص لهم مصلحة في الوضع القائم أن يقوضوا جهودي من دون أن أكون قادراً على الرد بفاعلية.

بعد أكثر من عام من ذلك، وذلك في مايو 1968، حينما اقترب موعد الانتخابات، بدأت محادثات السلام في باريس.

لقد قام بعض خيرة الأشخاص في مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية - أفريب هاريمان، وسايروس فانس، وفيليب حبيب، ومن الأصغر سناً جون نيجروبونتي وريتشارد هولبروك - بالعمل على مدار الساعة لإبطاء عجلة الحرب وإيقافها، وإيجاد صيغة في نهاية الأمر، يمكن من خلالها التعايش بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية. وبما أننا لم نقم قط بدعم المفاوضات، فإن هذه المحادثات كانت أقرب إلى الإيضاح منها إلى أي شيء آخر. لم نكن نشعر أن بإمكاننا أن نعرض رسمياً وقف القصف؛ لأننا لم نحصل على طمأنات حول كيفية استجابة الفيتناميين الشماليين، ولم نتصور كيف سيشارك الفيتناميون الجنوبيون في المحادثات كطرف مستقل. في تلك المرحلة، جلس الفيتناميون الجنوبيون مع الأمريكيين. وحتى عندما حدثت أمور جيدة في الحرب؛ مثل الهدوء في القتال في يوليو، لم نعرف ماذا نصنع به. سألنا الفيتناميين الشماليين: هل كان ذلك أمارة على النية الحسنة؟ فلم نحصل منهم على جواب واضح قط.

وكما هي الحال دائماً في المفاوضات، أمضينا أوقاتاً طويلة في ملاكمة خيالية في باريس، وظننا أن أمراً مهماً يمكن أن يقع، ولكننا لم نعلم على وجه اليقين ما هو.

وفي فبراير 1968، قام يوجين مكارثي، وهو مرشح معارض للحرب، بأداء «أفضل من المتوقع» ضد الرئيس جونسون في الانتخابات الداخلية للحزب الديمقراطي لاختيار مرشح الحزب لخوض الانتخابات الرئاسية، وعلى الرغم من فوز ليندون جونسون في الانتحابات الداخلية، فقد فسرت وسائل الإعلام استعراض مكارثي كبرهان حاسم على أن الرئيس قد انتهى. وفي خطاب متلفز مثير انسحب جونسون من المنافسة، وأخبر الأمة أنه لم يستطع خوض معركة إعادة الانتخاب بينما هو يقود الحرب. وقد فرغ بقية فترته الرئاسية للبحث عن سبيل للخروج من الحرب. ومنذ تلك المرحلة وما بعدها، حظيت محادثات السلام بدعم الإدارة. كان جونسون نفسه معارضاً وقف القصف الأمريكي على فيتنام الشمالية، وقد فعل ذلك في الأيام الأولى للحملة، عندما كان نائب الرئيس هيوبرت همفري يقود سباقاً ليفوز من موقع مخترق بالوصول إلى البيت الأبيض.

ولكن المرشح الجمهوري للرئاسة، ريتشارد نيكسون، كان يناور لتقويض محادثات السلام، أما وراء الكواليس، فقد أرسل نيكسون مبعوثيه إلى فيتنام الجنوبية برسالة بسيطة: لا تمضوا شوطاً بعيداً في محادثات باريس للسلام. يمكنك الحصول من إدارة نيكسون على صفقة أفضل من إدارة همفري.

أخبر نيكسون الناخبين أن لديه «خطة سرية» للخروج من فيتنام من دون أن تمس كرامة أمريكا بأذى. والخطة في الواقع لم تكن خطة، بل كانت مكيدة تهدف إلى تخويف الفيتناميين الشماليين لدفعهم إلى التخلي في المفاوضات عن كل ما قاتلوا على مدى عشرات السنين لتحقيقه. كانت الفكرة تقضي بالتهديد باستخدام قوة رهيبة ضد الفيتكونج، فضلاً عن الدول المجاورة؛ مثل كمبوديا ولاوس، بحيث يتوسل الفيتناميون الشماليون من أجل السلام. وقد سماها هنري كيسنجر نظرية «الرجل المجنون». وقد صرح كيسنجر - مباشرة أو من خلال وسطاء - بأن نيكسون كان زعيماً طائشاً غير عقلاني، ورجلاً مجنوناً لا يستطيع المرء النقاش معه. إن استعداده لاستخدام الأسلحة

النووية أيضاً، كان هو المعنى المبطن غير الدقيق للتهديد، والسعي وراء السلام الآن أفضل من مواجهة الدمار لاحقاً.

لم يسهم أسلوب نيكسون العدائي ورد فعل هوشي منه المنطوي على التحدي في دعم نوع المفاوضات التي بدأت في باريس. وقد انخرطت فيتنام في حرب دموية حتى عام 1975، حينما اجتاح الشيوعيون جميع الهند الصينية تقريباً وأقاموا بعض أشد الأنظمة قمعاً في العالم.

عندما غادرت فرنسا في خريف عام 1969 بعد أربع سنوات أمضيتها في السفارة الأمريكية، شعرت مع ذلك بأنني قد قمت بإسهامات كبرى في العمل على بدء الحوار بين فيتنام الشمالية والولايات المتحدة بشأن مستقبل فيتنام. لكن تصميمي على إقامة مفاوضات حقيقية في باريس بين جميع الأطراف المعنيين، أوقعني في المشكلات. ففي أحد الأيام نحو أواخر عام 1968، سألت في إحدى محادثاتي مع السيد ماناك بكل براءة: «السيد المدير، لماذا لا تساعدنا على التخلص من هذا الوضع في فيتنام؟» ولمحت إلى سنواتي التي قضيتها في الهند الصينية وحقيقة أن الفرنسيين لم يستطيعوا التماشي مع دافع الفيتناميين إلى التوحيد والاستقلال. وقد ازداد الآن تورط الولايات المتحدة الأمريكية في المأزق.

بعد الاجتماع ذهب السيد ماناك لرؤية وزير الخارجية، ميشيل دوبريه، الذي كان مقرباً إلى الرئيس ديجول، وأبلغه أنني اقترحت أن يساعد الفرنسيون الولايات المتحدة على التخلص من الوضع المعقد في فيتنام. وفي ذلك المساء نفسه - فيما بعد - تلقى وزير الخارجية سايروس فانس اتصالاً هاتفياً من دوبريه يطلب اجتماعاً، وعند مواجهته من دوبريه بالملاحظات التي أبديتها لماناك، أوضح له الوزير فانس تماماً أنني غير مخول أن أطرح أي أفكار على السلطات الفرنسية، وأنني كنت أتحدث من تلقاء نفسي. وأنا أضحك من هذه الحادثة أحياناً، متسائلاً: هل فكرة «حل بوساطة» ستكون خيراً مما حدث بالفعل؟

هل كان ثمة اختلاف بين الديمقراطيين والجمهوريين في نهجهم تجاه محادثات باريس مع فيتنام الشمالية؟ كان انطباعي هو أن الوفد الأول إلى محادثات فيتنام، بقيادة السفير هاريمان والوزير فانس، كان مهتماً في الحقيقة بإيجاد تسوية مؤقتة مع فيتنام الشمالية. وبعد مغادرة هاريمان/ فانس القيادة في أعقاب هزيمة الديمقراطيين في الانتخابات، أصبح وفد الجمهوريين إلى محادثات فيتنام - بقيادة السفير هنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge، مع مشاركة هنري كيسنجر فيما بعد - أقل رغبة في التفاوض مع الفيتناميين الشماليين وأكثر ميلاً إلى العمل من جانب واحد. رفض رئيس الوفد الفيتنامي الشمالي، لو دوك ثو Le Duc Tho، جائزة نوبل للسلام عام 1973؛ لأن السلام لما يتم إرساؤه بعد، ولكن الدكتور كيسنجر قبل نصفه الخاص به من الجائزة. ولعل جون نيجروبونتي وريتشارد هولبروك - وهما اللذان كان كلاهما جزءاً من الفريق المفاوض الأمريكي لفترة أطول من فترتي - يستطيعان إلقاء ضوء إضافي على هذه الفترة المهمة من الدبلوماسية الأمريكية.

في عام 1970، تم تعييني في فيتنام نائباً لقائد المنطقة العسكرية الأولى لدعم العمليات المدنية والتنمية الثورية* (CORDS). كنا مسؤولين عن خمس مناطق في أقصى شمال فيتنام الجنوبية؛ حيث كانت تقع معظم المعارك الفاصلة لاستقلال فيتنام الجنوبية. كان مقرّي في دانانج. وإن استطاعت فيتنام الجنوبية الاحتفاظ بهذه المناطق فقد تحافظ على استقلالها كدولة، أما إذا سيطر الفيتكونج والفيتناميون الشماليون على المنطقة، فستكون ثمة فرص قليلة أمام الجنوب للفوز. ومهما يكن الأمر، فقد اخترق الفيتكونج بالفعل جميع أجزاء فيتنام الجنوبية، إضافة إلى لاوس وكمبوديا.

وفي أثناء عملي مع دعم العمليات المدنية والتنمية الثورية، كان لدي 1,100 مستشار مدني وضابط عسكري تحت قيادتي. وقد بدأت عملي بوصفي رقم 2 في المنطقة، ثم رفعت. كانت مهمتي مساعدة نظام فيتنام الجنوبية على أن يحكم وينمي مجتمعاً مزدهراً وآمناً

* تكتب أحياناً «ريفية» بدلاً من «ثورية». (المؤلف)

بدرجة كافية لمقاومة الفيتناميين الشماليين. وقد عملنا على مجموعة واسعة من القضايا العسكرية والاقتصادية والاجتماعية، والمساعدة على تأمين الكهرباء، ورعاية اللاجئين، والأمن، وتصدينا للفيتكونج.

تنقلت بالمروحية عبر جميع المناطق الخمس الواقعة ضمن دائرة اختصاصي، وكنت أزور مستشارينا في أبعد القرى والمناطق النائية وأساعدهم. وكان هدفي أن أرى المنطقة كلها، وليس كسلسلة من المعارك المنفردة. أرسلت تقاريري عما رأيته، واستنتاجاتي حول كيفية تطور الأوضاع العسكرية والاقتصادية والاجتماعية في وسط فيتنام، إلى قائد القوات الأمريكية في سايجون؛ حيث سيضمّنها في تقويمه الشامل عن مسيرة الحرب.

منحتني خدمتي في دانانج فهماً لا يقدر بثمن للمؤسسة العسكرية الأمريكية، التي ساعدتني هي أيضاً، على العمل مع زملائي العسكريين في بقية مسيرتي المهنية الدبلوماسية. لقد منحتني خدمة العمل العسكري الأمريكي في فيتنام رؤية ثاقبة ومصداقية لم أكن لأحصل عليهما بأي سبيل آخر. ولم أتهرب عندما كان يطلب إلي الذهاب؛ فذلك هو عملي. وعندما رفعت صوتي مطالباً بالسلام فيما بعد، في أثناء مسيرتي المهنية، لم يكن بالإمكان استبعادي واعتباري داعية سلام ضبابي التفكير. فقد عرّضت حياتي للخطر، وكدت أفقدها أكثر من مرة. والأمر الأهم هو أن الخدمة مع القوات المسلحة منحتني احتراماً عميقاً دائماً للمؤسسة العسكرية. لا يمكنك أن تخدم بلادك من دون أن يكون لديك ذلك النوع من الفهم.

كان الجنود والضباط يحاولون أن يقوموا بعمل في ظروف شديدة الصعوبة، وعلى الرغم من أنهم كانوا أحياناً لا يوافقون على الأوامر التي يتلقونها من السياسيين فقد كانوا يبذلون وسعهم دوماً. ولا أحد يستمتع بالحرب، ولاسيما غير العسكريين. عندما يتعين عليك كتابة رسالة – لقد مات زوجك ميتة بطولية في ظروف كذا وكذا – فإنك تعلم ما هي ماهية الحرب. لقد كنت مسؤولاً عن 1100 رجل، وكانوا يعملون في مناطق نائية. ونائبي – وهو عقيد متميز – قتل، وكانت كتابة رسالة إلى زوجته مهمة محبِطة.

إن خير طريق لكسب احترام العسكريين، يكون بأن تجازف بحياتك؛ لكي تبقى وتحكي القصة. في عام 1970، وصلتني تقارير بأنه تم تطويق الدبابات الأمريكية في منطقة كوانج تري في أقصى الشمال الشرقي من فيتنام الجنوبية. كانت الدبابات في طريق العودة من لاوس؛ حيث كانت قد نفذت للتوّ عملية عسكرية. وحالما عبرت الحدود أخذت على حين غرة عندما بدأت القوات الفيتنامية الشمالية تطاردها. وعندما يتم تطويق الدبابات وتصبح مهددة بتدميرها، فإن غريزة البقاء تدفع الجنود إلى مغادرة مركباتهم والجري إلى خطوط صديقة على أمل إنقاذ أرواحهم، وذلك بالضبط ما فعله هؤلاء الجنود.

تصادف أن كنت في المنطقة الآمنة عندما جاء الجنود يجرون عائدين، وأمر العميد الأمريكي هناك القوات بالعودة وإعادة دباباتهم لئلا يأخذها العدو، فأجابت القوات في الواقع: «نتحداك يا جنرال، اذهب أنت وأحضر الدبابات!» رسب الجنرال في امتحان القيادة الأساسي. ما كان ينبغي أن يقوله هو «اذهبوا معي، أيها الرجال، وسوف أعيد دباباتكم». إن القائد الجيد يُري الجنود الطريق إلى مهمة خطيرة، ولا يكتفي بدفع جنوده إلى مهمات خطيرة. في إحدى المراحل في إبريل من عام 1972، اجتاح الفيتناميون الشماليون مقاطعة كوانج تري تماماً، وفي أثناء الاجتياح كانوا قد طوقوا العاصمة الإقليمية؛ حيث كان المستشارون الأمريكيون يتجمعون منتظرين الإنقاذ؛ وللحيلولة دون أسرهم، قررت أن أطير بالمروحية المخصصة لي إلى مدينة كوانج تري، وإنقاذ من استطعت إنقاذهم من الأمريكيين، وتمكنت من القيام بثلاث رحلات أو أربع من دانانج إلى مدينة كوانج تري، وفي كل مرة كانت المروحية تأخذ سبعة أشخاص أو ثمانية. وفي رحلتي الأخيرة، بينما كنا نقلع مع القنصل الأمريكي فريد براون، تم إسقاطنا فوق الطريق العام "رقم واحد"، على بعد 15 كيلومتراً إلى الجنوب من مدينة كوانج تري. ولحسن الحظ، أصابت طلقة البندقية خط الزيت لا خط الغاز، ولولا ذلك لما كنت هنا لأروي القصة؛ لأن المروحية كانت عندئذٍ ستنفجر. سقطت مروحيتنا على الأرض بشدة، مثل كيس بطاطا. كنا مصعوقين من الخوف، فأرسلنا نداء استغاثة؛ ما جعل مروحية أخرى تطير إلينا تحت النيران لإنقاذنا، فالتقطتنا وارتفعت بنا وطارت بنا إلى منشأة قرب هيو.

سألت القوات المسلحة الأمريكية هناك إذا ما كان بإمكان الفيتناميين الجنوبيين إعطاؤنا بعض الدبابات لكي نستطيع محاولة إنقاذ المستشارين الأمريكيين الذين كنت مسؤولاً عنهم، غير أن ذلك لم يعد ذا جدوى. وبعد نحو أربع وعشرين ساعة طار الجنرال هدسون من القوات الجوية الأمريكية إلى دانانج؛ حيث قام بعملية إنقاذ للأمريكيين الخمسين الباقين، مع فيتناميين جنوبيين كانوا يقاتلون قوات الشمال، من مدينة كوانج تري المحاصرة. وبعد مقدار معين من القصف الكثيف بالطائرات الأمريكية لإبقاء العدو مكبوحاً طار طيارو المروحيات إلى هناك، وتم تنفيذ العملية بكاملها ليلاً، بينما كانت دبابات الفيتناميين الشماليين تهاجم المنشأة. كان الجو شديد الحرارة؛ حتى إن الطيارين كانوا يطيرون بملابسهم الداخلية. حومت المروحية فوق موقع الإنقاذ فترة طويلة كانت كافية لكي يصعد الأشخاص على متنها. كنت أنا والعاملون معي في المطار نحيي المحظوظين الذين نجوا بأرواحهم.

سقطت مقاطعة كوانج تري في أيدي فيتنام الشمالية في إبريل 1972. وقد أخبرني القائد الجنرال فريدريك وياند بقوله: «جون، لن تعود إلى أن يستعيد الفيتناميون الجنوبيون المقاطعة»؛ وهو الأمر الذي فعلوه في نهاية المطاف.

إن أفضل طريقة لوصف الفترة التي قضيتها في فيتنام بالقول إنني كنت معارضاً وفياً. وفي أثناء الوقت الذي أمضيته في الميدان، رأيت زواراً لا تحصى أعدادهم من الولايات المتحدة الذين كانوا يحاولون فهم الدور الأمريكي في الحرب. جاء السيناتور فرانك تشيرتش والنائب بيت ماكلوسكي عام 1972 وسألاني عن رأيي في برنامج فينكس، وهو خطة للسي آي إيه تم وضعها عام 1967 مكّنت الولايات المتحدة من اختطاف الفيتكونج واستجوابهم وربما اغتيالهم، فأخبرت تشيرتش وماكلوسكي رأيي، محاولاً ألا أطعن في الأشخاص العسكريين أو رجال الاستخبارات الذين كانوا يصارعون في مهمة بالغة الصعوبة. ومع ذلك أوضحت أن البرنامج انتهك قواعد القانون الدولي وقد شوه سمعة أمريكا الطيبة. لم أكن سعيداً بالإجراءات القانونية الملفقة. لم تكن لدي مشكلة في السعي

لاجتثاث من أمكن من الفيتكونج، ولكن كانت لدي مشكلة بالفعل في استخدام أسلوب قانوني زائف للتخلص منهم. لم تكن عملية عسكرية، بل المسألة تتعلق بكيفية خوضك الحرب. أليس ثمة بعض القواعد التي ينبغي أن تعيش بموجبها؟ أو أن مجرد تكوين أعداء يمنحك تفويضاً مطلقاً للقضاء عليهم كما تراه مناسباً؟ أنا لا أرى ذلك. هذه قضية لن تنتهي. وفي صراع ما بعد الحادي عشر من سبتمبر ضد الإرهاب، أقامت المؤسسة العسكرية الأمريكية معتقلات في خليج جوانتنامو بكوبا؛ «لمعالجة» المعتقلين كما تراه مناسباً. ولكن إن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد ترويج قيم الحرية والقانون، فهي بحاجة إلى أن تلتزم بالقانون، وعدم فعل ذلك ينعكس سلبياً على البلاد إجمالاً.

إن معظم الناس الذين عرفتهم في فيتنام لم يكونوا متملقين، وأحياناً كانت لدى الناس مجرد رؤى مختلفة حول ما كان يحدث؛ فكان بعضهم يرى أننا نحقق أهدافنا، بينما رأى آخرون أن الحرب لم تكن أكثر أهمية من أن نكون صادقين. غير أن معظم الناس كانوا يريدون معرفة الحقيقة والتعبير عنها، ضمن قيود عمليتنا، وكان من الصعب التعامل مع الوضع الكلي، وقد امتنع كثيرون عن استخلاص ملاحظاتهم، في حين كانت تقارير معاكسة تتدفق من أنحاء أخرى من البلاد.

من أكبر أهوال الحرب أن يتم اقتسام أعباء الموت والمعاناة بصورة غير عادلة. فهناك بضعة أشخاص في السلطة يقومون بصنع القرارات؛ ومن ثم فإن هناك أغلبية عظمى من الشعب عليهم أن يعيشوا مع العواقب.

كنت أحضر في الساعة السابعة من كل صباح إيجازاً للجنرالات في مقر القوات المسلحة الأمريكية في دانانج، وكان القائد يسأل عما كان يجري في المنطقة وما خططنا لفعله لتحسين الوضع؛ ولكي تحافظ على بقائك وتكون نافعاً يتعين عليك أن تعرف أكثر من رؤسائك؛ ولذلك كلفت العقيد الذي يعمل معي بأن يأتي إلى سكني عند الساعة السادسة ليوجز لي كل شيء حدث في اليوم والليلة السابقين. وكان يخبرني بكل شيء علمنا به

حتى أسماء الجنود المعنيين. كان يقول إن العدو اقتحم هذا المكان، وفقدنا فلاناً، وأصيب فلان بجروح، وفي الساعة 6:30 كنت أستقل سيارة وأذهب إلى مقري الآمن.

كان جزء من مهمتي يتمثل في تحليل كل حركة للقوات، وتسجيل كل إصابة حرب في المنطقة. كانت الرعاية التي أبدتها القوات المسلحة الأمريكية لجنودها تثير إعجابي دائماً وتؤثر في نفسي. ولو تم إطلاق النار على ساقَيْ فتى من أركنساس، وقُتل شخص من نيويورك، لاعتنى بهما القادة العسكريون. فقد كانوا يرون بأعينهم ويسمعون بآذانهم أخبار التطورات في جميع أنحاء البلاد بصورة يومية، وكانوا يعدون كل جندي واحداً منهم.

أحياناً، كان اهتمام الأمريكيين بمن تحت رعايتهم يوجد غطاء واقياً يشوه رؤيتنا للحرب. كان الأمريكيون يملكون أفضل رعاية طبية وأحسن غذاء، ولم يوفروا أي تكاليف لإطعام الجندي الأمريكي وتجهيزه أو العناية به عندما يصاب بجراح أو يقتل. كما كان الضباط يظهرون تعاطفاً مذهلاً لأسرى ضحايا الحرب. ولكن الوجه الآخر لهذه العناية الفائقة لجنودنا هو، أحياناً، مجهولية الجندي الفيتنامي العادي أو أسرته. فقد كنا برعايتنا لجنودنا غالباً ما يفوتنا رؤية الفظائع التي يتعرض لها الفيتناميون الشماليون والجنوبيون معاً في بلادهم.

وأذكر أنني مررت بجبال من القمامة في غبش وقت السحر، وعندما وصلت سيارتي إلى المقر، كشفت مصابيحها الأمامية أشخاصاً متراكمين فوق القمامة بارتفاع ست أقدام يبحثون عن بقايا النقانق والهمبرجر والحلوى وأي شيء أمكنهم العثور عليه. كانت القمامة تأتي من قاعة المطعم، وتوضع هناك مع إدراك تام بأن عمال التنظيفات سينقبون فيها، وماتزال تلك الصورة المؤثرة تعاودني حتى هذا اليوم: بشر ينقبون في القمامة لكي يبقوا على قيد الحياة.

لقد شوه الغلاف العسكري الأمريكي فهمنا للأحداث في الميدان. وكثيراً ما كان المسؤولون في مقراتهم يفسرون ما يجري بصورة مختلفة عن الناس الموجودين على

الأرض. وكنا نخبر جنودنا بأننا كنا نحارب في سبيل قضية عظيمة، وأن الفيتكونج كانوا أشراراً، وأن القوات العسكرية الفيتنامية الجنوبية كانت تحرز تقدماً، بينما كنا نعلم غالباً أن الحال لم تكن كذلك. إن ما سماه كلاوزفيتز «ضباب الحرب» – الجنون المحير الذي يحدث في ميادين المعارك، والمختلف جداً عن الخطوط والأسهم المرسومة على الخرائط العسكرية – كان غالباً ما يتم صنعه عن قصد من خلال اللغة التي كان علينا استخدامها ليبقى رجالنا مركّزين على مهماتهم الخطيرة.

لكن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر؛ فقد كان هناك مستوى مختلف تماماً من اللاواقعية في واشنطن. وقد زودنا واشنطن بكتل من المعلومات حول ما كان يحدث في الميدان، غير أن واشنطن كان يعوزها الفهم الشامل الذي كانت تحتاج إليه لاتخاذ قرارات ذكية. ولا يُبدي معظم السياسيين اهتماماً كبيراً بتعقيدات السياسات ويقتربون أحياناً من الحرب – وأنواع أخرى من السياسة العامة – مثل لعبة كرة القدم. فهم يقررون من يلبس القمصان البيض ومن يلبس الحمر، ثم يعدلون الحقائق لتتلاءم مع أفكارهم بشأن الجانبين. عندما كنا نترك بقايا الطعام في أكوام القمامة للناس ليلتقطوها، كان ثمة دوافع إنسانية تنشط هناك، ولكن تلك الدوافع تبددت عندما ذهب «الخبراء الاستراتيجيون»؛ للعمل في واشنطن.

لقد اتخذ خدر الروح الإنسانية الذي حدث في تلك الظروف أشكالاً مفرطة، ولاسيما عند البعد نوعاً ما عن الميدان. فقد استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية العامل البرتقالي (Agent Orange محلول كيميائي) لتعرية الأشجار في طريق هوشي منه من أوراقها. لم نكن نفكر كثيراً في العواقب البعيدة الأمد التي كانت وخيمة. فقد رشحت المواد الكيماوية إلى مصادر المياه الجوفية وسممت الأسماك والغذاء. وقد ولدت أجيال جديدة بعيوب خلقية منذ الولادة. كذلك كان لقنابل النابالم آثار مدمرة. مَن بإمكانه أن ينسى أبداً صورة الفتاة الفيتنامية وهي تجري وتصرخ من قنابل النابالم؟ كما قامت الولايات المتحدة أيضاً بزرع الألغام في سائر أراضي فيتنام، وحتى هذا اليوم يفقد الناس أرجلهم بسبب الألغام في الحقول. وينطبق هذا بصورة خاصة على كمبوديا.

وفي فيتنام، كان هناك مستشار عسكري ضمن العاملين لدي، وهو نقيب بحري شارك في عمليات عدة عبر الحدود داخل لاوس. وفي إحدى الغارات أصيب في طرق هوشي منه بينما كانت الطائرات الأمريكية تلقي المواد الكيماوية المعرية للأشجار فوق الغابة. وقد مرض في دانانج. وعندما تم تعييني بعد ثلاث سنوات سفيراً للولايات المتحدة لدى الدنمارك تم تعيينه ملحقاً بحرياً بعد أن بلغ رتبة رائد. وفي عام 1989، عندما شاركت في ألعاب الحرب العالمية في نيوبورت بجزيرة رودس قابلت صديقي مرة أخرى. في ذلك الوقت كان عقيداً عاملاً ضمن أركان الكلية الحربية البحرية، وبعد ذلك بوقت قصير توفي بسبب التسمم بالعامل البرتقالي.

حانت إحدى أبهج اللحظات في فيتنام عندما استطعت حماية الكنوز الثقافية العظيمة في فيتنام. ففي أواخر عام 1971 أعلمتني وزارة الخارجية بأن الرئيس نيكسون أمر القوات المسلحة الأمريكية بحماية متحف تشام في دانانج. كان المتحف فريداً من نوعه. فقد بناه علماء الآثار الفرنسيون في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بعد اكتشاف قطع فنية تحت الأرض في وسط فيتنام، وآثار قرميدية وحجرية في المنطقة نفسها.

كانت القطع التي اكتشفها علماء الآثار من البرونز والفخار والفضة والذهب والحجارة، وتعود تواريخها إلى الفترة من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر عندما كان ملوك تشام يحكمون وسط فيتنام. كان شعب تشام يشتغلون بصناعة البحر، وقد جاءوا من الشرق بالسفن، ربما من بولينيزيا؛ ومن ثم فقد كانوا ناقلين للثقافة الهندية، الهندوسية والبوذية معاً. وقد استقروا في السهول الساحلية في وسط فيتنام، وأصبحت مملكة تشامبا منافساً عظيماً لإمبراطورية الخمير إلى الغرب. وقد صور معلم أنجكور وات العظيم بالحجارة فتيات تشام الرشيقات النواهد، وهن يرقصن أمام مليكهن.

كان الفرنسيون قد تواصلوا مع المؤسسة العسكرية الأمريكية في أواخر ستينيات القرن الماضي للمساعدة على حماية متحف تشام في دانانج وأطلال المعابد العديدة في وسط فيتنام، ولكن من دون جدوى. وفي بداية السبعينيات كتب أمين المتحف في باريس، فيليب

ستيرن - الذي لعب دوراً في بناء متحف دانانج - رسالة إلى الرئيس نيكسون، ملتمساً منه الحماية الأمريكية لهذا التراث الفني الثمين من ماضي فيتنام، ورد عليه نيكسون بالإيجاب، وأرسل توجيهات إلى القوات المسلحة الأمريكية في سايجون لحماية متحف تشام، وهم أعلموني بمهمتي، وهي حماية متحف تشام في دانانج، فطلبت إلى القوات العسكرية الفيتنامية الجنوبية تكليف جنود بالسكنى في المتحف، فشغلوا المبنى. وعندما انسحبت الولايات المتحدة من فيتنام عام 1975، لم تكن أي قطعة في المتحف مفقودة. وللأسف قام الجنود وغيرهم بنهب المعابد في المناطق المجاورة. فقد رأى الناس الكنوز القديمة ولم يترددوا في سرقة قطع لبيعها لأي مشترين راغبين فيها. ومع بداية القرن الحادي والعشرين أصبح المتحف في دانانج الوجهة الرئيسية للسياح في فيتنام.

في أكتوبر 2005، تم تنظيم أول معرض لمحتويات متحف تشام خارج فيتنام في باريس، وحضر الافتتاح وزراء من فيتنام وفرنسا، وقد تمت دعوتي إليه أيضاً. وقد تضمن دليل هذا المعرض المرموق، في الصفحة 22، الفقرة الآتية:

> إن السفير جون جونتر دين، الذي كان في الفترة 1970-1972 نائباً للقائد الأمريكي للفيلق الرابع والعشرين ومركزه دانانج، مايزال يذكر الطلب المرسل مباشرة من فيليب ستيرن إلى الرئيس نيكسون لحماية المتحف في دانانج وآثار تشام في المنطقة. وبفضل التعليمات المرسلة من البيت الأبيض رداً على المبادرة، استفاد متحف تشام من الحماية العسكرية التي جنبته النهب في أثناء هذه الأوقات المضطربة. وقد أصبح أحد المستشارين الأمريكيين العاملين لدى محافظ دانانج الفيتنامي، كارل هيفلي، مولعاً بالفن التشامي، ونشر في عام 1972 كتيباً مخصصاً لمقتنيات المتحف. وفي الوقت الذي تحتفل فيتنام فيه بالذكرى الثلاثين لتحريرها، من المناسب أن نتذكر جهد الذين بذلوا وسعهم سعياً للمحافظة على هذا الإرث الثقافي النادر في أثناء سنوات الحرب الرهيبة التي ميزت تاريخ فيتنام خلال القرن العشرين.

ويورد دليل متحف تشام النقطة نفسها في ست لغات مختلفة. ومن الباعث على الارتياح معرفة أن الفيتناميين - بعد ثلاثين عاماً من الانسحاب الأمريكي من فيتنام - يذكرون على الأقل جانباً إيجابياً واحداً للوجود الأمريكي في الهند الصينية.

ومنذ بداية خدمتي مع دعم العمليات المدنية والتنمية الثورية، كان لدي شعور غير مريح بأنه لا يمكن الولايات المتحدة وفيتنام كسب الحرب عسكرياً. وقد أصاب الإنهاك وخيبة الأمل شعب فيتنام الجنوبية؛ إذ رأوا آباءهم وإخوانهم وأصدقاءهم يُقتلون في الحرب ضد الفرنسيين والحرب بمشاركة الأمريكيين معاً. نحن في الولايات المتحدة الأمريكية لا نرجع بتفكيرنا إلا إلى اشتباكنا في فيتنام، أما بالنسبة إلى الفيتناميين فإن الحرب تعود إلى أكثر من ثلاثين عاماً. هل كانوا يقاتلون للمحافظة على الحكم في فيتنام الجنوبية الذي - علاوة على عدم كفاءته - كان يعتمد على غرباء من أجل المساعدات العسكرية؟ لا، بل كانوا يقاتلون لمنع فيتنام الشمالية من الاستيلاء على فيتنام الجنوبية، ولكن في نظر معظم الناس كانت بلداً واحداً. وكان الفيتكونج منتشرين في جميع أنحاء فيتنام الجنوبية على أي حال، وهم كانوا هناك ليبقوا. وقد تعب الناس في الشمال، أيضاً، ولكنهم كانوا يقاتلون برؤية وطاقة قوميتين.

في المحصلة النهائية، يعد الشعب الفيتنامي مشابهاً إلى حد بعيد للأمريكيين أو الفرنسيين أو السلفادوريين. فالرجل العادي لديه زوجة وعائلة، ولا يود إلا أن يعيش حياته، ويأتي بالغذاء لبيته، ويعلّم أولاده، ومهما كانت الأخطار التي كان يهدد الفيتناميون الشماليون بها، فقد كان الفيتنامي الجنوبي العادي يشعر أنه عالق في الوسط.

ومهما فعل ليندون جونسون، ومهما فعل ريتشارد نيكسون، فقد كان مقدراً للحرب أن تأخذ مساراً سيئاً. والسؤال الذي كان على كلا الرئيسين أن يسألاه في نهاية المطاف، هو كيف يصنعان السلام - والكرامة - من الحرب التي لا تحظى بشعبية ولا يمكن الفوز بها؟

قبل اختتام الفصل حول فيتنام، أود الحديث للحظة سريعة عن الكيفية التي كانت عائلتي تنظر بها إلى خدمتي. في سبعينيات القرن الماضي، كانت فيتنام قد أصبحت قضية داخل الأسر الأمريكية. كان أبناء الجيل الأصغر سناً في الغالب يحملون أفكاراً مختلفة عن آبائهم، وعندما ذهبت إلى فيتنام مع القوات المسلحة عام 1970، كنا نعيش في مدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس، وكلما حدثت مظاهرات ضد حرب فيتنام أو تمت إقامة صلوات المساء في كمبردج كان أطفالي وزوجتي يقفون إلى جانبي. وعندما غادرت إلى فيتنام قال أولادي: «إن شارك والدي فلا يمكن أن يكون الأمر كله سيئاً»، ولم يشاركوا في المظاهرات مع زملائهم الطلاب. وأنا أبقى ممتناً لهم على ثقتهم بي، وإتاحة الفرصة لي لأقوم بالمهمة التي طلبها مني بلدي.

لكن الخدمة في فيتنام لم تكن خالية من المخاطر. كنت أراسل زوجتي، مارتين، من خلال إرسال أشرطة إليها، وكانت ترد بواسطة الرسائل. وفي أحد الأشرطة، وهو الذي احتفظت به، رويت لها ما كنت أفعله خلال الأيام القليلة السابقة عندما صدر فجأة صوت خبطة في الشريط. كان شخص يمر بجوار بيتي، ورأى النافذة المفتوحة، فحاول إلقاء قنبلة يدوية إلى داخل غرفة النوم؛ حيث كنت أقوم بالتسجيل. ولحسن الحظ! كانت الستائر مسدلة، فمنعت القنبلة من أن تصل إلى هدفها. وأعتقد أنه لم يكن ثمة أمر شخصي، ولكن ذلك أكد لي أن بعض الفيتناميين كانوا يتصورون أن الأمريكيين، مهما كانوا حسني النية، فإنما هم دخلاء؛ ولذا عارضوا وجودهم.

أشك في أنني أخبرت مارتين إلا بعد مدة من إتمام جولتي لأداء الواجب في فيتنام، بأنني تعرضت لإطلاق نار وإسقاط مروحيتي في إبريل عام 1972، قرب مدينة كوانج تري، في أثناء محاولتي إنقاذ مستشارين أمريكيين كانوا يخدمون تحت إمرتي؛ وإلا فإنها كانت شعرت بقلق أكبر مما شعرت به من قبل بشأن وجودي في فيتنام في أثناء الحرب. وهي كذلك كانت تخفي الأخبار السيئة عني؛ إذ لم تكن تريدني أن أقلق؛ حتى أستطيع التركيز على عملي والعناية بأمني. وعندما هبطت في مطار لوجان ببوسطن في صيف عام

1972، بعد غياب أكثر من عامين في فيتنام، كانت مـارتين في المطـار مـع أولادي الثلاثـة، وكانت ماتزال في كرسي متحرك، تتعافى من كسـر في ساقها. والآن بعد مرور خمسين عامـاً على زواجنا، مازلت ممتناً لزوجتي وأولادي؛ لأنهم كانوا دائماً يدعمونني في تصميمي عـلى خدمة بلدي، حيثما كانت هذه الخدمة.

الفصل الخامس

حرب، سلام، انقلاب، سلام

ثمة خيط رفيع يفصل أحياناً بين الحرب والسِّلم. وإن كون الشعب يقاتل أو يفاوض يمكن أن يتوقف على شيء بسيط مثل خطبة، أو إطلاق نار، أو مبادرة دبلوماسية من خلال القنوات الخلفية، أو ملل قائد من الحرب، أو رغبته في صنع اسم لنفسه.

إن الفرق بين الحرب والسلم يكمن عادة في الفرق بين الخوف والرجاء، ويعتمد ذلك الفرق غالباً على قدرة الشعب على تجنب إبداء رد الفعل ببساطة على آخر تهديد، والقيام بدلاً من ذلك بجمع عناصر التعاون بصبر. قد يتصرف الناس الخائفون من دون تفكير في العواقب على المدى الطويل، ولكن من خلال الرجاء والأمل في أن ينفعهم السلم يستطيع الناس إبداء شجاعة خارقة.

عندما بعثت وزارة الخارجية بي إلى لاوس عام 1972، لم يكن ثمة سبب مباشر وحقيقي للاعتقاد أنه يمكن لاتفاق سلام أن يجسر الهوة بين الطرفين المتحاربين الرئيسيين. كان الجيش الملكي اللاوسي يقاتل باثيت لاو Pathet Lao، وهي حركة المقاومة الشيوعية، مدة زادت على عشر سنوات. كان الصراع مرّاً ودموياً. ومن وجهة نظر صانع السلام، كان ثمة القليل من الأرضية المشتركة بين الطرفين، وقد بدا مؤكداً أن خطابها الأيديولوجي يحول بينهما وبين الانخراط في أي مفاوضات بنّاءة لأجل السلام.

كان خطاب حكومة الأمير سوفانا فوما يركز على المحافظة على شرعية الحكم الملكي الذي اعترفت به جميع أمم الأرض تقريباً، وفوق ذلك كان الأمير سوفانا فوما، المهندس الجيد الثقافة والمدرَّب فرنسياً، حريصاً على إيجاد مخرج من كونه مجرد بيدق في الصراع ضد الشيوعية الذي تتبعه الولايات المتحدة الأمريكية في الهند الصينية.

زعم الباثيت لاو أن اتفاقات جنيف عام 1954 قد اعترفت بهم كجماعة معارضة شرعية، وأن الحكم الملكي لم يدافع عن مصلحة «الشعب الصغير». كذلك انتقد الباثيت لاو القوات المسلحة الملكية اللاوسية وصلاتها بالسياسة الأمريكية في الهند الصينية التي كان يعتقد أنها تهدد قدرة لاوس دائماً على أن تنعم بالسلام مع جارات؛ مثل كمبوديا وفيتنام، وزعموا أنه لن يمنح لاوس الفرصة الثانية التي تحتاج إليها لإرساء الرخاء في الوطن والأمن في الخارج إلا تغيير تكوين الحكومة القائمة.

وحتى العلاقة التي قد يبدو أنها توجد إمكانيات إجراء حوار - أي أواصر الدم التي تجمع بين رئيس الحكومة، الأمير سوفانا فوما، ورئيس المقاومة، الأمير سوفانو فونج - بدا أنها لم تفعل إلا ما يسمم الوضع.

ولا بد للبدء في فهم لاوس من الذهاب إلى فينتيان، العاصمة الإدارية للدولة. عندما خدمت أول مرة في لاوس في خمسينيات القرن الماضي، لم يكن يوجد في فينتيان إلا بضعة شوارع معبدة، وكان عدد السيارات الخاصة بالعشرات، ومن المؤكد أنها لم تبلغ المائة. وكان السير في الشارع مثل السير في فيلم تم تمثيله في قرية خيالية. وكان أبرز معالم المدينة هو «ذات لونج»، وهو مزار ديني بوذي قديم جميل، يمكن رؤية برجه المذهب من بعيد. ولم تشهد فينتيان تغيراً كبيراً عبر ستة عشر عاماً مرت عليها إلا في زيادة عدد السيارات كثيراً.

كانت الشوارع توحي لك بالإحساس بالكبت والخفوت، من خلال أصوات الأجراس والترانيم والهمسات. وكان الرّهبان البوذيون يسيرون على طول الشارع، يتبعهم مساعدوهم، أما الأوروبيون فكانوا يجلسون في مطاعم صغيرة، يتحدثون بهدوء. كانت محلات صغيرة تبيع السمك والأرز والعطور والملح والأزهار والملابس والنبيذ. وكانت الحركة في معظمها تتم على نهر الميكونج الذي يمثل حدود لاوس الغربية. وكان الميكونج بمنزلة الطريق العامة الرئيسية في لاوس؛ حيث تنقل الناس من مدينة إلى أخرى، والبضائع إلى السوق، والإرساليات من أوروبا وأمريكا، والحرب من الدول

المجاورة؛ مثل فيتنام وكمبوديا. وكان معظم اللاوسيين يعيشون في قرى صغيرة مجاورة لمجرى النهر.

كانت الحياة الاقتصادية في لاوس بسيطة جداً؛ فقد كان نهر الميكونج مملوءاً بالأسماك، والأشجار حافلة بالثمار. ولم يكن مزارعو الأرز يحتاجون إلى العناية بحقولهم إلا أربعة شهور أو خمسة في العام؛ لكي تدر عليهم محصولاً كبيراً يكفي العام كله. كانت لاوس تبدو أبعد ما تكون عن العوالم الأيديولوجية للقوى العظمى: المُثُل العليا الأمريكية المتمثلة في الكفاح الرأسمالي الفردي الدائم، والمثل الشيوعية المتمثلة في الصراع الجماعي للتغلب على الفقر وعلى مهانات الرأسمالية، غير أن صراعهم جعل جنوب شرقي آسيا مربعات على رقعة الشطرنج العالمية.

كان اللاوسيون يحملون نظرة أكثر بساطة للحياة، وهي نموذج مستمد من فلسفة جان جاك روسو حول الاكتفاء الذاتي البسيط الذي لم تعده أي من الأيديولوجيتين العالميتين حديثاً. وفي قلب هذه الحياة البسيطة، كانت أفكار البوذية العميقة، هي الدين الوطني. وفيما عدا الشعوب القبلية التي تعيش في أعالي الجبال، بعيداً عن وادي ميكونج، نجد أن نظام الحياة البوذي كان موجوداً في كل جانب من جوانب الحياة اللاوسية. والحياة الناعمة البطيئة التي يعدها الغربيون حياة دعة وكسل كانت في الواقع جزءاً من التركيز البوذي على العيش في اللحظة الحاضرة. وخلافاً لأحلام العظمة التي حملها كثير من الغربيين – وهو الحديث الدائم عن التنافس والقوة – كان اللاوسيون يفهمون أنفسهم بأنها لا تعدو أن تكون ذرات في كون فسيح، ولكنها الذرات التي تحوي في داخلها الكون بكامله. كانت أعمال إحسان لطيفة – كأعمال متواضعة؛ مثل شراء حيوانات صغيرة لتحريرها، وهو نوع من التحرير من العبودية – تضفي رونقها على البوذيين؛ ففهم العيش في اللحظة الراهنة يعود على المرء بكثير من التواضع الذي يساء فهمه على أنه إذعان. لقد كان اللاوسيون يقولون: «ليس هناك الكثير الذي يمكننا السيطرة عليه، وبعض الأمور لا يمكن تفاديها».

من المؤكد أنه لا يمكن تفادي الجغرافيا، فلاوس تقع في خضم الاضطرابات في جنوب شرقي آسيا، وهي كتلة من الجبال والهضاب التي تنحدر إلى النهر في محاذاة القرى التي يعيش فيها معظم الشعب. ولكي نفهم لاوس، فلنأخذ إقليماً يعادل ولايتي نيويورك وبنسلفانيا مجتمعتين، ونضغطه في هيئة سمندل طوله ألف ميل، ونحيطه بجيران يفتقرون إلى الاستقرار والمصداقية، فتايلند ونهر الميكونج يحدان لاوس من الغرب، وتحيط بها الصين من بقية الحدود الشمالية.

لقد جعل التاريخ الاستعماري من الصعب على لاوس أن تقف وحدها. لم تكن مملكة لان شان في القرن الرابع عشر تقتصر على لاوس الحالية، بل كانت تضم أيضاً جزءاً كبيراً من شمال تايلند الحالية. لكن تلك المملكة أصبحت مجزأة، وتم اجتياح لاوس منذ ذلك الوقت. في تلك الفترة استولى الفرنسيون على لاوس على هيئة محمية عام 1893، وكانت البلاد مقسمة إلى إقطاعيات عدة. وقامت اليابان بإعادة توحيد لاوس في الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب استأنف الفرنسيون السيطرة عليها، ولكنها سمحت لها عام 1947 بنطاق واسع من حرية التصرف لتمارس الحكم الذاتي تحت نظام الملكية الدستورية. وفي أثناء الحرب قامت تايلند بضم الأراضي اللاوسية الواقعة غرب نهر الميكونج، ولكن فرنسا اشترطت إعادة جميع الأراضي التي تم ضمها إلى تايلند لكي تقدم الدعم الفرنسي لكي تصبح تايلند أحد الأعضاء المؤسسين للأمم المتحدة.

كانت لاوس دائماً منطقة غير آمنة ومحصورة بين تايلند وفيتنام، وعندما بدأ الفيتكونج ما كانوا يعدونها حرباً قومية للاستقلال عن فرنسا، كان يتم استخدام لاوس غالباً منطقة تجمع للثوار. ومن بين الأسر البارزة في لاوس التي جسدت التصدعات المتزايدة في سياسات الدولة وجغرافيتها، أصبح سوفانا فوما رئيس وزراء لاوس، بينما أصبح أخوه غير الشقيق، سوفانو فونج، زعيم التمرد الشيوعي في لاوس.

عندما وصلت إلى لاوس عام 1972، سألني السفير الجنرال ماكميرتي جودلي قائلاً: «هل تختار الحرب أم السلام؟».

إن ممارسة الشؤون الخارجية تتطلب غالباً أسلوبين: القوة والدبلوماسية. وحتى عندما تكون الدول في حالة السلم، فإن إمكانية الحرب تتطلب إعداد نفسها عسكرياً. ولكننا في ذلك الوقت كنا منخرطين كثيراً في الحرب ضد التمرد في لاوس؛ وكوننا في حالة حرب كان ذلك يتطلب قرارات يومية بشأن أين نلقي القنابل وإلى أين نحرك القوات. ولو كنت أرغب لكنت من بين أفراد الفريق الذين كانوا يقررون الأهداف التي سيتم قصفها في الغارات الجوية.

وبقدر ما أحترم المؤسسة العسكرية، لم يكن لي في لاوس اهتمام في جانب الشؤون الخارجية، بل كان اهتمامي في إيجاد سبل لجعل الخصوم يتفاوضون مع بعضهم بعضاً. كنت أريد أن يفهم جميع أطراف النزاع أن مصالحهم في نهاية الأمر تكمن في إيجاد طريق لإنهاء الحرب، وأنهم إن لم يحصلوا على كل ما يريدونه فسوف يكونون فائزين إن حصلوا على بعض ما يريدونه.

ولذلك كان جوابي لماك جودلي آلياً: «أختار السلام».

كان أحد أهم الأمريكيين العاملين معنا في لاوس، هو العميد جاك فيسي، وكان موقعه في قاعدة أودورن في شمال تايلند، ولكنه كان يأتي بانتظام إلى فينتيان للاجتماع مع السفارة. كان جاك مسؤولاً عن دعم القوات المسلحة اللاوسية الملكية بالمعدات العسكرية والمشورة والأموال.

أصبح فيسي صديقاً، وفي كثير من الأحيان، كنا نناقش الانخراط الأمريكي في فيتنام، وهل أن المكان مناسب والوقت ملائم لمقاومة التوسع الشيوعي. كان رجلاً كثير التفكير، شديد الاحترام للآخرين، أمريكيين وأجانب معاً. وكان مهتماً بتعلم المزيد عن الثقافات الأجنبية ومعرفة ما الذي كان يصنعه الأعداء. كان جاك قد قُلد رتبة ملازم على شواطئ الإبرار في جنوب إيطاليا، وأنهى حياته المهنية جنرالاً بـ (4) نجوم ورئيساً للأركان المشتركة في عهد الرئيس ريجان.

سافرت ذات مرة مع فيسي إلى سهول الجارز شمال لاوس لتفقد القوات الصديقة، وفجأة تعرضنا لهجوم بالمدفعية الثقيلة من ثوار باثيت لاو. ومن دون تردد قفزنا كلانا في خندق والتصقنا ببعضنا بعضاً؛ حرصاً على الحياة، بانتظار نهاية الهجوم. كانت سهول الجارز وادياً واسعاً يتحكم في مدخل المرتفعات التي يسيطر عليها ثوار باثيت لاو والطريق الموصلة إلى الشريط الساحلي على طول نهر الميكونج الذي تسيطر عليه القوات المسلحة اللاوسية الملكية.

أظهر الهجوم أن القوات المعادية كانت تملك أسلحة تصلها من الصينيين أو الفيتناميين، وكانوا مستعدين للقتال. وكان إلحاق الهزيمة بهم سيتطلب الكثير من الأسلحة والرجال والوقت. وإن كسبنا الحرب فماذا سيكون لدينا؟ عدو حاقد مايزال من دون حصة في نجاح الحكومة، ويشعر بالنفور من الحكومة والعديد من سكان البلاد. لم تكن الخسارة خياراً، ولكن النصر الساحق لم يكن يبدو واعداً كخيار أيضاً.

عندما سافرت مع فيسي تحدثنا طويلاً عن أهمية الصراع العسكري في لاوس، وتساءلنا: هل كنا على الصراط القويم؟ كان فيسي جزءاً من المؤسسة العسكرية، ولكنه كان ذا عقل مستقل. وكانت لديه صفة أعجبتُ بها أكثر من غيرها لدى الموظفين الحكوميين، سواء كانوا عسكريين أو دبلوماسيين أو سياسيين؛ وهي الاستعداد لتوجيه الأسئلة المناسبة. هل نفعل الشيء الصحيح؟ وهل نفعله بالطريقة الصحيحة؟ كنت أنا وفيسي، وأعداد أخرى لا تحصى ممن تورطوا في الصراع في سائر أنحاء جنوب شرقي آسيا، ندعم ما يأمرنا رؤساؤنا بفعله، ولكننا كنا أيضاً نوجه الأسئلة.

كان أهم سؤال في السياق الجيوسياسي للحرب الباردة هو: إذا ما كانت لاوس «دومينو» و«سقطت» بيد الشيوعيين، فماذا سيحدث؟ هل ستصبح الدول المجاورة: فيتنام وكمبوديا وتايلند ودول أخرى في المنطقة أيضاً، شيوعية؟ كنت أنا وفيسي متشككين، وكنت أنا؛ مثل فيسي، أعتقد أن الشعب يملك القوة على صوغ شكل مستقبله. ليس ثمة شيء آلي، وليست ثمة توجهات مطلقة أو غير قابلة للتحول. إن قرار الشعب أن يقوم

بمهمة السلام الشاقة، يمكن أن يُحدث الفرق ويصنع التميز. ويتحدث الأكاديميون عن القوة التي يمتلكها الشعب للتأثير في حظوظهم وفرصهم. وحتى في أحلك الظروف – ميدان المعركة، ومعسكرات الاعتقال، وكونهم جزءاً من الأقليات المهانة – كان الشعب يملك القدرة على اتخاذ قرار أن يتصرف باستقلالية. وعلى الرغم من أن مثل هذه التصرفات يمكن أن تكون مقيدة، فإن كل قرار شجاع وسليم يغير السياق بكامله.

إني أؤمن في أعماقي بأن السلام يعد خياراً على الدوام، وكنت دوماً أفضل حلاً تفاوضياً، لا في لاوس فحسب، بل حيثما كان الصراع يهدد بتدمير الشعب والمجتمعات. إن السلام يتطلب العمل الجاد – عملاً طاحناً، معقداً، متلفاً للأعصاب، وأحياناً من دون جزاء ولا شكر – ولكنه يكاد يكون ممكناً على الدوام.

إذا كنت تسعى وراء السلام، فعليك أن تثبت وجودك للناس المسؤولين عن الحرب. لقد كنت في مناطق الحرب معظم حياتي، وكنت أعتقد دائماً أن معظم الناس الذين يقاتلون في الحروب لا يحبونها مطلقاً. وعندما ينطلقون لخوض الحرب، فإنهم يفعلون ذلك بحماسة كبيرة، ولكنهم في معظمهم يفضلون خدمة قضية السلام. وأولئك الذين يقاتلون يرون، أكثر من أي شخص آخر، معاناة القرى والأسر، والدمار الذي يصيب الصناعة والبنية التحتية، ودمار البيئة والثقافة، والإحساس المطلق بانعدام الأمل الناجم عن الحرب. وعلى الرغم من أن معظم العسكريين يكرهون الحرب، فإنهم مفرغون لتنفيذ أوامر الرؤساء والجنرالات. فهم يريدون أن يقاتلوا، ويقاتلوا بشدة؛ لأنهم يريدون أن تنتهي الحرب بالسرعة الممكنة.

ولذلك، إن كنتَ رجل سلام فإنك تحتاج إلى أن تثبت للعسكريين والعسكريات أنك صلب وملتزم بقدر ما هم ملتزمون بقيم الوطن وقيم الخدمة. والسبيل إلى نيل إعجاب العسكريين هي النهوض باكراً قبلهم، والعمل بمقدار ضعف ما يعملونه، وتعريض نفسك للأخطار، وألا تتردد. وعندئذٍ سيستمعون إليك.

وبعد أن استقر الأمر بي في عملي في لاوس، ما لبث رئيس الوزراء، سوفانا فوما، أن دعاني إلى القدوم إلى بيته للعب لعبة بريدج. كنت أنا ومارتين نعرف سوفانا فوما، ابن نائب ملك لاوس السابق، منذ أول قدومنا إلى لاوس قبل ذلك بستة عشر عاماً. وكان اثنان من أولاد سوفانا قد التحقوا بمدرسة داخلية مرموقة في فرنسا، وفي أثناء الإجازة الصيفية كان أولاده يقضون إجازتهم في مزرعة عائلة مارتين. وفي خمسينيات القرن الماضي وما بعد ذلك، كان السفر من فرنسا إلى لاوس مايزال طويلاً وباهظ التكلفة، ولذلك لم يكن الطلبة الصغار يعودون إلى بلدهم الأصلي مرات كثيرة. وكنا قد عرفنا زوجة سوفانا فوما الأولى كما نعرف زوجته الحالية عام 1972.

وحتى في الخمسينيات كنت قد وجدت أن سوفانا فوما يتحلى بكثير من الحكمة والميل إلى إبعاد لاوس عن المواجهة بين الولايات المتحدة والشيوعيين. وقد استفادت علاقتنا المهنية من تلك العلاقات الشخصية التي أقمناها عبر السنين. كان التواصل بيننا وديعاً ووديّاً، ومما عزز هذه الألفة كون سوفانا بغريزته وتعليمه أكثر ميلاً إلى القطاع المدني منه إلى العسكري.

كان الأمير سوفانا فوما يعيش في بيت حديث على الطراز الغربي كان قد بناه لنفسه في فينتيان. لم يكن سكناً مقدماً من الحكومة. فعلى الرغم من أن عائلة سوفانا فوما تنحدر من العاصمة الملكية لوانج برابنج؛ حيث كانوا يعيشون بطريقة ملكية، فإنه اعتمد أسلوب حياة غربي في فينتيان.

كنا نذهب أنا ومارتين إلى بيت سوفانا كصديقين. وكنا نلعب لعبة البريدج كل أسبوع تقريباً. لم أكن ماهراً في اللعبة، ولكنني كنت إلى حد كبير أتقن مجاراة أحاديث الثرثرة، ولدي حس بالمزاج السياسي لتلك الفترة، وأظهر انفتاحاً على أي حوار ممكن. وكنا نلعب إلى أن تصبح المغادرة أكثر لباقة: إن فاز سوفانا وكانت الساعة الواحدة صباحاً فإننا نغادر في الساعة الواحدة والربع؛ حيث نقف ونتثاءب ونعلن أننا نكره أن تنتهي أمسية رائعة، ولكن علينا أن نستيقظ باكراً للعمل في اليوم اللاحق، وأما إذا فاز سوفانا في

الساعة الحادية عشـرة إلا ربعاً ليلاً فإننـا نقـوم بـروتين الوقـوف والتمطـي نحـو السـاعة الحادية عشـرة.

كان سوفانا يعلم أنني شخـصياً كنت أدعم التسوية عبر المفاوضات، على الرغم مـن أن ذلك لم يكن هو موقف الحكومة الأمريكية. ولكن عندما رأيته في سياق اجتماعي، كنت أوضح دائماً الموقف الأمريكي الرسمي تجاه لاوس والهند الصينية؛ فقد كان مهـماً لرئيـس الوزراء أن يفهم كلا طرفي المعادلة، وفوق ذلك كله كنت دائماً أدعم حكومتي عـلى الـرغم من أي أفكار معاكسة قد تكون لدي حول كيف نسيطر في لاوس وجنوب شـرقي آسـيا. وإن كان أيضاً يفهم موقفي الشخـصي، فمن المرجح أن يبقى ذهنه هو منفتحاً على خيارات بصفته رئيـساً للحكومة.

كان ماك جودلي، السفير الذي أعمل معه، رجلاً ضخماً، ذا حضور طاغٍ كسـب ولاء عديدين، ولكنه سبب احتكاكاً أيضاً. وكـان يتمتـع بموقـف الواثـق بكيفيـة شـن حـرب وكسب السلام في لاوس. كان معروفاً باستخدامه للنشاطات شبه العسكرية في الكونجو؛ ومن ثم فقد سلك أسلوباً مماثلاً حيال الصـراع اللاوسي. وكان يتصـرف كأنه جنرال أكثر منه سفيراً؛ حيـث كـان ينسـق النشـاطات في لاوس كلهـا، ويسـتبعد خطـوات التمهيـد للمفاوضات لإنهاء الحرب. وقد نسق ماك مجموعة واسعة من القوى المعادية للشيوعية في لاوس، بمن فيهم بعض الأمريكيين وعشـرات آلاف رجال حرب العصابات اللاوسـيين والتايلنديين الذين يحاربون قوات الباثيت لاو والقوات الفيتنامية الشيوعية. وفي نهاية فترة تعيينه سفيراً أصبح في لاوس 300 ألف لاجئ في بلد عدد سـكانه 3 ملايـين نسـمة. فقـد نزح واحد من كل عشـرة بسبب الحرب.

أسهم ماك جودلي في التزام إدارة نيكسون بالقصف، وكان يفكر في أن قصف العـدو سيحقق النصـر في الحرب على الشـيوعيين. لم تكـن لـدى جـودلي مشـكلة في الطلـب إلى رئيـس الوزراء سوفانا فوما أن يطلب إلى الولايات المتحدة أن تقصف المراكـز العسـكرية الشيوعية في لاوس.

وبوصفي قد شاركت في فيتنام، فإنني عندما سمعت جنرالاً من القوات الجوية الأمريكية يدافع عن القصف المكثف للعدو، ساورتني الشكوك؛ فمنذ الحرب العالمية الثانية، ساد الاعتقاد بأن القصف الشديد يمكن أن «يضعف» دفاعات العدو. كانت الولايات المتحدة تستخدم الغارات الجوية في سائر الهند الصينية لشل البنية التحتية والطرق والمرافق العامة؛ من أجل فرض تعطيل افتراضي للحياة اليومية، غير أن الغارات لم تحقق هذا الغرض. قال أنصار الغارات الجوية إنها ستحقق غرضين: أولهما، أنها ستوجد دافعاً للعدو لكي يأتي إلى طاولة المساومة؛ وثانيهما، أنها تهيِّئ ظروفاً أفضل للهجمات الأرضية والاستيلاء على مناطق استراتيجية.

ولكن، لأسباب غالباً ما كانت تحير الجنرالات الأمريكيين، استمرت الحياة بقليل من التعطيل بعد الغارات. وبعد عقود من الحرب، تعلم اللاوسيون وغيرهم كيف يتوقعون الغارات، ويحمون أنفسهم في أثناء الغارات، ويعودون بعد ذلك إلى نشاطاتهم المعتادة. وفي أحوال عديدة كان يبدو أن غارات القصف كانت تزيد من قوة الأعداء من خلال لمّ شملهم ضد عدو مشترك، تماماً كما تم لمّ شمل البريطانيين ضد الغارات النازية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

في السفارة كان لدينا ضابط واجبه الرئيسي انتقاء الأهداف للقصف من القوات الجوية الأمريكية، وقد احتاج من أجل هذا الأمر إلى معلومات محدثة عن حركات قوات باثيت لاو، إضافة إلى آخر المعلومات الاستخباراتية عن المناطق التي تواجه فيها القوات المسلحة اللاوسية الملكية مشكلات؛ بسبب الأعداء. وقد عمل هذا الضابط عن قرب مع السفير جودلي الذي أبدى اهتماماً شخصياً بانتقاء الأهداف. ولاستعراض الأساليب المختلفة في معالجة مشكلة لاوس، أود أن أقفز بضعة أشهر وأروي كيف «تم تأنيبي رسمياً» من وزارة الخارجية بسبب المشورة للأمير سوفانا فوما بعدم طلب القصف من القوات الجوية الأمريكية على قوات باثيت لاو.

وبحلول صيف عام 1973، تم الاتفاق على وقف القصف في لاوس. لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم الطيران الأمريكي لقصف مواقع العدو في لاوس، ما لم يكن ثمة مسوغ معين؛ مثل طلب رئيس الوزراء شخصياً مثل هذه الضربة الجوية. وعندما ذهبت لأرى سوفانا فوما في صيف عام 1973 بشأن قضية تفاوضية، أخبرني أنه تم طرد القوات اللاوسية الملكية من إحدى الهضاب وحلت محلها قوات باثيت لاو. وسألني سوفانا: هل كان عليه أن يطلب ضربة جوية أمريكية على تلك الهضبة التي من المرجح أنها ستقتل معظم القوات العسكرية التابعة لباثيت لاو هناك؟ وهذا يمكن أن يسمح للجيش الملكي باستعادة الهضبة؛ «فبماذا توصي يا جون؟».

أجبت بأن حكومته كانت في خضم مفاوضات دبلوماسية مع باثيت لاو، وأن فرص تسوية من خلال التفاوض كانت واعدة، وإذا كانت الولايات المتحدة ستستجيب بصورة إيجابية لطلب رئيس الوزراء فسوف يفسر الباثيت لاو ذلك بأنه رغبة من الحكومة الملكية في تقويض المفاوضات بكاملها. وأضفت أنه علاوة على ذلك سوف يعود الباثيت لاو ويستولون على الهضبة نفسها إن كانوا مصممين فعلاً على الاحتفاظ بذلك الموقع. ومن هنا - بحسب رأيي - فلن أعرّض للخطر فرص نجاح المفاوضات التي يمكن أن تضع حداً للحرب بطلب تدخل القوات الجوية الأمريكية.

عندما أبلغتُ واشنطن بهذه المحادثة، تماماً كما أفعل هنا، تلقيت تأنيباً رسمياً. قيل لي كان ينبغي ألا أتخذ القرار بنفسي، بل كان يجب أن أقول لرئيس الوزراء إنني سأطلب التوجيه الرسمي من واشنطن. وليس بالأمر المهم لدى جماعتنا في الوطن أن يستغرق ذلك أربعاً وعشرين ساعة؛ ففي رأيهم أنه ليس من صلاحية الرجل في الميدان أن يتخذ ذلك القرار، بل من شأنه أن يكون مجرد مراسل ينقل السؤال إلى السلطات العليا في الوطن.

عندما ناقشت المسألة مع سوفانا فوما بعد أن توصل اللاوسيون إلى تسوية لخلافاتهم من خلال التفاوض، ذكّرني «بالنصيحة الجيدة» التي أعطيتها له، والتي ضمنت الأجواء المناسبة للجانبين اللاوسيين كليهما معاً؛ لكي تثمر المفاوضات. وفي واشنطن لم يكن رأي

الناس جميعاً واحداً. ومع ذلك فإن «التأنيب الرسمي»، لم يمنع الرئيس من تعييني سفيراً لدى كمبوديا بعد ذلك بخمسة شهور.

كان السؤال في الهند الصينية يتعلق بكيفية احتواء الشيوعية. لقد اعتقدت دائماً أن إقامة حكومة ائتلافية يعد أمراً جيداً بما فيه الكفاية لمنع الشيوعية من التأثير في مجتمعات بأكملها. ومادام هناك شيء يحقق التوازن مع الشيوعيين، فستتم حماية مصالح الولايات المتحدة. ومادام المجتمع يحتوي على مجموعة متنوعة من المؤسسات العاملة؛ مثل المحاكم، والجيش، والمدارس، والمستشفيات، والانتخابات بين آنٍ وآخر، والحريات القانونية والسياسية الأساسية، فسيكون أمام القيم الديمقراطية فرصة معقولة لأن تسود. وعندما يضطر الشيوعيون إلى المنافسة في معركة الأفكار، يصبح احتواؤهم ممكناً.

لم يوافق ماك جودلي على رأيي؛ فقد كان جزءاً من جيل الحرب الباردة الذي استخلص دروساً مرة من سياسة التهدئة التي طبقت في حقبة الحرب العالمية الثانية. فقد كان ماك، شأنه شأن عديدين آخرين، يساوي بين المفاوضات والاستسلام للجانب الآخر. وكان الاتفاق المشؤوم لتشامبرلين [رئيس الوزراء البريطاني] مع هتلر يخيم على الدبلوماسية في جميع أنحاء العالم. فإن استسلمت للمعارضة، فأنت مغفل، وإن تأخرت في الوقوف بنفسك فستجد نفسك في موقف أضعف مع مرور الوقت.

أرسلت قوات باثيت لاو عام 1971 وفداً برئاسة فومي فونجفيشيت Phoumi Vongvichit إلى فينتيان للتفاوض على وضع نهاية للحرب، وتشكيل حكومة ائتلاف في نهاية المطاف. وتولى التفاوض عن الحكومة فينج بونجسافان Pheng Pongsavan، رئيس الجمعية الوطنية اللاوسية. كنت أذهب لرؤية صديقي فينج بونجسافان كل ليلة تقريباً، وأسأل كيف تسير المفاوضات، وأقوم بتدوين ملاحظات. وعندما تنتهي هذه الجلسات، كنت أجتمع مع ديك هاولاند Dick Howland، رئيس الشعبة السياسية في السفارة الأمريكية، ونقوم بمراجعة جميع النقاط التفاوضية: من قدم تلك العروض؟ ومن سأل تلك الأسئلة؟ وكيف كانت استجابة الجانب الآخر، ثم نطبع ملخصات عن عمل اليوم

ونرسلها إلى واشنطن؟ كانت هذه المحادثات تتم ثلاث مرات أو أربعاً في الأسبوع. وكان العمل في المكتب ينتهي بالنسبة إلينا حوالي منتصف الليل.

كان المفاوضون اللاوسيون يعتقدون أن بإمكانهم أن يضعوا حداً للقتال، غير أن السفير جودلي كان في الواقع يعتقد أن حكومة ائتلافية لم تكن مرغوباً فيها.

قال لي جودلي: «جون، هذا لن يوصلنا إلى شيء. الشيء الحقيقي هو أن علينا أن نهزم الشيوعيين». كان يؤمن بعقيدة دالاس: أنت إما معنا وإما ضدنا.

ثم حدث تطور سياسي غيّر كل شيء. فقد رشح الرئيس نيكسون ماك جودلي لمنصب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأقصى، ولكن مجلس الشيوخ رفض ترشيحه، ويرجع ذلك عموماً إلى سجله في لاوس، فشغل فيما بعد منصب سفير الولايات المتحدة لدى لبنان.

جعلني رحيل ماك مسؤولاً عن السفارة الأمريكية في لاوس بوصفي قائماً بالأعمال. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أصبحت فيها مسؤولاً عن عملية كبيرة. كنت في العادة أعمل لدى شخص آخر، أما الآن فقد أصبحت في موقع المسؤولية.

أدركت أهمية المنصب الجديد على الفور؛ فتولي المسؤولية كان أمراً مثيراً نوعاً ما، بل شعرت أكثر من ذلك، بإحساس بالمسؤولية؛ فعندما تكون في موقع المسؤولية، يكون الأمر أكثر صعوبة من كونك الشخص: الثاني أو الثالث أو الرابع في السفارة. وكونك المسؤول السياسي الأعلى فهذا يختلف كثيراً عن كونك نائباً أعلى. لم أعد أشعر بأي ضغوط، وكنت أعتقد دائماً أنني أحظى بالدعم الذي كنت أحتاج إليه من موظفي السفارة. وفي بعض النواحي، كانت الحياة أسهل بوصفي الشخص الأعلى؛ لأنني عندما كنت أصدر الطلبات والأوامر، كان الناس ينفذون، سواء كانوا أو لم يكونوا يتساءلون هل يفعلون الشيء الصحيح أو لا؟. وأصبحت أتحدث بمزيد من التصميم والثقة. خلال مسيرتي المهنية كلها، كنت أنفذ أجندات الآخرين. وعلى الرغم من أنني كنت حراً في قول

ما كان في ذهني، فقد كنت دائماً أفهم أنني مستشار ومنفذ، ولست صانع سياسات، أما الآن فعندما كنت آمر بالقيام بشيء ما، فقد كان يتم القيام به.

كنت أرغب في العمل، وكنت أؤمن بأن لاوس قد عانت ما فيه الكفاية، وأن جيش لاوس لم يكن ليقترب من وضع نهاية للحرب. كان هناك بعض السأم من الحرب، وكان لا بد لكلا الجانبين أن يتوصلا إلى حل من شأنه أن ينقذ البلاد ويحفظ ماء الوجه لكليهما، وهذا ما كنت آمل أن تفعله حكومة ائتلافية.

كان القلق يساور الجميع من أن تكون اليد العليا لفصيل آخر، لكن الحل، برغم ذلك، لم يكن بالعودة إلى ساحة المعركة، بل ببذل مزيد من الجهد على طاولة المفاوضات، وكان على الجانبين كليهما أن يجتهدا للتفاهم والمساومة على جميع تفاصيل نزاعاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية. كنت أعتقد أنهم إذا أعدوا مبادئ مناسبة لتوجيه حكومة ائتلافية وتصارعوا على تفاصيل التنفيذ، فبإمكان جميع الأطراف وضع حد للحرب وإعطاء اللاوسيين حكومة ائتلافية.

لقد استمتعت إلى حد لا يصدق بالعمل مع الجانب الحكومي، وبإعطاء وجهات نظري حول سير المفاوضات بين الجانبين المتخاصمين. وقد تركتني إدارة نيكسون - التي كانت في السابق مصرة على كسب الانتصارات العسكرية قبل التفاوض على نهاية للحرب - لشأني معظم وقتي سفيراً بالنيابة، ومع ذلك، فلم أكن إلا مستشاراً غير رسمي للمفاوضات، ولست طرفاً بشكل مباشر فيها.

في ذلك الوقت، اتبعت إدارة نيكسون سياسة صارمة في الربط بين القضايا؛ فالسلام لا يمكن أن يحل في لاوس، ما لم يحل أيضاً في فيتنام وكمبوديا، ولم يكن السلام متصوراً من دون تحقيق نوع من النصر العسكري. لقد كان نهج «كل شيء أو لا شيء» هو الذي اعترض طريق المفاوضات على أساس «الأخذ والعطاء».

لم يكن ثمة احتمال بأن أقنع الرئيس نيكسون «بفك ارتباط» فيتنام بلاوس وكمبوديا؛ ولذلك كان ما فعلته أن تعاملت مع لاوس بوصفها مسألة منفصلة، وركزت

على حماية المصالح الأمريكية هناك، وقررت أن أفضل طريقة لفعل ذلك تتم بالمساعدة على إحلال السلام في لاوس.

كنت أرسل تحديثات منتظمة إلى واشنطن، واصفاً الجهود اللاوسية لإنهاء الحرب، ولكنني لم أكن أسعى دائماً للتشاور مسبقاً فيما يتعلق بنصحي لمفاوض الحكومة الملكية، فينج بونجسافان؛ فقد كان إيقاف المحادثات ريثما أرسل برقية إلى واشنطن مستحيلاً، ولذلك اضطررت إلى أن أثق بفهمي للمصالح الأمريكية، وبأنه سيكون بإمكاني إقناع الجميع في واشنطن بأننا في فينتيان كنا نسعى لتحقيق المصالح الأمريكية في الهند الصينية.

كانت المفاوضات على وجه التحديد بين الجانبين اللاوسيين المتنازعين: الحكومة الملكية وباثيت لاو، وكل ما أمكنني القيام به، هو أن «أتطفل» لأعرف في المساء من الطرف الحكومي حالة التفاوض؛ سعياً لإبرام اتفاق نهائي بين فينج بونسافان Ponssavan Pheng وفومي فونجفيشيت Phoumi Vongvichit، وبعد ذلك يمكنني إعطاء آرائي لفينج حول إذا ما كانت الحكومة قد تنازلت كثيراً أو لا، وكيف يمكن تنفيذ التسويات بسهولة. والأهم من ذلك أثر اتفاق لاوسي داخلي في بقية الهند الصينية وفي المواجهة بين الولايات المتحدة والشيوعية. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة لم تكن طرفاً في المفاوضات، كان المفاوضون من الجانبين على علم بأنني كنت شخصياً أؤيد توصلهما إلى اتفاق. ولعل هذا الأمر شجع كلا الجانبين على البحث عن حلول وسطى.

شاركتني قوى أجنبية أخرى ممثلة في فينتيان في أسلوبي تجاه المفاوضات اللاوسية؛ فقد دعم السفير الفرنسي، صديقي أندريه روس Andre Ross، والسفير الروسي أندريه فدوفين Andrej Vdovine جهودي في اتصالاتهم المباشرة مع كلا الطرفين اللاوسيين. وكان لدي أيضاً انطباع في أن القائم بالأعمال الصيني الشيوعي والسفير الفيتنامي الشمالي معاً لم يكونا يعارضان النصح الذي كنت أوزعه في لقاءاتي الليلية.

ولو أن انقلاباً حدث لدمر كل شيء.

في شهر أغسطس من عام 1973، حاول ضابط عسكري سابق في سلاح الجو الملكي اللاوسي الاستيلاء على الحكم ووضع حد لمفاوضات السلام مع باثيت لاو. وصلتني مكالمة هاتفية في السفارة من أحد المستشارين الأمريكيين لسلطة المطار. صاح وهو في حالة ذعر: «هيه، لقد دخلوا وهم يستعدون للسيطرة على الطائرات!»، كان مدبرو الانقلاب طيارين، وقد خططوا لقصف أهداف استراتيجية.

كان الجنرال ثاو ما قائداً سابقاً في سلاح الجو اللاوسي، وكان لمدة طويلة خارج الاتجاه الرئيسي السائد لحكومة سوفانا. كان يعيش في تايلند، ويعمل مستشاراً لأعضاء آخرين سابقين في القوات المسلحة اللاوسية والنخب السياسية المختلفة في المنفى. وبعد أشهر من التخطيط، قرر الجنرال عبور نهر ميكونج، والاستيلاء على مطار فينتيان، ومن هناك يسيطر على مواقع استراتيجية أخرى. وفي نهاية المطاف كانت خطته تهدف إلى إطاحة سوفانا وتشكيل حكومة عسكرية جديدة. نجحت قوات الجنرال في الاستيلاء فترة وجيزة على محطة إذاعة الحكومة في فينتيان، ومنها أعلنوا أن الحكومة الجديدة تولت المسؤولية في لاوس.

كان مدبرو الانقلاب ضباطاً لاوسيين يمينيين، يريدون قلب ما عدوه حكومة ضعيفة. ومما لا شك فيه أنهم حصلوا على الدعم المباشر والضمني من الحكومة التايلندية وبعض الأمريكيين. وقد أقلعوا من قاعدة في تايلند المجاورة. وفي الواقع، قال بعض المسؤولين الأمريكيين وقد أخذوا موقفاً سلبياً تجاه المتآمرين: «ليس هذا بالأمر السيِّئ». كانت المفاوضات بين الجانبين اللاوسيين على قدم وساق، وكان العديد من اللاوسيين والأجانب ضد الحل الحيادي الذي كانت المفاوضات تتجه إليه.

سيطر الجنرال ثاو ما وعصابته سيطرة كاملة على المطار وبرج المراقبة، ومن هناك كانوا يعتزمون استخدام طائرات صغيرة أعطتها الولايات المتحدة الأمريكية للجيش الملكي اللاوسي للسيطرة على العاصمة؛ ومن ثم على بقية البلاد، وكادوا ينجحون.

عندما بلغني خبر محاولة الانقلاب في صباح يوم 20 أغسطس 1973، كان أول تصرف لي هو العمل على تأمين سلامة رئيس الوزراء سوفانا فوما، فوجدت له منزلاً آمناً في المدينة؛ حيث يمكنه تفادي الاعتقال على يد مدبري الانقلاب، كما طلبت من مشاة البحرية الأمريكية حماية منزل كبير المفاوضين عن حركة باثيت لاو، فومي فونجفيشيت، في فينتيان، فطوقوا المنزل، وسيطروا على مدخل منزل باثيت لاو ومخرجه. كنت أخشى أن يأتي أشخاص آخرون سيراً على الأقدام، إما لاعتقاله، وإما لقتله، وإما لإجباره على مغادرة المدينة، وبذلك ينهون المفاوضات الرامية إلى التوصل إلى تسوية.

ثم كلفت سائقي بأن يقلني إلى المطار. لم أكن أسعى بجد لإشراك أمريكيين آخرين في المهمة الأمريكية - وهم أكثر من 600 - للذهاب معي لمواجهة المتآمرين؛ لأنني خشيت أن يرفض بعضهم ذلك. فقد شعر كثيرون أنه ليس من وظائفهم الانحياز إلى أحد الجانبين في نزاع لاوسي داخلي، بل لرصد الأحداث وإعداد تقارير إلى واشنطن.

عندما تتولى أمراً من هذا القبيل، فإنك لا تفكر في المخاطر، بل تتصرف. أتمنى لو أستطيع القول إنه كانت لدي خطة أو قمت بتحليل سريع للتكاليف والفوائد المختلفة للخيارات الممكنة، ولكنني لم أفعل، بل تحركت وحسب. كان المستشار الأمريكي المسؤول عن مطار فينتيان مسجَّلاً على كشف رواتب وكالة التنمية الدولية، ولكنني لم أكن أعرف قط وظيفته الحقيقية، لكنه على أي حال كان صديقاً جيداً، ويتصف بالقدرة والكفاءة الكبرى، وقام فيما بعد بالكتابة عن الأحداث التي وقعت في المطار.

كان سائقي يرتجف، بينما كان يقود سيارته بي إلى المطار. لم أكن متأكداً مما أتوقعه عند وصولي إلى هناك. كنت ذاهباً فقط لرؤية ما يمكن فعله لحماية الحكومة الشرعية في لاوس. وكان عدد كبير من الـ 680 شخصاً التابعين للسفارة الأمريكية جاهزين في المطار. لم يكونوا في مكان قريب من المدرج أو برج المراقبة، بل كانوا يراقبون من بُعد؛ مثل المتفرجين، ليروا ما سيحدث.

أخذت بوقاً إلى البرج وصرخت - باللغة الفرنسية، لغة عملنا المشتركة - «اسمعوا، يا رفاق، أنا أدفع جميع رواتبكم هنا. تقضي الأوامر من واشنطن بدعم الحكومة الشرعية لسوفانا فوما وحمايتها. ما تحاولون القيام به هو ضد هذه السياسة. عودوا عبر النهر. أنا ضد هذا الانقلاب».

كان هناك أفراد مفرزة كبيرة من الجيش اللاوسي الملكي جالسين جانباً، في الأدغال، منتظرين ليروا من سينتصر في تلك المواجهة. وكان بينهم بعض العسكريين اللاوسيين الرفيعي المستوى الذين كانوا معروفين بقربهم من مستشاريهم الأمريكيين. وكانوا يميلون إلى من يفوز، وكانوا ينتظرون.

كررت التحدي والاحتجاج لمئات الأشخاص الواقفين قرب مدرج المطار: «أنتم جميعاً هنا، لاوسيون أو أمريكيون، تخالفون الأوامر التي لدي بدعم الحكومة اللاوسية الملكية القائمة». الطريقة التي كنت أنظر فيها إلى الأمر، أنني كنت أتصرف وفقاً لتعليماتي. عندما يكون شخص في حالة أزمة فإنه لن يكون لديه وقت للاتصال بالوطن للحصول على تعليمات. عندما اتخذت الموقف في لاوس، قيل لي مباشرة إن عملي هو دعم مصالح الولايات المتحدة الأمريكية والحكومة اللاوسية، وليس وقوع انقلاب يفيد مصالح إحداهما مطلقاً.

كنت أستطيع أن أرى عن بعد أن القوات المسلحة الحكومية لم تتحرك، سواء دعماً لي أو للمتمردين. وفي الوقت نفسه، كانت المراوح تدور في الطائرات الصغيرة التي خطط المتآمرون لاستخدامها في غاراتهم. أمرت قائد سيارتي بالتحرك إلى مدرج المطار وإعاقة المدرج؛ ما جعل من الصعب على الطائرات الإقلاع. كان قائد سيارتي خائفاً وكذلك أنا. وبكل عناد، وربما لأنني لم يكن لدي أي إمكانية للتحرك إلا وفق ذلك، بقيت في السيارة.

حاول الجنرال ثاو ما، قائد الانقلاب، أن يقلع بالطائرة التي كان قد استولى عليها، متجنباً الاصطدام بسيارتي. وحينما أقلع انحرف إلى اليمين. ولعدم قدرته على الارتفاع بطائرته، فقد تحطمت به على جانب المدرج.

أخذت البوق مرة أخرى: «حسناً، يا شباب، لقد انتهى الأمر. عودوا من حيث أتيتم».

غادر المتآمرون أخيراً، وعبروا نهر ميكونج بالقوارب إلى تايلند.

بعد أن انتهت الحادثة، ذهبت إلى بيت المفاوض عن قوات باثيت لاو، فومي فونجفيشيت، وتناولنا بعض المشروبات الغازية. وعادت المفاوضات مرة أخرى، ثم ذهبت لرؤية سوفانا فوما، الذي كان في ذلك الوقت قد عاد إلى بيته. وبعد بضعة أيام، وأمام جميع السفراء ورؤساء البعثات الأجانب المعتمدين لدى لاوس، شكرني سوفانا فوما علناً، على الدعم القوي الذي قدمته الولايات المتحدة الأمريكية للسلطات الشرعية في لاوس. وقامت الصحف في جميع أنحاء العالم بتغطية دقيقة للانقلاب الفاشل. ومن بين وسائل الإعلام المطبوعة الأمريكية التي كتبت تقارير عن الحادث، كانت المقالات المطولة في مجلتَيْ **تايم** و**نيوزويك** وصحيفة **نيويورك تايمز**.

لم يعاقَب أي من مدبري الانقلاب على مؤامرتهم، ولم تحدث أي عواقب على الأشخاص في تايلند ممن منحوا الانقلاب موافقة ضمنية على الأقل.

في شهر مارس عام 1974، عندما مثلت أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ لتصديق اعتمادي سفيراً لدى كمبوديا، تحولت جلسة مجلس الشيوخ بصورة عامة إلى أسئلة من بعض كبار أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي، حول تدخلي في مطار فينتيان يوم 20 أغسطس 1973؛ لإحباط جهود الجنرال ثاو ما اللاوسي اليميني لإسقاط حكومة رئيس الوزراء، سوفانا فوما، الشرعية والمعترف بها دولياً. وقد دارت الأسئلة التي وجهها بعض أعضاء مجلس الشيوخ حول ما يأتي: هل كان جون جونتر دين يملك الحق بوصفه قائماً بالأعمال في التدخل في محاولة الانقلاب ضد حكومة سوفانا فوما الشرعية، بحيث أفشل الانقلاب، أو أنه كان ينبغي له أن يتقيد بالإبلاغ عن مثل هذه الأحداث؟ بأسلوب السيناتور عن نيويورك، جاكوب جافيتس Jacob Javits بالضبط: «في رأيك، [أيها السيد دين]؛ أي الأمرين أهم [في تقرير هل كنت ستتدخل أم لا؟] الشرعية أم السيطرة؟».

كان جوابي في ذلك اليوم: «الشرعية». في حال انقلاب ثاو ما، ليس هناك من شك في أن بعض العناصر في الحكومة الأمريكية كان لديه تعاطف مع جهود الجنرال اللاوسي المتمرد لإطاحة «الحيادي» سوفانا فوما. دافعت عن عملي في إفشال المغتصبين بالإشارة إلى أن دعم الحكومة «الشرعية» لسوفانا فوما كان هو السياسة التي طلبت مني واشنطن تنفيذها في فينتيان.

ومع دحر الانقلاب، كان الجانبان أحراراً في التفاوض على وضع نهاية للحرب. وقد أدى بروتوكول 14 سبتمبر 1973، إلى قيام حكومة ائتلافية؛ حيث سيطر أعضاء حكومة فينتيان على وزارات المالية والدفاع والداخلية وباثيت لاو على الشؤون الخارجية. وقضى الاتفاق بأن يتعاون الجانبان أيضاً في مجلس استشاري يوجه الأمة نحو الانتخابات. وكانت جميع القوات الأجنبية ستغادر البلاد في غضون شهرين، وسيقوم كلا الجانبين بوضع قوات في المدن الكبرى لضمان حيادها.

لم يحل اتفاق لاوس جميع المشكلات في البلاد. والواقع أنه عندما سقطت حكومتا فيتنام الجنوبية وكمبوديا عام 1975، استولى الشيوعيون أيضاً على حكومة لاوس، وتم عزل سوفانا فوما. (توفي وفاة طبيعية في لاوس عام 1984، ودفن في مسقط رأسه بمدينة لوانج برابانج). ويمكن أن يقول أحدهم إن هذا يمثل إخفاقاً لعملية السلام، ولكنني أنظر إلى المسألة من منظور أوسع. لم يحدث في لاوس أي من العنف الوحشي الذي رافق نهاية الحرب الفيتنامية والكمبودية؛ فعندما استولى الشيوعيون على لاوس، خسر كثير من الناس حرياتهم السياسية وممتلكاتهم، وكان ذلك أمراً خاطئاً. وقد اضطر بعض القادة من الحكومة الملكية إلى الذهاب إلى المنفى، وتم إرسال بعضهم إلى معسكرات «إعادة التأهيل». ولكن في ذلك الجزء من العالم الذي لم يشهد تقريباً إلا العنف والقمع السياسي طوال أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كانت النتيجة في لاوس الخيار الأقل سوءاً. وأنا مازلت فخوراً بالسلام الناقص الذي صنعناه في لاوس، على مدى كل هذه السنوات التي تلته.

الفصل السادس

من شانجريلا إلى الجحيم

عندما عينني ريتشارد نيكسون سفيراً إلى كمبوديا في مارس 1974، كانت واشنطن منشغلة بحدث سماه الرئيس «عملية سطو من الدرجة الثالثة». لم تكن فضيحة «ووترجيت» إلا عملية سطو بسيطة.

بدأت لجنة إعادة انتخاب نيكسون، وبمساعدة من البيت الأبيض، التنصت على أعضاء اللجنة الوطنية للحزب الديمقراطي. وتم ضبطهم متلبسين في 17 يونيو 1972، ثم حاولوا التستر على الجريمة. وتم ضبطهم وهم يفعلون ذلك على مدى العامين اللاحقين، من صحيفة **واشنطن بوست** ولجان الكونجرس، ومن أشخاص مختلفين داخل الإدارة وخارجها كشفوا عن المؤامرة كرواية تنطوي على عنصر التشويق.

ينسى الناس أحياناً أن دافع الرئيس نيكسون في ووترجيت بدأ بالسياسة الخارجية. وقد استشاط غضباً عندما نشرت صحيفة **نيويورك تايمز** أوراق البنتاجون، وهي دراسة داخلية عن تورط الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام، وأراد الكشف عن المسربين وتلطيخ سمعتهم، كما أراد تلطيخ سمعة المتظاهرين ضد الحرب والأعداء السياسيين الآخرين. ومع تنامي المعارضة الشعبية للحرب، فضلاً عن التعقيدات في الحرب نفسها، فقد أعطى سراً، تفويضاً بقصف كمبوديا عام 1969.

لم يكن الأمر سراً بالنسبة إلى الكمبوديين، ولكن تم إخفاء عمليات القصف بشكل أو بآخر عن الرأي العام الأمريكي وعن الكونجرس. ولعل تلك السرية نفسها كانت السبب وراء نشوب أزمة دستورية.

وفي يوليو عام 1974، صدقت اللجنة القضائية في مجلس النواب ثلاث مواد لعزل الرئيس، ركزت فيها على عملية السطو والتجسس ومحاولة التغطية عليها في ووترجيت، وما يتصل بها من سوء استغلال السلطة. في ربيع عام 1974، تعرضت رئاسة نيكسون لخطر الزوال. وبحلول شهر أغسطس، عندما أمرته المحكمة العليا بالإفراج عن الأشرطة التي ورطته في التستر منذ البداية تقريباً، استقال بدلاً من مواجهة مساءلة مؤكدة. وأصبح خليفته جيرالد فورد نائب الرئيس عندما استقال سبيرو أجنيو من منصبه بعد إدانته بتلقي الرشاوى.

وقد تقرر مصير كمبوديا في الأشهر الستة الأخيرة من رئاسة نيكسون، والأشهر الثمانية الأولى من رئاسة فورد.

في الشؤون الخارجية، تأتي الاستمرارية بين نيكسون وفورد في شخص هنري كيسنجر؛ ففي عهد فورد، تابع الدكتور كيسنجر شغله منصبي مستشار الأمن القومي ووزير الخارجية؛ حيث استخدم سلطة لا مثيل لها على السياسة الخارجية، بما في ذلك كمبوديا.

تلقيت إشارات متضاربة حينما كنت أستعد لتولي منصبي الجديد. التقيت كيسنجر في وزارة الخارجية، وحدد دوري بدقة. «جون، أنت ذاهب إلى هناك لتكون سفيراً، فقم أنت بتقويم الحالة العسكرية والسيطرة عليها، وأنا أعتني بالجانب الدبلوماسي».

بدا ذلك عوداً إلى الوراء بالنسبة إلي. دبلوماسي من المفترض به العناية بالجانب العسكري للأمور؟ لا. من المفترض أن يقوم الدبلوماسيون بالجمع بين الأصدقاء والأعداء معاً لإيجاد سبل للعيش جنباً إلى جنب، فقد وُجد الدبلوماسيون للتفاوض؛ للبحث عن حلول غير عسكرية للمشكلات.

عندما غادرت لاوس، توقفت في بانكوك، وطلبت النصح من توم إندرز Tom Enders حول مهمتي الجديدة في كمبوديا؛ فقد كان إندرز قائماً بالأعمال في كمبوديا قبل

توليه مهمات سفير في أنحاء من العالم. افترض الجميع أنني سأحاول أن أفعل في كمبوديا ما كنت قد فعلته في لاوس: جمع الناس معاً للتفاوض على وضع نهاية للحرب. كانت لدينا فرصة للمحاولة. كان إندرز يرى أنها فكرة جيدة، وقال إنه أبلغ كيسنجر بأنه كان ينبغي لنا العمل على إنهاء الحرب في كمبوديا في عام 1973.

كان توم يدرك أننا قد وصلنا إلى لحظة حاسمة في كمبوديا.

قال: «الوقت ضد الحل العسكري، وكلما مر الوقت، خسرتَ مزيداً من السلطة. علينا أن نجد وسيلة لإنهاء الحرب في كمبوديا قبل أن نفقد القدرة على الجمع بين جميع الأطراف على الطاولة».

جئت إلى البلد بسمعة صنع السلام. كان الناس في حكومة الخمير يعتقدون أنه كان لدى الولايات المتحدة الأمريكية فرصة للمساعدة على إنهاء الحرب في كمبوديا بالطريقة التي ساعدنا بها على ذلك في لاوس. ذهبت إلى كل مكان، وتحدثت إلى الجميع. لدي الكثير من الطاقة، وأنا بطبيعتي متفائل، وأعتقد أن بعض هذا التفاؤل انتقل إلى الناس. ربما لم يكن هذا شيئاً جيداً، وربما رفع آمال الناس أكثر من اللازم، ولعله جعل الناس يعتقدون أن جهة خارجية يمكن أن تنقذ الموقف في حين أن الواقع يقضي بأن يصمم الكمبوديون أنفسهم على إنقاذ الموقف.

أراد الكمبوديون مني أن أتوسط لعقد اتفاق. وعندما قمت بزيارة مجاملة لرئيس الوزراء لونج بوريت Long Boret، طلب إليّ أن أكرر مأثرتي التي حققتها في لاوس وأحقق المصالحة في كمبوديا.

بدأ بعض الناس يدعونني «ملك الخمير». كان ذلك تعليقاً ذا حدّين، وقد أخذته في الغالب على أنه مجاملة لاستعدادي للعمل على وحدة البلاد، لكنني أحجمت عندما سمعت ذلك. كنت أعرف أن دوري كان محدوداً، وكنت أعرف أن الجنرالات وغيرهم من أعضاء الحكومة سوف يستاءون من لعبي دوراً أكبر من المتوقع. ولكن لو أن إرسالي

إلى كمبوديا كان للتوسط في التوصل إلى اتفاق، لاضطررت إلى العمل بأقصى قدر ممكن لتحقيق النجاح.

كان أمام الشعب الأمريكي خياران حقيقيان. في أحد الخيارين، قال الحمائم ينبغي لنا الخروج فقط بغض النظر عن التكلفة والتعطيل، وقد خسروا. وعلى الطرف الآخر، قال الصقور علينا أن نبقى حتى نحقق النصر الكامل. فهل كان هناك حل وسط؟ في فيتنام، كان الحل الوسط يقضي بتسليم الحرب إلى فيتنام الجنوبية. وهذا يعني أن يتم تدريب جنودهم، ومساعدتهم بالمعلومات الاستخباراتية، وتوفير الأسلحة والتمويل، ولكن مع إخراج أبنائنا منها. كان ذلك، في جوهره، عودة إلى بيان سنة انتخابات ليندون جونسون عام 1964 بأنه لم يكن يريد «إرسال الفتيان الأمريكيين مسافة تسعة آلاف أو عشرة آلاف من الأميال بعيداً عن الوطن للقيام بما يجب على الفتيان الآسيويين أن يفعلوه لأنفسهم».

ساورتني شكوك حول "الفَتْنَمة"، كما صار يُطلق على السياسة في عهد ريتشارد نيكسون. لكنني كنت أعرف أن مجرد تسليم زمام الحرب ببساطة إلى الكمبوديين لا معنى له؛ فالمشكلات في كمبوديا مصدرها في الغالب من قوى خارجية يحارب بعضها بعضاً داخل البلاد، ويجرّون مختلف الفصائل إلى معاركهم، وكانت النتيجة الفوضى.

بدأت المشكلات عندما استولى الفيتكونج على أجزاء من شرق كمبوديا؛ لينطلقوا منها لشن هجمات على فيتنام الجنوبية. تحرك الفيتكونج على طول درب هوشي منه بالجنود والأسلحة لشن الهجمات. والولايات المتحدة، بدورها، قصفت هذه «المعاقل»، ولكن بدلاً من إخراج هذه المعاقل، كان من نتائج القصف أن أدى إلى دفع مزيد من قوات الفيتكونج إلى دخول البلاد. وكان لكلا جانبي الصراع الأمريكي والفيتكونج مؤيدون في كمبوديا. وبالإضافة إلى ذلك، فقد عملت الصين والاتحاد السوفيتي من وراء الكواليس على دعم الخمير الحمر المتحالفين مع الفيتكونج.

كانت الفوضى بكاملها ضمن إطار خطاب الحرب الباردة. فقد كان الأمر صراع الشيوعيين ضد اللاشيوعيين. ولم تكن هذه التسميات دائماً تعني الكثير للكمبوديين، ولكنها كانت تعني كل شيء للولايات المتحدة الأمريكية، والصين، والاتحاد السوفيتي. وعندما قررت هذه القوى العظمى أن كمبوديا جزء من أرض اختبار عظيم، ومن شأنها أن تسبب سقوط أحجار الدومينو بصورة حاسمة بطريقة أو بأخرى، أصبح من الصعب إقناع الجميع بالجلوس إلى الطاولة والتفاوض على هدنة.

كان ثمة عائق آخر أمام السلام في كمبوديا، وهو فكرة الربط؛ فبموجب مبدأ نيكسون، التزمت الولايات المتحدة بمنع الشيوعية من توسيع بسط سيطرتها إلى ما وراء المعاقل القائمة. وكان ذلك في جوهره دعوة إلى تجميد ميزان القوى الحالي، في الوقت الراهن على الأقل. وبموجب فكرة الربط، تم الربط بين مصائر فيتنام وكمبوديا، فإذا كانت كمبوديا ستنهي الحرب بحكومة ائتلاف، فقد تكون العناصر في فيتنام الجنوبية على استعداد لتقديم تنازلات مع فيتنام الشمالية. وهذا، بدوره، من شأنه أن يوفر إمكانية الهيمنة الشيوعية على الهند الصينية قاطبة خلال يوم واحد.

كنت أعتقد دائماً أن فكرة الربط تنطوي على عيوب؛ فالدبلوماسية في العمل تتطلب منك أن تفعل شيئين: توسيع نطاق القضايا التي يتعامل الناس معها، وعزل القضايا في هيئة مكونات قابلة للتطبيق؛ فأنت تحتاج إلى طرح العديد من القضايا على الطاولة في البداية لكي تفهم البطاقات التي يمكنك أن تلعبها. وفي بعض الأحيان، يمكنك عقد صلات بين القضايا التي ربما لا تكون واضحة بصورة مباشرة؛ مثل العلاقة بين البنية التحتية والقواعد العسكرية، أو الصلة بين الإعانات الزراعية والاتجار بالمخدرات. ولكن فور أن تصبح لديك كل الأوراق على الطاولة، فعليك فعل ما هو ممكن، وذلك يتطلب عادة قبول شيء هو أقل من الحل الشامل. وأنت تحتاج دوماً إلى المرونة اللازمة لتوسيع القضايا قيد المناقشة وتقليصها. والسؤال الرئيسي الذي يتعين عليك أن تسأله، هو: ما الذي يمكن أن يكون فعالاً؟

وبإصرار كيسنجر على الربط، طلب إلينا حل الكثير من المشكلات في آنٍ واحد، وفي الوقت نفسه أبعدنا عن وضع الترتيبات التي يمكن أن تكون فعالة في حل المشكلات.

كنت قد عرفت كمبوديا أول مرة في خمسينيات القرن العشرين، خلال السنوات الأولى من عهد الأمير سيهانوك. في تلك الأيام، كان سيهانوك يسمي كمبوديا «واحة السلام». ويمكنك أن تقول: إن كمبوديا كانت بدائية، وكان شعبها غير طموح واقتصادها متخلفاً. وكان في كمبوديا انقساماتها الداخلية الخاصة بها، من متعلمين وغير متعلمين، وكمبوديين وصينيين وفيتناميين، ورجال أعمال وعمال غير مهرة، وبوذيين وروم كاثوليك. وكان يبدو أن الفقر والعوز الحقيقيين موجودان جنباً إلى جنب مع السعادة والسلام الحقيقيين.

كيف كانت كمبوديا تبدو قبل انتقال الحرب إليها من فيتنام؟

كانت بلداً مسالماً، تحده تايلند من الغرب، وفيتنام من الشرق، ولاوس من الشمال، وخليج سيام من الجنوب. في القرن السادس، بنى الخمير إمبراطورية واسعة النطاق، احتفظت بالسلطة حتى القرن الرابع عشر. وخير ما يذكّر بتلك الفترة معبد أنجكور وات الشهير، الذي شهد تحقيق الخمير أعلى مستويات الفن الكلاسيكي. وبعد هجوم التايلنديين من الشمال الغربي، والفيتناميين من الشرق، انحسرت حدود إمبراطورية الخمير تدريجياً. وبعد أن أصبحت كمبوديا محمية فرنسية عام 1863 أنقذها ذلك على الأرجح من الانقراض. وأصبحت كمبوديا اعتباراً من عام 1887 حتى الحرب العالمية الثانية جزءاً من الهند الصينية-الفرنسية. وتحقق الاستقلال التام لكمبوديا عام 1955. وفي أثناء مسيرة كمبوديا من الحماية الفرنسية إلى كونها دولة مستقلة، لعب الأمير (الملك لاحقاً) نوردوم سيهانوك دوراً رئيسياً، أما بالنسبة إلى الاقتصاد، فكانت زراعة الأرز في العديد من ملكيات الأراضي الصغيرة تكفي لتأمين معيشة متواضعة لمعظم الكمبوديين. وكان المزارعون الفرنسيون قد أدخلوا مزارع المطاط الكبيرة، وبنوا بضعة مصانع

للمطاط. وفي أذهان معظم الزوار، كان الكمبوديون لطفاء مع الناس بالابتسامة الشهيرة على وجوه منحوتات أنجكور وات التي انتقلت إلى وجوه سكان كمبوديا.

ونوردوم سيهانوك لم يقد أمته إلى الاستقلال من فرنسا فحسب، ولكنه حافظ أيضاً على حياد البلاد، وهذه مأثرة كبرى بالنظر إلى صراعات الماضي مع الصين، وتايلند، وفيتنام.

في أيام شبابنا، كانت لي أوقات ممتعة مع سيهانوك. فقد كنا نذهب إلى الملاهي الليلية معاً. وفي اثنتين من المناسبات، غنّى لي ولزوجتي مارتين. وكنا نشاهد الأفلام نحن وبقية الدبلوماسيين الشباب معاً في قصره، حتى إننا شاهدنا بعض أفلامه الخاصة، التي اعترف أنها لم تكن دائماً ناجحة. وكنا نأكل ونشرب، ونروي القصص، ونستمتع بجمال البلاد وطاقتها. كان لدى سيهانوك العديد من الزوجات، ويقول بعض الناس إن لديه ثلاثين طفلاً. وعندما قال إنه كان والداً لبلاده، فإنه لم يكن يمزح. ولكنه وجد الاستقرار مع زوجته الأخيرة، مونيك.

بدأت قصة سيهانوك حاكماً عام 1941 عندما اختاره حكام الهند الصينية الفرنسيون عن حكومة فيشي – تحت العين الساهرة لليابان التي سيطرت على آسيا خلال الحرب العالمية الثانية – خلفاً لسيسوات مونيريث Sisowath Monireth كملك لكمبوديا. كان الاختيار جهداً محسوباً لإبقاء كمبوديا في الهوان. كان عمر سيهانوك لا يتجاوز ثمانية عشر عاماً، وكانت سمعته معروفة سلفاً بأنه مستهتر. ومن المؤكد أنه كان يمكن أن يبقى تحت سيطرة الفرنسيين عندما تصبح المصالح الفرنسية على المحك. وما لبث سيهانوك أن تنحى عن الملَكية وأصبح الأمير؛ وهي خطوة ذكية من شأنها أن تجسد روح **الأمير** كما في كتاب مكيافيللي؛ وبكونه أميراً، تولى سيهانوك الدور الأكثر موضوعية وهو دور رئيس الوزراء والروح السياسية للأمة، وفي عام 1955 استخدم سيطرته على الآلية السياسية في كمبوديا لكسب الانتخابات الأخيرة في البلاد حتى عام 1993.

أسهم توطيد سيهانوك للسلطة في ترك جماعات المعارضة على الهامش، ولعله أسهم في اشتداد حرب العصابات ضد نظامه، وعلى مر السنين، كان سيهانوك يدخل في تحالفات مع الفصائل المختلفة في كمبوديا ويخرج منها. كان لديه ولاء للفرنسيين، ولكن عندما أزاح اليابانيون فرنسا انضم سيهانوك إلى قوى الاستقلال، ولكنه ما لبث أن تذمر عندما أصبح منافسه سون نجوك ثانه Son Ngoc Thanh رئيساً للوزراء. وفي السنوات اللاحقة، كان يعمل بالتناوب مع/ ضد فرنسا، والولايات المتحدة، والصين، وفيتنام، والخمير الحمر. كان هدفه النهائي الحياد، وهي قيمة من الصعب المحافظة عليها في المنطقة التي مزقتها الحرب.

ومهما كانت أخطاء سيهانوك، فقد كان شخصاً نابضاً بالحياة، وهو النوع من الأشخاص الذي يمكنك تقريباً الحديث دائماً معه. وهذا ما أردت أن أفعله عندما أصبحت سفيراً في عام 1974، ولكن منذ انقلاب عام 1970 كان سيهانوك يعيش في بكين، بعيداً عن العمل الحقيقي في كمبوديا. فبعد أن أطاح لون نول سيهانوك في الانقلاب، وجه سيهانوك دعمه للمعارضة من الخمير الحمر. وقد أعطى دعمه للشيوعيين الغطاء الذي كانوا يحتاجون إليه لدعم مطالبتهم بالشرعية. كان الناس يتذكرون عوائد سيهانوك اللطيفة والمريحة، وقد افترضوا أن الخمير الحمر لا يمكن أن يكونوا جميعاً سيئين. لكنهم كانوا كذلك بالفعل.

إن كان الخمير الحمر سينتصرون، فقد افترض الجميع أن سيهانوك سيعود ويستولي على العرش مرة أخرى في بنوم بنِه، وسيكون شخصية تسهم في التوحيد، على الرغم من أنه لن يمارس أي سلطة بالضرورة، إلا أن الحكام الجدد لا يريدون له أن يكون في موقع السيطرة فيحقق التوازن بين هذه المجموعة وتلك، ويحدد من يسيطر على البيروقراطية وغنائم الحكومة. ولكن وجوده ذاته يمكن أن يوحد البلاد.

لم يكن من السهل دائماً قراءة سيهانوك؛ ففي مقابلة مع صحيفة **نيويورك تايمز**، بتاريخ 12 أغسطس 1973، كشف أساليبه التي تنطوي على الهزل والتحدي، وهو يضحك

من حياته الماضية؛ حيث كان مستهتراً، متزوجاً العديد من الزوجات، ومؤسساً فرقة لموسيقا الجاز، ويعدّ أفلاماً تجارية. ولكن كان كل شيء للتعبير عن نقطة، وكانت تلك النقطة أن الولايات المتحدة قد ارتكبت جرائم لا توصف ضد كمبوديا وخانت ثقته. قال: «عندما يعاني الرجل - كما أعاني - من أجل بلاده، التي تشن عليها قاذفات بي-52 غارات يومية، فهل تعتقد حقاً بأنه يمكن أن يأسف على الحياة الناعمة الرغيدة مع فرق موسيقا الجاز؟». احتفظ سيهانوك بأشد نقده اللاذع للون نول، ولكنه أعرب أيضاً عن ثقته الضعيفة بحلفائه من الخمير الحمر: «أنا أدرك تمام الإدراك أنني عندما أصبح غير مفيد لهم سوف يلفظونني مثل بزرة الكرز. ولكن ما أهمية ذلك؟ أليسوا يقاتلون ضد أعدائي؟». عرض سيهانوك في المقابلة على أمريكا صفقة بسيطة: تخلوا عن لون نول وسوف نتحدث.

كان العامل إكس X أو إكسير النجاح في صراع كمبوديا، هو: هل كان سيهانوك يمكن أن يلعب دوراً مفيداً في التوصل إلى تسوية؟ وعندما أتيت للإدلاء بشهادتي أمام مجلس الشيوخ، شجعني جون سباركمان John Sparkman السيناتور عن ولاية ألاباما، وهو من أشد أعضاء الكونجرس محافظة، على إشراك الأمير المنفي. ولكن بالنظر إلى حذر نيكسون وكيسنجر وانشغالهما والتزامهما بالربط بين مصيري فيتنام وكمبوديا، فإن ذلك لم يكن سهلاً.

كتبت مذكرة تفصيلية إلى وزارة الخارجية تشير إلى الكيفية التي ينبغي لنا من خلالها أن نتصل بسيهانوك. نحن بحاجة إلى أن نكون حساسين تجاه كبريائه وغروره، ولكن الأهم من ذلك أن نتحمل المسؤولية عن تصرفاتنا في كمبوديا.

كتبت أقول: « يجب على من يقوم بأول اتصال جوهري مع سيهانوك، أن يكون على استعداد للاستماع بصمت إلى خطبة لاذعة طويلة وعنيفة حول الجرائم الأمريكية في الهند الصينية. أود أن أذكّر الوزارة أن سيهانوك لديه هاجس شك (بارانويا) تجاه وكالة الاستخبارات المركزية، التي يحمّلها المسؤولية عن الكثير مما حدث له... وفي الحديث مع سيهانوك، يجب ببساطة أن نشير ضمناً إلى أننا ربما ارتكبنا خطأً في الماضي، أما الآن فقد

رأينا النور، وهذا هو السبب وراء قدومنا إليه. يجب أن نؤكد أنه إن عاد الأمير إلى بنوم بنِه مع الجيش، والبحرية، والقوات الجوية، ورجال الدين البوذيين، والإدارة الحكومية على حالها، التابعين لجمهورية الخمير، فسوف يوضع في مركز الحكم، مع قاعدة سلطة حقيقية يمكنه العمل من خلالها».

من يمكنه التواصل مع سيهانوك؟ أي عدد من الناس يمكنهم ذلك؟ لعل مبعوثنا الخاص إلى الصين، جورج بوش الأب، يكون شخصاً مناسباً للبدء، شأنه في ذلك شأن السياسي الصيني تشو إن لاي. كان تشو مضيف سيهانوك في الصين - فقد كان الاثنان يلتقيان بصورة منتظمة - وأقام أيضاً علاقة عمل مع نيكسون وكيسنجر. وكان ثمة احتمال آخر هو إتيان ماناك، الدبلوماسي الفرنسي لفترة طويلة، الذي كان يعرف سيهانوك منذ الخمسينيات، أو أننا يمكن أن نقنع أمين عام الأمم المتحدة كورت فالدهايم للمشاركة. وماذا عن السوفييت الذين كنا قد بدأنا معهم للتوّ علاقة جديدة من الانفراج؟ فقد أعربوا عن قلقهم من الهيمنة الصينية على المنطقة، ودعم «حل من نوعية الحل الذي جرى في لاوس». لم يكن لدى السوفييت أي مدخل حقيقي لدى الخمير الحمر، ولكن كان لديهم مدخل لدى سايجون (عاصمة فيتنام الجنوبية)، التي كان لها اتصالات مع سيهانوك.

وفي نهاية المطاف، أجرينا بعض المحاولات للوصول إلى سيهانوك. تحدث كيسنجر مع الصينيين، فقالوا لا. وكان فالدهايم حذراً. وقام بوش ونائبه بزيارة سيهانوك ووجدا منه الإعراض، ولكن عليك أن تطلب بالطريقة الصحيحة. لقد استغرقنا وقتاً طويلاً في السعي للحصول على مساعدة سيهانوك، وطلبنا هذا بطريقة متعثرة وفاترة، ولذلك جاء رفضه بشكل شبه تلقائي.

وكان رئيسي في جميع المسائل الكمبودية، هو هنري كيسنجر، الذي استمر وزيراً للخارجية في إدارة فورد الجديدة، ولطالما أحببت كيسنجر وأعجبت به. كان هنري مثلي لاجئاً من ألمانيا النازية، ولم يكن ذكياً فحسب، بل كان مجدّاً أيضاً. وهناك قصة تروى أنه عندما كان طالباً في جامعة هارفارد، طلب نصيحة من أجل فهم السياسة، فأعطي لائحة

طويلة من الكتب لقراءتها؛ كنوع من المزاح أو الضبابية، ولكن هنري عاد إلى مهجعه وقرأ جميع تلك الكتب. إنه ذلك النوع من الطموح الذي شكل دافعاً له وجعل منه تلك الشخصية العملاقة في السياسة الأمريكية على مدى جيل كامل.

إن نظرية كيسنجر للسياسة الدولية - التي تنص على أنه يمكن المحافظة على السلام عندما يكون هناك توازن ثابت للقوة بين الدول - ساعدته على كسر الحواجز التي كانت تقيد السياسة الأمريكية على مدى ثلاثة عقود؛ ولكي تتم إقامة سد فعال في وجه الكتلة الشيوعية، فقد مدّ يده إليهم. لقد كان العقل المدبر لحالة من الانفراج مع الاتحاد السوفيتي، وبموجبها اعترفت القوتان العظميان أنهما وإن كانتا عدوتين فبإمكانهما إيجاد سبل للتعاون ونزع فتيل التوترات. وقد رتب رحلة ريتشارد نيكسون التاريخية إلى الصين عام 1972، وهي التي كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترفض باستمرار الاعتراف بها منذ ثورة ماو عام 1949.

ولكن كيسنجر وقع في الفخ أيضاً؛ ففي حملة الانتخابات الرئاسية عام 1968، كان ريتشارد نيكسون قد قال: إن لديه «خطة سرية» لإنهاء حرب فيتنام. وتلك الخطة في الحقيقة لم تكن خطة، بل كانت خدعة. كانت الفكرة أن يتم إبلاغ فيتنام الشمالية بأن نيكسون غير المنطقي قادر على استخدام الأسلحة النووية، إذا لم تنتهِ الحرب بشروط مقبولة لفيتنام الجنوبية. وكان كيسنجر مكلفاً بنقل الفكرة بأن نيكسون كان صلباً وليس لديه حلول وسطى بشأن الحرب. كانت الرسالة بسيطة: لا يمكنك أن تتحدث بالمنطق مع الرجل، وأن تذعن أفضل من المجازفة بالتعرض للإبادة.

كان ذلك النهج، حسبما فهمته، قد أدى إلى خنق الجهود الرامية إلى إيجاد حلول دبلوماسية للحرب.

عندما استقر بي المقام في سفارة الولايات المتحدة في بنوم بنِه، أصبح لدي الحق في العمل على تنظيم مفاوضات لإنهاء الحرب. سافرت في جميع أنحاء البلاد، وتحدثت إلى

ضباط الجيش والاستخبارات الأمريكيين حول سير الحرب. ما علمته كان ذا شقين: أولاً، كان الخمير الحمر يحرزون تقدماً كبيراً في حربهم ضد حكومة لون نول. وقد استولى رجال حرب العصابات على نحو ثلثي البلاد، ومعظمها في الأرياف، بينما كانت حكومة لون نول ماتزال تسيطر على المدن؛ أي على معظم السكان، ولكن الذين كانوا في جانبه تعبوا من الحرب وكانوا مطلعين على الفساد في الحكومة. وبمرور كل يوم من الأيام، كان الخمير الحمر يكسبون مزيداً من الأراضي ومن القوة العسكرية.

قال لي الأمير سيسواث سيريك ماتاك في مايو 1974 إن الكمبوديين فقدوا الرغبة في القتال. وكما ذكرت في برقية إلى واشنطن: فإن «من المشكوك فيه كون شعب الخمير على استعداد لمواصلة هذا الصراع فترة أطول أو لا. لقد قال سيريك ماتاك بصراحة: إن السأم من الحرب قد تغلغل في النفوس، وإنه إذا كانت ستتم تسوية الصراع الكمبودي بغير الوسائل العسكرية فينبغي استقصاء هذا المسار البديل عاجلاً لا آجلاً».

اعتمد سيريك ماتاك نفسه موقفاً اتكالياً على الولايات المتحدة الأمريكية. والحكومة الكمبودية - كما قال - لا تملك قوة أو سلطة لتسوية حربها الأهلية بنفسها، وأن الولايات المتحدة لديها التزام أخلاقي، وحتمية سياسية، لإنهاء الحرب بسلام وبشكل عاجل قبل أن يستولي الخمير الحمر على السلطة بالقوة. وأعرب لون نول عن الحاجة نفسها؛ بأن تأخذ الولايات المتحدة بزمام المبادرة. وفي محادثة معي في شهر سبتمبر نفسه، ذهب لون نول أبعد من ذلك؛ ليقول إنه سيترك السلطة لجعل عقد اتفاق ممكناً، فأبرقت إلى واشنطن ما يأتي: «بما أن الوقت ليس في جانب الحكومة التي ندعمها، فإنه يتعين علينا اتخاذ الترتيبات اللازمة لوضع حد للصراع في الإطار الزمني المتاح لنا».

كان الشيء الثاني الذي علمته هو أن الخمير الحمر كانوا عصابة وحشية ودموية من شأنهم أن يوجدوا عهداً من الإرهاب الدموي إذا سُمح لهم بكسب الحرب والاستيلاء على البلاد. وخلافاً للتصوير الساذج في وسائل الإعلام بأن الخمير الحمر هم مصلحون

زراعيون، فقد كانوا أصحاب عنف وانتقام، ولم تكن لديهم ضوابط داخلية تـردعهم عـن ارتكاب العنف ضد كل من يعارضهم.

وفي رأيي، كان الجزء الثالث المنطقي في هذا القياس المنطقي، أننا ينبغي لنا – من ثم – الجلوس إلى الطاولة مع الخمير الحمر والتفـاوض عـلى وقـف إطـلاق النـار، مـع فرصـة لتشكيل حكومة ائتلافية تضم جميع أطراف الصـراع.

وكلما كان ذلك أسـرع كان أفضل؛ فالوقت لم يكن في صالحنا.

يرى بعض الناس أن الجلوس مع السفاحين الدمويين؛ مثل الخمير الحمـر، قـد يبـدو وكأنه خيانة في النهاية للقيم الإنسانية، وأنه سـذاجة لا أمـل منهـا أيضـاً. فكيـف يمكننـا التحدث مع عصابة من القتلة؟ وإن اتفقنا على أي شـيء، فكيف يمكن لنـا أن نثـق بـأنهم سيفون بوعودهم؟ الواجب أن يعاقبوا، لا أن تكون مكافأتهم مقاعد في حكومة ائتلافية.

ولكن هذا النوع من التفكير يدفع الأمور إلى الـوراء؛ فلسـت بحاجـة إلى التفـاوض للتفاهم مع أصدقائي، بل عدوي هو الذي يتطلب جهداً خاصاً. وتعد معظـم التحـديات الدبلوماسية معقدة جداً، مع تعريض الكثير من الناس والقضايا للخطر، حتـى ليمكنـك دائماً أن تجد شيئاً للمبادلة. أنتم تشعـرون بعدم الأمان في المدن؟ حسـناً، سـوف نحمـيكم بهذه الطريقة.

تريدون الدعم للمـزارعين؟ إننـا موافقـون، سـوف نقـدم بـرامج لإيصـال البـذور والمعدات إلى المناطق النائية. أنتم قلقون بشـأن حقـوق الأقليـات، ونحـن سـنقوم بتـوفير محاكمات مفتوحة مع عمليات الطعون. تريدون الحماية مـن التجـار الأجانـب، فسـنجعل الوصول إلى السوق أكثر صعوبة. وهلم جراً.

أنا أريد أن أتفاوض مع العدو. فقد عملنا مع ستالين، أليس كـذلك؟ لإنقـاذ النـاس من الشيطان فإنك تعمل مع الشيطان. ولكن عليـك تحصـين نفسـك حتـى تـتمكن مـن

ضمان نجاحك مع الخصم. وإذا كنت تجلس مع الشيطان، فعليك أن تجد طريقة لقطع حوافره.

المفاوضات ليست وسيلة للقيام بالتبادلات والتسويات فحسب، بل هي أيضاً وسيلة لتوظيف الجانب الآخر في شيء يهمك. وإن كانت مصالح الطرف الآخر تكمن في نظام يمكنك قبوله فلن يعود ثمة خطورة في الجانب الآخر.

كان لدي كل أنواع الأفكار حول كيفية تنسيق المحادثات التي قد تؤدي إلى إبرام بروتوكول كمبودي كذلك الذي تحقق في لاوس. كنت أريد أن يجلس الجميع إلى الطاولة. وكنت أريد مشاركة القوى العظمى الثلاث، وكذلك الدول المجاورة؛ مثل تايلند. أردت إيجاد سبل لحماية وحدة أراضي كمبوديا لمنع التجاوزات؛ مثل تلك التي مصدرها من فيتنام الشمالية وتايلند. ولكنني في الوقت نفسه كنت أرغب في جلب المستثمرين والمسافرين الأجانب إلى كمبوديا. وإن كان ممكناً، فإنني كنت أرغب في جعل نوردوم سيهانوك - الذي كان في الماضي صديقاً لأمريكا، وهو الآن عدو لدود يعيش في بكين - يعود ويلعب دوراً في تشكيل حكومة انتقالية.

تدل هذه النقطة الأخيرة على مدى الصعوبة التي يمكن أن تبلغها الدبلوماسية. فكرت بأن إشراك سيهانوك - الشخصية الأكثر احتراماً في كمبوديا، وهو الشخص الذي يمكن كسب ثقة كلا جانبي الصراع - يمكن أن يجعل السلام ممكناً. ولكن الحصول على تفويض من واشنطن للاتصال به استغرق شهوراً، ولم يكتب له التوفيق في نهاية المطاف. لم يكن كيسنجر متحمساً لاستخدام صديقي القديم إتيان ماناك كوسيط. وبعد تولي فاليري جيسكار ديستان رئاسة فرنسا، فكرت في أن كيسنجر قد يوافق على الفكرة، ولكن قلبه لم يمل قط إلى التفاوض مع الخمير الحمر. وفكرت أن تشو إن لاي يمكن أن يكون محاوراً محتملاً آخر، ولكن لعل كيسنجر لم يكن يريد أن يتم صرفه عن لعبة الشطرنج العالمية مع الصين والاتحاد السوفيتي.

إن لون نول، الذي كان في الماضي حليف نوردوم سيهانوك، قد أصبح رئيس كمبوديا عندما شارك في انقلاب عسكري في 13 إبريل 1970، وكان سيهانوك في فرنسا في ذلك الوقت لإجراء فحوصات طبية. كان لون نول حليفاً قوياً للولايات المتحدة الأمريكية؛ ومن ثم لفيتنام الجنوبية، وقد اعترفت حكومة الولايات المتحدة على الفور بأنه الزعيم الشرعي لكمبوديا.

ما الذي دفع لون نول لإطاحة سيهانوك؟ هل هي المعارضة لسياسة سيهانوك بعدم الانحياز، أو الطموح الشخصي، أو هي الرغبة في إصلاح مجتمع كمبوديا ونقل كمبوديا إلى القرن العشرين، أو هي قطع العلاقات مع القوى الاستعمارية السابقة لكمبوديا، أو هي الخوف من تعدي الماركسية المنطلقة من الصين وشمال فيتنام؟ مهما كان السبب، فإن لون نول والمتآمرين معه كانوا معارضين بشدة لسيهانوك، الذي لم يغفر لهم ما عدّه خيانة. ولا ريب في أن عدداً من الدول الأجنبية في ذلك الوقت قد فضل جهود لون نول لقلب نظام سيهانوك، وفي طليعة هؤلاء كانت الولايات المتحدة الأمريكية، التي رأت في لون نول وجماعته خصوماً مخلصين للشيوعية وفرصة لمعارضة توسع هذه العقيدة في جنوب شرقي آسيا. وقد فضلت هذه الدول الأجنبية لون نول غير المجرَّب على الحياد الضعيف للأمير سيهانوك.

لكن على المدى الطويل، أدى صعود لون نول، إلى تحطيم حياد كمبوديا الداعي إلى الفخر. وفور تولي لون نول السلطة، تعين عليه السعي بنشاط لاتباع سياسات تتفق مع الذين دفعوا له الفواتير، ولاسيما الولايات المتحدة. ومنذ عام 1970 فصاعداً، نسّق سياساته مع سياسات الجهود الأمريكية المناهضة للشيوعية. ولكن مع استمرار الحرب في فيتنام، ومع تحقيق حل حيادي في لاوس في عام 1973، ازداد إدراك لون نول وفريقه، مدى الحاجة إلى إيجاد وسيلة للخروج من الحرب في كمبوديا، والحاجة إلى إجراء محادثات مع المعارضة.

لقد أسهم أداء الحكومة الكمبودية في تعقيد آمالنا للقيام بأي شيء: دعم لون نول أو التبشير بقرب حقبة جديدة من السلام والحياد. فقد أصبحت الحكومة غير فعالة وفاسدة. كان الاقتصاد في حالة من الفوضى، وكان الجيش يخسر الحرب. والأمر الأهم هو أن الناس فقدوا رغبتهم في معركة طويلة. وليس هناك الآن إلا سنوات عديدة من الحرب التي يمكنك تعريض الشعب لها. وفي مرحلة ما، لا يعود بإمكانك جرهم إلى الحرب. عليك أن تجد وسيلة لإنهاء البؤس وبناء شيء جديد.

منذ تولي لون نول السلطة في عام 1970، أصبح ضعيفاً بسبب العمر، والسكتة الدماغية، والسأم من الحرب. القائد العسكري الفخور، الذي كان منتصب القامة في الماضي، أصبح رجلاً عجوزاً وقد أصيب جانبه الأيسر بالشلل، وأصبح يمشي بصعوبة، ولكنه على الرغم من ذلك فقد حافظ على سلوك الوقار. وفضلاً عن ضعفه الشخصي، فقد عانت حكومته العجز والفساد. وقد شمل الفساد جميع الجرائم التافهة المعتادة للحكومات؛ من سرقة مواد الحرب لبيعها في السوق السوداء، ومنح امتيازات خاصة للأصدقاء والعائلة، وما شابه ذلك. وقد امتزج منطق الفساد بمنطق الخوف؛ فقد تم قصف القصر الرئاسي من الطيارين الحكوميين، الذين تحولوا إلى الخمير الحمر؛ وقامت الحكومة بصورة منطقية بتطويق القصر بجنود مسلحين بمدفعية من عيار 33 ملم لإسقاط أي طائرة تحوم بالقرب من القصر. وبما أن هؤلاء الجنود كانوا يحصلون على مكافآت كلما أطلقوا النار على أي شيء، فإنهم غالباً ما كانوا يطلقون النار على الطائرات الصديقة التي كانت ترد بإطلاق النار. كان هذا أمراً هزلياً إن لم يكن كارثياً.

كان لون نول نفسه في كثير من الأحيان، يتصرف بدافع الخوف. فعندما دعاه الرئيس نيكسون إلى الولايات لتلقي العلاج الطبي، رفض خشية أن تكون إدارة نيكسون تستخدم ذلك حيلة لتنحيته عن الطريق؛ فمن يصعد بانقلاب، فسوف يسقط بانقلاب.

لم يكن الجيش الكمبودي سيئاً. فقد عمل الجنود بجد وكانوا سعداء بكسب لقمة العيش. كان معظم الضباط مهنيين، وبقدر ما كانوا صادقين فقد كانوا يحظون بدعم

رجالهم. وقد وجدت دائماً أنه من السهل التحدث والعمل معهم. وبطبيعة الحال، عندما تقوم بتمويل الحرب برمتها وتدعم النظام، فإنك تتوقع من عملائك الاستماع والتعاون. كانت المشكلة أن كل شيء من حولهم كان يتداعى.

كان الخمير الحمر عدواً لا يعرف التراجع. بدأت حركتهم عام 1966، عندما تخلى بعض الضباط عن الجيش الملكي وخرجوا إلى الريف. وكانوا لا يحبون سيهانوك؛ لأنهم كانوا يعدونه زئبقياً جداً، بحيث لا يمكنه حماية حياد كمبوديا، وهو وثيق الصلة بالأغنياء الذين ليس لديهم ضمير اجتماعي. واكتسب الخمير الحمر القوة مع عمليات القصف الأمريكية لمعاقل الفيتكونج في كمبوديا عام 1969. ولم يحب سيهانوك عمليات القصف، ولكنه لم يحتج عليها علناً.

وفي أوائل سبعينيات القرن العشرين، لم يجد الخمير الحمر أي صعوبة في إمداد جيشهم والتنقل في أنحاء الريف. وقد حصلوا على الأسلحة وغيرها من المواد من فيتنام الشمالية، والصينيين، والروس. وتوافد الشباب على الخمير الحمر، وخصوصاً من المناطق القبلية. وهناك عدد قليل من كبار السن، الذين تلقوا تعليمهم في فرنسا، شاركوا في الحركة.

كان الخمير الحمر يمثلون مشكلة صعبة؛ فمن ناحية، كنا نعرف أنهم كانوا بلطجية قتلة. وكنا نتلقى تقارير منتظمة عن فظائع الخمير الحمر. وكان لمصادرنا أشخاص كانوا يبلغونهم عن كثب على مواقف قيادة الخمير الحمر وتصرفاتها.

أخذنا رجال الصحافة إلى مواقع كان فيها أدلة على التعذيب والتجويع والمجازر الجماعية. كانت الأدلة قوية جداً على أنهم كانوا جماعة تستخدم العنف. ولكن الناس وجدوا صعوبة في التصديق بأنهم سيستمرون على تلك الوحشية بعد أن يصلوا إلى السلطة. وكان رأيي أنهم سيصبحون أكثر وحشية بعد أن تتم إزالة جميع الضوابط التي تتحكم في قوتهم.

ولكن حتى أعضاء حكومة لون نول، كانت لديهم أوهام حول إصلاح الخمير الحمر أنفسهم. وحتى لونج بوريت، رئيس الوزراء، كان يعتقد أنه سيشارك في نظام جديد؛ لأنه كانت له علاقات منذ أيام الدراسة مع بعض قادة الخمير الحمر. إن دماثة الشعب الكمبودي أعمتْهم عن رؤية مدى قسوة بعض مواطنيهم.

تعد الدبلوماسية مجموع إجراءات لا تعد ولا تحصى، وحالات خمول وتكاسل، وشهادات تقدير، وحالات ازدراء، واعتداءات ومصالحات. ومع مرور الوقت، تسهم طريقة تفاعل الناس في إيجاد نمط. وفي بعض الأحيان، وبغض النظر عن مصالح الناس الحقيقية، ومهما كان النمط واضحاً، فستختفي فرص حدوث شيء إيجابي إلى الأبد. هذا ما حدث مع نوردوم سيهانوك: حدث الكثير من الفوضى في كمبوديا بعد أن أصبح ملكاً عام 1941، وتم تفويت العديد من الفرص الحقيقية. ولم يكن بالإمكان - أو لم يكن ليتم - اغتفار ذلك العدد الكبير من الأخطاء.

ومنذ عام 1970، عندما أطاحت سيهانوك مجموعةٌ عسكرية بقيادة لون نول، عاش في بكين؛ فلماذا أطيح سيهانوك؟ ومن كان وراء الانقلاب؟ إن هذا كله موضع نقاش أبدي. ولكن هذا المدافع عن الحياد الكمبودي أصبح فجأة في الخارج، وأصبحت حكومة موالية للولايات المتحدة في الداخل. وفي المنفى، أظهر سيهانوك مزيجاً من سمات النخبوية والشعبوية، والنعمة والمكابرة، وسهولة الوصول إليه، وشدة بُعده.

كانت علاقتي جيدة دائماً مع سيهانوك. وكنت أعتقد أنه الغِراء الذي يحقق وحدة كمبوديا وتماسكها. كان يحب الشعب الكمبودي، وكانوا يبادلونه الحب. وقد حافظ على حياد كمبوديا فترة أطول مما كان يتوقع أي شخص، في الوقت الذي كانت تحتدم فيه حروب فظيعة وحيل قذرة في القرب منهم. وقد أسموه الملك عن حق؛ لأنهم كانوا يعدونه لين العريكة، وكان مرناً جداً. وكان يلعب برشاقة بالفصائل بعضها ضد بعض، ثم يجمعهم مرة أخرى، ثم يرتقي فوقهم؛ بهدف تحقيق كمبوديا موحدة ومحايدة.

كانت الأشهر الأخيرة من حياتي في كمبوديا يائسة. فـما لم يكـن بالإمكـان التفـاوض على نوع من «الحل الموجه»، فسوف يحقق الخمير الحمر الانتصار في حرب دامية ويفرضون نظاماً دموياً جديداً.

كنت أبرق إلى واشنطن بانتظام باقتراحات لبدء محادثات سلام من شأنها أن تؤدي إلى ما أسميته «موقفاً تحت السيطرة». حاولت أن أشـرح كل فوائد السلام التي تتعدى السلام نفسه. وقد نظر السوفييت بعين العطف إلى حـل تحـت السيطرة، يكـون جيـداً لتحقيـق الانفراج، وقبله الصينيون على أنه جيد لاتخـاذ موقـف وسـط بـين جهتـين؛ كالـذي كـان كيسنجر يحاول تحقيقه، ومن شأنه أيضاً أن يسهل تحقيق السلام في فيتنام، ويمكن أن يؤدي إلى تبرئة أمريكا أمام المجتمع الدولي الذي تزايدت انتقاداته.

ثم كان هناك واقع الكونجرس؛ فمنـذ تفجـر فضـيحة ووترجيـت، التـي اضـطرت نيكسون إلى الاستقالة في أغسـطس عـام 1974، كـان معظـم النـواب والشـيوخ في مبنـى الكونجرس (كـابيتول هيـل) يحجمـون عـن التصـويت لصـالح المزيـد مـن المسـاعدات الأمريكية لكمبوديا، وكان نيكسون قد أخفـق في تحقيـق سـلام دائـم وفقـاً لشـروطه في جنوب شـرقي آسيا. وقد صمم الكونجرس على الأخذ بنهج جديد ومثير للاهـتمام. لقـد فقدَ الكونجرس الشهية للمغامرات الخارجية أيضاً مـع الكشـف عـن الانتهاكـات التـي ارتكبها بعض المدنيين والعسكريين الأمريكيين في جنوب شـرقي آسيا.

حاولتُ استخدام إخفاق الكونجرس في التصـويت لـمنح الأمـوال لكمبوديـا حجـة للتعجيل بمحادثات السلام، وكنت أحاول أن أقول لفـورد وكيسـنجر: «معكـم حـق في الانزعاج، ولكن ذلك هو الواقع. دعونا نعمـل بفاعليـة بقـدر مـا يسـعنا في حـدود هـذا الواقع».

وفي مذكرة بتاريخ 11 نوفمبر 1974، كتبت أقول: «مـا لم يكـن ثمـة اعتقـاد بـأن أي شخـص يمكنه على نحو ما، أن يجعل الكونجرس الأمريكي يُبقـي عـلى مستوى المـوارد

اللازمة للمحافظة على هذا البلد واقفاً على قدميه، فإنه يصبح أكثر إلحاحاً أن يتم الاضطلاع بجهد كبير لإنجاز بعض الفعل؛ لتحقيق تقدم على الجبهة التفاوضية. ويبدو لي من الضروري أن يتم الشروع على الأقل في نوع من المحادثات قبل هبوط الموارد المتاحة أو المتوقعة إلى ما دون المستوى الحرج. ولا يمكننا الانتظار حتى يتم استنفاد مستودع الذخيرة بشكل ملحوظ، أو إلى أن يدمر التضخم الجامح ثقة الجمهور بالعملة، لكي ينتقل هذا الصراع إلى مرحلة الحل. فإذا استطعنا البدء ببعض المحادثات فربما يكون من الأسهل جعل الكونجرس يعطينا الموارد لإبقاء هذا الجانب على الأقل مصدر قلق مؤقت، بحيث يكون لديه خيار لإعطاء الجانب الآخر حلاً وسطاً».

ولكن أهم سبب لمناشداتنا العاجلة إلى واشنطن دائماً هو أن الحرب كانت وحشية، وأن زحف الخمير الحمر من دون ردع يمكن أن يؤدي إلى كارثة إنسانية. وقد كتبت في أوائل عام 1975 أقول: «إذا لم يتم العثور على حل، فإنه يجب أن نكون مستعدين لحل خارج على السيطرة لدراما الخمير، وتحت [هذه] الظروف، لا يمكن استبعاد حدوث حمام دم».

أدلى الرئيس فورد على نحو متزايد بمناشدات يائسة إلى الكونجرس لتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لإنقاذ فيتنام الجنوبية وكمبوديا من الشيوعيين. وفي فبراير، على سبيل المثال، أسهمت مهمة الولايات المتحدة في بنوم بنِه في تشجيع الرئيس فورد كثيراً على أن يطلب إلى الكونجرس 222 مليون دولار من المساعدات، وقال فورد: «هذا سؤال أخلاقي تجب مواجهته بشكل مباشر: هل سنتخلى عمداً عن بلد صغير في خضم صراعه بين الحياة والموت؟ هل الولايات المتحدة، التي وقفت حتى الآن باستمرار بجانب أصدقائها خلال أصعب الأوقات، ستدين الآن، في الواقع، دولة آسيوية صغيرة تعتمد اعتماداً كلياً علينا؟».

ازداد يأسي مع مرور الوقت، وكتبت في يناير من عام 1975 أقول: «خلُصنا [في يونيو 1974] إلى أنه لا بد من العثور على حل سياسي للمعضلة الكمبودية في أقرب وقت ممكن.

كل شـيء قلناه في هذا التقويم قبل سبعة أشهر، مايزال صالحاً اليوم كما كـان عليـه عنـدما كتبناه في العام الماضي. إننا نتجه نحو كارثة ما لم يتم العثور بسـرعة على حل سياسي يضـع نهاية للصـراع».

وفي إحدى المراحل أثرتُ شبح الاستقالة من قبيل الاحتجاج. ولكن كـما ذكـرت في مذكرة شديدة اللهجة في 4 فبراير، «يمكن أن يساء تفسير مثل هذا الفعل على أنه رغبة مـن جانبي في الخروج... لكنني أريد أن أسجل خلافي العميق مع مـا يبـدو أنـه منطـق الإدارة [الأمريكية]؛ أي أننا سنكون في وضع أفضل للمفاوضات بعد بضعة أشـهر مـن الآن، أو أنه ستكون قد حدثت تطورات في الولايات المتحدة أو في كمبوديـا سـوف تسـلط ضـوءاً أخف على جهودنا طوال مدة خمس سنوات في كمبوديا».

ظلت الحرب تأخذ منحى سيئاً، ولكنني كنت أريد أن أستمر في المحاولـة للحصـول على حل سلمي. وفي مذكرة بتاريخ 14 فبرايـر، جادلـت ضـد الـتخلي عـن منصـبي: «إن خروج اللحظة الأخيرة من المهمة الرسـمية الأمريكيـة مـن بنـوم بنِـه ينـاقض، في رأيـي، التقاليد الأمريكية الطويلة الأمد التي تقضـي بالارتقاء إلى مستوى مسؤولياتنا، وسـيكون ذلك غير جدير بالجهود التي بذلها الشعبان الأمريكـي والخمـير في كمبوديـا في السـنوات العشـر الماضية. لقد بقي لدينا القليل من الوقـت. دعونـا نسـتخدمه للتوصـل إلى تسـوية نظامية هنا».

في فبراير 1975، علمت أن الخمير الحمر قالوا: إنهم سوف يفاوضون على نهاية للحـرب إن استقال ثمانية مسؤولين من حكومة لون نول. واعتقدت أن ذلك قد يكون جديراً بالتحقيق. كنا بحاجة إلى الخروج من ساحات القتال، والجلوس حول طاولة المفاوضـات. ذكـرت هـذا لسيدني شاندبيرج Sydney Schanberg من صحيفة **نيويورك تايمز**. ظننت أنني كنت أتحدث من دون تسجيل، ولكنه نشـر ملاحظاتي. واعتقد بعض النـاس في واشـنطن أننـي كنـت أدلي بالكثير من التصـريحات العلنية، بدلاً من مجرد تنفيذ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية. ربـما كان الأمر كذلك، ولكن الأمور كانت تتجه لليأس.

كنت قد بدأت أزعج صناع القرار في واشنطن، وقد بعث إلي لورنس إيجلبيرجر Lawrence Eagleburger مذكرة غاضبة في 27 فبراير، تقول: «كصديق أود أن أقدم لك ردود فعلي الشخصية جداً على آخر رسائلك بشأن كيفية المضي قدماً في المفاوضات. بصراحة تامة، يُنظر إلى هذه الرسائل هنا، على أنها تأكيد بأن اهتمامك بالمفاوضات قد أصبح الآن هاجساً. لا بد لي من أن أقول لك إن هذه البرقيات تعطي نتائج عكسية على نحو متزايد».

في هذا الوقت، أمرت موظفي السفارة بإجلاء زوجاتهم وأولادهم، فذهبوا جميعاً إلى تايلند. لقد أصبحت كمبوديا ببساطة خطيرة جداً على الأشخاص الذين لم يكن لديهم مهمات عمل. كنا نريد أن نعيد العائلات عندما يكون ذلك ممكناً، ولكن لم يكن لدينا الكثير من الأمل. أصبحت السفارة مكاناً أكثر هدوءاً بكثير. واصلنا مراعاة الحد الأقصى المصرح به، وهو 200 موظف في السفارة بحسب تعليمات الكونجرس بأن يكونوا في البلاد في أي وقت من الأوقات. كان أفراد الأسرة قد أعفوا من هذا الحد. وقد أدى عدم وجود الأسرة في القرب في سلب الحياة من المكان، ولكننا اكتسبنا بذلك أيضاً فرصة للتركيز على الأزمة.

كانت وجهة نظر كيسنجر؛ ومن ثم الإدارة، أن محادثات السلام لن تنجح إلا إذا تمتعت حكومة لون نول بميزة عسكرية. لم يكن كيسنجر يريد التفاوض حول هل الخمير الحمر يملكون معظم الأوراق، أو لا. ولكن انتظار أن يكسب لون نول وأتباعه ميزة كان أمراً عقيماً. ومن دون حصول معجزة -كموافقة الكونجرس على تمويل رئيسي جديد، وتحوّل في الروح القتالية للقوات الحكومية- فإن ذلك ببساطة لم يكن ليحدث.

ماذا يمكنني أن أفعل؟ لعلي لم أكن أحقق الفوز في نداءاتي للقيام بعمل، ولكن السكوت لن يساعد أيضاً. كل ما أمكنني القيام به هو الكفاح من أجل ما كنت أؤمن به؛ حشد ما أمكن من الحجج مع ما أمكن من الأدلة. فأنا لست انهزامياً. جربت كل زاوية؛ على أمل أن أجد شخصاً ما في مكان ما يوافق على منطقي. إلى أن تنتهي الحرب، توجد

دائماً فرصة لكسب السلام. ومع مرور الوقت، بدا أن دوري في بنوم بنِه كان لتقديم تحديثات حول مسيرة الخمير الحمر الحتمية نحو النصر؛ لكي تعرف واشنطن أفضل وقت بالنسبة إلينا للفرار من البلاد.

كانت التحديثات قاتمة. وكان الخمير الحمر يضيقون الخناق على نهر ميكونج. فقد استولى الخمير الحمر على سلسلة من القرى على الطريق إلى بنوم بنِه. قام الخمير الحمر بهجمات حرب عصابات منتظمة على العاصمة، كما نصبوا كميناً لسكة حديدية حكومية، وقطعوا بذلك الحلقة الأخيرة التي تربط البلاد بالعالم الخارجي. وكان الخمير الحمر قد اخترقوا السور المتمثل في الجنود الذين حشدتهم الحكومة في ضواحي بنوم بنِه، وأصبحوا في مدى الصواريخ من مطار بنوم بنِه، وكانوا يضيفون مجندين إلى صفوفهم، كما كانت الإمدادات العسكرية تصل إليهم من مصادر خارجية.

ما أفضل وسيلة لإنهاء حرب سيئة؟

هذا ليس سؤالاً تود أي قوة في العالم أن تسأله. ولكنه ضروري؛ لأن كل قوة عظمى تخسر في مرحلة ما. ففرنسا وبريطانيا والبرتغال وإسبانيا خسرت جميعاً إمبراطوريات. إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تنشئ نظاماً استعمارياً مثل هذه الدول، ولكننا مارسنا بالفعل سيطرة كبرى على كل ركن من أركان المعمورة. وإن المحافظة على السيطرة على كل شيء - الفلبين، وقناة بنما، والدول العميلة في أمريكا اللاتينية وآسيا - هي أمر ببساطة لا معنى له. كما أن المحافظة على قوات عسكرية عالمية تعد باهظة التكلفة. نحن بحاجة إلى الحرص على عدم إغراق كثير من الموارد في قضايا خاسرة، بحيث يعوزنا المال والمعدات عندما تنشأ حالات الطوارئ.

ونحن كأمة نحتاج أيضاً إلى فعل الشيء الصحيح؛ ففي بعض الأحيان، تحتاج إلينا دول أخرى وتريدنا شعوبها، وفي أوقات أخرى لا يريدوننا. فينبغي أن تكون لدينا الحكمة لمعرفة الفرق والتصرف وفقاً لذلك.

أنشأ الفرنسيون نموذجاً جيداً للمغادرة عندما لم تعد ثمة حاجة إليهم أو رغبة فيهم. فبعد معركة ديان بيان فو في عام 1954، اختاروا مغادرة الهند الصينية، وأيدوا اتفاقية جنيف لعام 1954، التي منحت الاستقلال لفيتنام ولاوس وكمبوديا، كما حرص الفرنسيون على إتاحة الفرصة لشعبهم للمغادرة بشرف وكرامة.

الأمر الأهم هو أن الفرنسيين أعادوا النظر في نظامهم الاستعماري. استغرقت فرنسا سنوات عدة أخرى لمغادرة الجزائر، ولكن بدأ زعماء؛ مثل شارل ديجول يدركون أن المصلحة الوطنية لفرنسا في بعض الأحيان تقتضي التخلي عن المستعمرة. لم تكن المصلحة الوطنية الفرنسية في الهيمنة على المستعمرات الرافضة للهيمنة الفرنسية، بل في حماية المصالح الحيوية الحقيقية للبلاد، بالدفاع عن الأمة، والمشاركة في الشؤون الدولية كقوة محترمة، وإقامة مجتمع عادل. كان ديجول تجسيداً للشعور القومي في فرنسا، وكان تخليه عن الطموحات الاستعمارية اعترافاً قوياً منه بأن السلطة على شخص آخر لا تمنحك السلطة دائماً للسيطرة على مصيرك.

لو كنا وجدنا وسيلة للتوصل إلى تسوية بخصوص جزء من الكعكة، وكنا وفينا بمسؤوليتنا لحماية الشعب الذي تحالفنا معه، لكنا أفضل حالاً. ربما لا نكون قادرين على أن ننعم بالنصر مع حلفاء ليّني العريكة حيثما أردناهم، ولكن كان بإمكاننا تجنب الموت والدمار بالجملة. إن العناية بالأعمال فقط كانت تتطلب جهوداً غير عادية وخيارات ومجازفات أخلاقية صعبة.

كان ريتشارد أرميتاج Richard Armitage من أشجع الرجال خلال أيام أمريكا الأخيرة في كمبوديا. فقد قام بتنسيق حركة المراكب الضخمة، التي تنقل المواد الغذائية والذخائر وغيرها من المعدات على طول نهر الميكونج من سايجون إلى بنوم بنِه. كان لديه فكرة تدريع جانبي المراكب؛ ولكن الدروع المعدنية لم تكن مفيدة عندما ألقى الخمير الحمر صواريخ من فوق إلى داخل المراكب. فعندما تسقط صواريخ من فوق يمكن أن يكون الانفجار كارثياً بسبب الذخيرة على متن المركب.

ماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟ اقترح الجنرال جاك بالمر Jack Palmer استخدام قنابل «الكلب الكسول». لم أكن قد سمعت بها من قبل. وأوضح بالمر أن القنابل ستنفجر على بعد ست أقدام أو سبع فوق الأرض، بحيث تكتسح الناس الواقفين لإطلاق الصواريخ. ولكن الكلاب الكسولة قد تكون مخالفة لاتفاقية جنيف بشأن الحرب. كان بالإمكان أن أسأل واشنطن ما يجب القيام به، غير أنني رأيت أن أقوم بالخداع، وقررت أن أمارس السلطة التي خولني إياها الرئيس لتنسيق جميع نشاطات الولايات المتحدة في كمبوديا، وأعطيت الضوء الأخضر لاستخدام الكلاب الكسولة. لكنها لم تساعد كثيراً. فقد شدد الخمير الحمر قبضتهم على نحو مطرد على نهر ميكونج. وما لبثنا أن تخلينا عن الشحن عبر النهر.

لذلك انتقلنا إلى الخطة «ج» المستوحاة من عمليات النقل الجوي في برلين؛ حيث تقوم ست طائرات DC-6 أو ثمانٍ تحمل مواد غذائية وإمدادات عسكرية من تايلند بالهبوط في بنوم بنِه كل يوم، فكنا نأخذ السلع ونقوم بتوزيعها - بواسطة مروحية غالباً - على مدن وأماكن أخرى تحت سيطرة حكومة لون نول.

إن لم نتمكن من كسب الحرب في كمبوديا، فأقل ما يمكننا القيام به هو الخروج بالمعروف وبكرامتنا، وبمساعدة العديد من الناس قدر الإمكان على النجاة من بطش النظام القادم. في أواخر عام 1974، بدأنا التخطيط للإجلاء الذي سميناه «عملية سحب النسر».

كان الخروج على وشك أن يصبح مسألة حساسة. كان علينا أن نفعل الأمور بشكل تدريجي؛ لأن عملية كبرى ظاهرة من شأنها جذب نيران العدو. وكان علينا أن ننتظر حتى آخر لحظة ممكنة، عندما عرفنا أنه لم يعد لدينا فرصة للانتصار؛ لأن رحيلنا من شأنه أن يقوض الروح المعنوية لشعب الخمير والأفراد العسكريين.

أخبرت واشنطن أنه ينبغي لنا أن نغادر بنوم بنِه بسلسلة من رحلات المروحيات إلى تايلند المجاورة؛ حيث يمكن أن تكون الطائرات جاهزة لحمل الكمبوديين والأمريكيين وغيرهم من الأجانب إلى بر الأمان. وفي سلسلة من الرسائل، أعلمت القوات الأمريكية في هاواي (القيادة الأمريكية بمنطقة المحيط الهادي)، وفي واشنطن (الخارجية والدفاع) أنني لن أغادر بطائرات ذات أجنحة ثابتة؛ لأنه سيكون من السهل على الجميع رؤيتها، ولن نصل بأمان إلى المطار الذي كان يبعد أميالاً عدة عن السفارة. كان الهدف الأساسي السلامة. فإذا حاولنا نقل الناس بالسيارات إلى المطار لإخراجهم من بنوم بنِه، فيمكن أن نتعرض للهجوم من الخمير الحمر، أو حتى من الكمبوديين الذين شعروا بالمرارة؛ لأن الولايات المتحدة خذلتهم وتركتهم وحدهم لمواجهة الخمير الحمر.

وفكرت أيضاً بأننا عندما نغادر يجب أن نترك الباب مفتوحاً أمام إمكانية العودة. فلو استطعنا بطريقة ما إطلاق محادثات السلام للاتفاق على حكومة جديدة، فسنعود مرة أخرى. كانت تلك محاولة بعيدة جداً، ولكنني لا أومن بالاستسلام مادام ثمة أمل.

ناقش كبار المسؤولين في الإدارة مقاربتي. وقال وزير الدفاع جيمس شليزنجر لهنري كيسنجر إنني كنت أحاول أن أبهر الجمهور، وأبحث عن وسيلة للقيام بخروج واضح. وقال إن مقاربتي «معتوهة»، وعندما أخبر كيسنجر فيليب حبيب بتصريحات شليزنجر، اتخذ حبيب موقفاً عدوانياً، مذكراً بمحادثة كانت بيني وبينه. كنت قد قلت له: «إن طائراتنا تحت النار. لقد فقدوا طائرة أخرى في مطار بنوم بنِه الليلة الماضية. وقد قتل بضعة أفراد من الجيش الكمبودي هناك على بعد ميلين من المطار. فيل، إذا كنت ترغب في إنقاذ الأرواح، فافعل ذلك بهذه الطريقة». فأجاب فيل: «جون، لقد وضعت يدك على دواسة الوقود. افعلها بطريقتك».

وقال كيسنجر لحبيب إن شليزنجر كان يلعب لعبة واشنطن القديمة، موطّناً نفسه على أن يتفادى اللوم إن فشلت العملية. وقال كيسنجر: «إن حدث خطأ، فهو خطؤنا». وإن كان كل شيء على ما يرام، فلن يتذكر أحد نصيحة شليزنجر أو عباراته التنازلية.

كانت التساؤلات الواردة في برقيات واشنطن عن البقاء في كمبوديا بعد الخروج تبدو غبية. لم يكن في مقدوري أن أنجز أي شيء. كنت قد طلبت الدعم للتفاوض قبل ذلك بعام. لم يكن هذا هو الوقت للتفاوض. في بداية عام 1975، كان التفاوض على حل مايزال أمراً ممكناً، ولكن ليس في هذه المرحلة المتأخرة.

كما كنت قد قلت مائة مرة، كان المرجح أن تكون نتائج انتصار الخمير الحمر دموية. لم يكن ثمة شيء يرسو عنده الخمير الحمر. لا شيء يكبح تصرفاتهم. كانوا سيعتقلون المسؤولين والمتعاطفين مع نظام لون نول؛ ومن ثم إما أن يقتلوهم وإما أن يحتجزوهم كرهائن. وإذا لم يتوافر نوع من القوة لكبح جماح المتمردين، فسيكونون عنيفين وعشوائيين. هل كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد حقاً أن يصبح سفيرها من الرهائن، وإذلال الولايات المتحدة أمام العالم؟

هناك عدد قليل من الأمريكيين الذين تخلفوا هناك مثل سيدني شانبيرج Sydney Schanberg، مراسل صحيفة **نيويورك تايمز** المتميز، تخفوا في هيئة فرنسيين ليتمكنوا من البقاء على قيد الحياة والخروج من كمبوديا. ومن الواضح أنه لم يكن بإمكاني فعل ذلك.

كنت أرغب في إعطاء ممر آمن لجميع الذين كانوا يريدون المغادرة، والذين شعروا أن حياتهم في خطر. كان لدينا اختلاف في وجهات النظر مع واشنطن بشأن تحديد الأشخاص الذين تقع على سفارة الولايات المتحدة في بنوم بنِه مسؤولية حمايتهم. من الواضح، أن جميع الأمريكيين الرسميين وغير الرسميين كانوا مؤهلين للحصول على الإخلاء. وفي رد على استفسار حول مَن مِن الكمبوديين ينبغي أن نخرجه معنا، اقترحت واشنطن الكمبوديين في الحكومة والقوات الكمبودية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالولايات المتحدة، وجميع الكمبوديين من ذوي التعليم الجيد الذين شعرت واشنطن (وهي محقة في ذلك) بأنهم سيكونون مستهدفين من الخمير الحمر بمجرد أن يستولوا على السلطة. وقد أضافت بعثتنا استثناء من تلك البرقية، وهو أي شخص سيكون في خطر إن كان يعمل مع الأمريكيين، من الكمبوديين، أو رعايا دول أخرى، سواء كان أمياً أو يحمل درجة الدكتوراه.

اتفق فريق العمل لدينا على أن نأخذ كل شخص يريد الذهاب، وكل من تعد حياته عرضة للخطر عندما يستولي الخمير الحمر على السلطة. أخذنا المزارعين والفراشين والكوريين العاملين لدى بعثتنا والجنرالات والوزراء الكمبوديين، والكمبوديين المتعلمين. أحدهم، وهو عالم نووي كمبودي كان مايزال في بنوم بنِه، ذهب في وقت لاحق للعمل لدى هيئة الطاقة الذرية الفرنسية خارج باريس. كذلك أرسلت مروحيات إلى المحافظات لإعادة بعض أعضاء الصليب الأحمر الدولي. وقد عاد ستة عشر منهم إلى بنوم بنِه بواسطة طائرات مروحية أمريكية.

ذهبت لرؤية رئيس أساقفة بنوم بنِه في بداية العام. كان يعتقد أن كل رجال الدين والراهبات والرهبان، بغض النظر عن الجنسية، لن يكونوا في مأمن. وكان بعض الكهنة من الشباب الفرنسيين غير داعمين في خُطبهم للدور الأمريكي في كمبوديا. وبحلول نهاية مارس 1975، ناشدت المطران لكي يسمح لجميع الكهنة والراهبات والرهبان الكمبوديين الذين قد تكون حياتهم في خطر بالمغادرة في طائراتنا إلى تايلند في انتظار التطورات. وبعد قدر كبير من المناشدات استطعت إخراج نحو أربعين من الراهبات والرهبان على طائرة DC-8S إلى تايلند.

لم يتم رفض أي واحد ممن طلب الإخلاء، وحمدت الله أن بعض الناس قد غيروا رأيهم في النهاية ووافقوا على مغادرة بنوم بنِه.

استقال لون نول من الرئاسة في مطلع إبريل، وغادر كمبوديا إلى تايلند، وانتهى به المطاف في هاواي. وقد أخرجت الرئيس السابق لمجلس الشيوخ الكمبودي، سوكوم خوي Sokom Khoi، الذي تولى منصب رئيس الدولة عندما غادر لون نول إلى هاواي. كان سوكوم خوي رجلاً شريفاً وصادقاً وراغباً في إيجاد تسوية قائمة على حل وسط. ولم تسنح له الفرصة لكي يجرب المفاوضات. جاءت عائلته معنا، وبقي في بانكوك لفترة من الوقت قبل أن يستقر في الولايات المتحدة. أينما ذهب هؤلاء الكمبوديون الكهول فهو

بالنسبة إليهم منفى، وكانوا دائماً يفتقدون وطنهم. ولكن البقاء على قيد الحياة خير من الوقوع ضحية لفرق الموت التابعة للخمير الحمر.

في اليوم الذي غادرنا فيه بنوم بنِه، وهو 12 إبريل 1975، بعثت برسالة إلى سيريك ماتاك، عم سيهانوك، الذي كان قد لعب دوراً رئيسياً في حكومة لون نول، بأن الولايات المتحدة الأمريكية ستساعده على مغادرة البلاد إذا اختار ذلك. فأجاب برسالة مازالت تبعث قشعريرة في بدني:

عزيزي صاحب السعادة والصديق،

أشكركم من قلبي على رسالتكم وعرضكم لنقلي نحو الحرية. للأسف! لا أستطيع المغادرة بمثل هذه الطريقة الجبانة، أما بالنسبة إليكم، وعلى وجه الخصوص بلدكم العظيم، فأنا لم أعتقد للحظة أن شعور التخلي عن شعب اختار الحرية قد انتابكم. لقد رفضتم حمايتنا، ولا يمكننا أن نفعل شيئاً حيال ذلك.

أنتم تغادرون، وأمنيتي هي أن تجدوا أنتم وبلدكم السعادة تحت السماء. ولكن، لاحظوا جيداً، أنه إن كنت سأموت هنا على الفور وفي بلدي الذي أحبه، فهو أمر سيِّئ جداً؛ لأننا ولدنا جميعاً ولا بد أن نموت ذات يوم. إنما ارتكبت هذا الخطأ بإيماني بكم أنتم أيها الأمريكيون.

أرجو أن تتقبلوا، سعادتكم وصديقي العزيز، مشاعري الودية الصادقة.

سيريك ماتاك

ولم يكتب له البقاء على قيد الحياة.

أقلعت عشرات المروحيات من طراز CH-53 التابعة لمشاة البحرية من حاملة الطائرات «يو إس إس أوكيناوا» في خليج تايلند، وهبطت في ملعب كرة القدم بالقرب من

السفارة، ثم عدنا بالمروحيات ملأى إلى السفينة الحربية الأمريكية، ومن هناك طرنا إلى قاعدة أمريكية في تايلند.

كانت السفارة الأمريكية في بنوم بنِه مبنى مطلياً باللون الأبيض ومؤلفاً من "ثلاثة طوابق"، وقد أحيط بسور عالٍ وشاشات مصممة لاعتراض الصواريخ، وعندما وصلت هناك كانت تعج بالنشاط. كان لدينا 200 موظف في السفارة وأسرهم. وكان للدول الأخرى ممثلون في المدينة، وكنا نشاهدهم بانتظام. كما كنا نشاهد أيضاً رجال الأعمال، والعاملين في المنظمات غير الحكومية، كان هناك تدفق مستمر للسياسيين والسياح أيضاً.

في الأيام الأخيرة في إبريل 1975، كنا على وشك تنفيذ عملية. عملنا بشكل محموم لإنقاذ كمبوديا، ولكننا في أعماقنا كنا نشك في أن هناك إرادة في واشنطن للانخراط في مفاوضات مع العدو. ولذلك فإن كل ما أمكن القيام به هو الاستمرار في المحاولة، واتخاذ الترتيبات اللازمة لخروج كريم بقدر الإمكان.

كانت تلك الأيام الأخيرة تعج بالفوضى. أردنا أن نتوخى العدل في طريقة مغادرتنا؛ ولذلك وضعنا القواعد نفسها للجميع. كان بإمكان كل شخص أن يأخذ حقيبة واحدة على متن المروحية والطائرة. عملنا بشكل محموم؛ حيث أحرقنا الوثائق ودمرنا الملفات التي تحتوي على معلومات سرية. فعلنا قصارى جهدنا لحزم الأمتعة الشخصية، والكتب، والسجاد، والحلي لشحنها، ولكن معظم الأشياء بقيت وراءنا.

كان الإجهاد البدني شديداً. فقد فقدت 20 رطلاً منذ وصولي إلى بنوم بنِه، وصرت سريع الغضب في نهاية أيام طويلة عندما أخفقت كل محاولاتي لإنقاذ الوضع. اضطر نائبي روبرت كيلي - وهو من الشخصيات العظيمة في الدبلوماسية المعاصرة - إلى المغادرة فترة من الوقت لعلاج قرحة نازفة، لكنه عاد لكي يغادر. وأصيب موظف آخر في السفارة بأزمة قلبية، وتمت إعادته إلى واشنطن لشغل وظيفة مكتبية. وانهار أحد رجالنا، وهو رئيس بعثة المساعدة الاقتصادية التابعة للوكالة الدولية للتنمية، هو توماس أولمستيد، ومات من التهاب البنكرياس.

كان للولايات المتحدة، إلى جانب الفرنسيين، آخر بعثة أجنبية عاملة في بنوم بنِه، ولذلك لم يبقَ هناك أحد لكي يواسي أحداً أو يضع خططاً غير الصحفيين.

في يوم الجمعة، المصادف 11 إبريل، علمت أن الرئيس فورد اتصل بنوردوم سيهانوك في الصين، وطلب منه أن يذهب إلى كمبوديا لإنقاذ بلاده. فقال: لا.

في اليوم اللاحق، خرجت الولايات المتحدة من كمبوديا.

كنا قد وضعنا إجراءات تم بموجبها إعلام كبار الزعماء الكمبوديين لإرسال مساعد أو سكرتير إلى السفارة الأمريكية في الساعة 6:00 صباحاً كل يوم لمعرفة الوضع والقرار الذي اتخذناه بشأن أخذ الناس إلى بر الأمان. وظل هذا النظام يعمل بشكل جيد حتى اليوم المشؤوم، 12 إبريل 1975، عندما قررنا مغادرة بنوم بنِه على متن مروحية. في الساعة السابعة صباحاً، أرسلنا أشخاصاً من قبلنا إلى الفنادق والمنازل التي كان موظفو السفارة والصحفيون وغيرهم نائمين فيها. طرقوا الأبواب وهم يقولون: «انهضوا! نحن راحلون! استدعوا أي شخص تريدون استدعاءه، وخذوا أي شخص ترغبون في أخذه! اذهبوا إلى السفارة على الفور! أحضروا حقيبة واحدة فقط! لا أحد يحصل على أكثر من حقيبة واحدة!».

تحرك الناس بسرعة. لقد عرفوا على مدى أسابيع أن هذا اليوم سيأتي قريباً. وحينما طوقت قوات مشاة البحرية السفارة، حماية للمنطقة من نيران العدو، قام جنود آخرون بإرشاد الناس إلى المروحيات. وجاءت المروحيات الواحدة تلو الأخرى، إلى ملعب لكرة القدم بالقرب من السفارة. احتج بعض الناس وضغطوا في محاولة لأخذ أكثر من حقيبة واحدة. لكن الأكثرية قبلوا القواعد من دون تعليق.

كنت أريد أن أكون آخر أمريكي يخرج من البلاد. من المهم أن يطمئن الشخص المسؤول إلى أن الجميع قد نالوا العناية اللازمة قبل مغادرته. وأخيراً؛ أي في الساعة 10:30، وبعد خمس وثلاثين رحلة للمروحيات، حان الوقت للذهاب.

بطريقة ما، كان علي أن أدل على كرامة البعثة الأمريكية في تنفيذ المهمة الموكلة لنا. كنا جميعاً في السفارة نهتم ببلدنا، كما كنا نهتم ببعثتنا في كمبوديا. كان علينا أن نفعل شيئاً لإظهار أننا خارجون بحس وطني.

في انتظار أن تتم دعوتي إلى الانتقال إلى موقع الإنقاذ، جلست في مكتبي مدركاً تماماً معنى تلك اللحظة لبلدنا. قرأت الرسالة من سيريك ماتاك، التي كانت قد وصلت قبل نحو خمس وأربعين دقيقة. ونظرت من النافذة، فرأيت قوات المارينز تأخذ الناس إلى المروحيات وإلى بر الأمان. شاهدت موظفي السفارة يسعون لبذل كل ما في وسعهم لمساعدة أولئك الذين قد ألقوا بمصيرهم في أيدينا. عمل العديد طوال الليل في إعداد الرسائل، التي تم صوغها على يد بوب كيلي، ليتم تسليمها في الساعات الأولى من صباح 12 إبريل، متضمنة العرض الرامي إلى أخذ الناس إلى بر الأمان. لم يتم خذلان أحد في عملية الإجلاء، بمن في ذلك وفي آخر لحظة، محرر أخباري كمبودي للصحفي سيدني شانبيرج كان يعمل لدى **نيويورك تايمز**. أخذنا الرعايا الأجانب الذين كنا مسؤولين عنهم، بل حتى من لم تكن لدينا مسؤولية عنهم. أخذنا الصديقات الكمبوديات لبعض موظفينا الكمبوديين العزاب. وطلبت إلى جنودنا المقيمين ومشاة البحرية المسؤولين عن الإجلاء أن يقوموا بإخراج أي شخص يريد الذهاب معنا.

في مرحلة ما، أخذت مقصاً وفصلت العلم الأمريكي وعلم السفارة عن العمودين في الجزء الخلفي من مكتبي في مكتب السفير. كنت أحاول أن أجد طريقة لتوفير شكل ما من أشكال الحماية لرموز بلادنا وللشعب الذي كنت أمثله في كمبوديا. كانت الدموع تنحدر على وجنتي. كنت وحدي. أخذت العلمين، ووضعتهما على ذراعي. وحصلت على غطاء من البلاستيك لئلا يبتلا بالماء. وفي طريقنا إلى طائرات الهليكوبتر، توقفت عند مقر إقامتي حيث كان العلم الأمريكي يرفرف وأنزلته، ووضعت هذا العلم الثالث مع العلمين الآخرين ومشيت إلى المروحيات التي كانت في الانتظار والأعلام الأمريكية فوق ذراعي.

ظهرت صور لي وأنا متجهم أحمل الأعلام على الصفحات الأولى من الصحف والمجلات في جميع أنحاء العالم. قال بعض الناس إنها كانت صورة للهزيمة الأمريكية. وقال آخرون إنها كانت صورة للوطنية الأمريكية. لقد كانت كلا الأمرين.

من بنوم بنِه، طرت إلى «يو إس إس أوكيناوا». اتصل الرئيس فورد ليشكرني وموظفي السفارة على عملية الإجلاء المنظمة من قبلنا، ثم من هناك إلى تايلند؛ حيث التأم شملي بزوجتي. مكثت في السفارة الأمريكية في بانكوك مدة ثلاثة أسابيع، وكتبت تقارير حول ما حدث، والآفاق والاحتمالات للأيام الأخيرة للنظام المدعوم أمريكياً.

كانت التجربة الكمبودية أحد المواجع بالنسبة إلينا جميعاً نحن الذين خدمنا هناك. وسواء كنا سكرتارية أو جنرالات أو سفراء أو كتبة، فقد بقينا على اتصال لفترة طويلة.

في أثناء وجودنا في بانكوك، اجتمع جميع أولئك الذين خدموا معاً في كمبوديا: الأمريكيون والكمبوديون، آخر مرة في قارب نزهة نهري لنودع بعضنا بعضاً. وقد طلب إلي التحدث، بوصفي قائداً للفريق المؤلف من 200 شخص. فشكرتهم على ما قاموا به، وعلى الخدمة الباسلة التي قدموها لبلادنا. وختمت كلمتي في تلك المناسبة باقتباس من مسرحية هاملت لشكسبير، الفصل 1، المشهد 3؛ حيث يخاطب بولونيوس ابنه لارتيس:

وهذا أذكره فوق كل شيء:

كن صادقاً مع نفسك، وإذا فعلت، تلا ذلك، كالليل يتلوه النهار،

إنك لن تكون كاذباً مع أحد.

وداعاً، وليُثمر هذا النصح فيك ببركتي

أصبح هذا الاقتباس فكرة مهمة متكررة بقية سنوات عملي في السلك الدبلوماسي.

بعد أربعة أشهر؛ أي في 14 أغسطس 1975، بعث الرئيس فورد لي بأعز رسالة تثلج الصدر، قال فيها: «أريد أن أشيد بك وبموظفيك لقيادتك الباسلة وخدمتك في عملية الإجلاء الناجحة للأمريكيين من بنوم بنِه»، ومضى يقول فيها: «وعند استعراض الأحداث التي شهدتها أشهرنا القليلة المأساوية في الهند الصينية، يمكنني أن أنظر بعين الفخر إلى نكرانك للذات وتفانيك؛ الأمر الذي يتماشى على نحو ملائم مع التضحيات الأمريكية في العقد الماضي. لقد أوكلت إليك إحدى أصعب المهمات في تاريخ السلك الدبلوماسي، وقد قمت بأدائها بامتياز».

سقطت فيتنام الجنوبية يوم 30 إبريل 1975. ولم يتم الخروج الأمريكي من سايجون بالسلاسة التي تم بها خروجنا، ولم يكن ذلك عن وجود خطأ من السفير جراهام مارتن. فقد كانت مهمته أصعب من مهمتنا. كان لدينا متسع من الوقت للتخطيط لخروجنا على مدى أسابيع. وكان لديه عدد أكبر من الناس لإجلائهم. كان لدينا عدد أكبر من طائرات DC-8 للقيام بهذه المهمة خلال الأسابيع والأشهر التي سبقت الإخلاء. ولعل الأهم من ذلك، أنه كان هناك شيء أشد دماراً بشأن الخسارة الأمريكية في فيتنام. كان من المفهوم دائماً أن كمبوديا هي بمنزلة «حدث جانبي»، أما فيتنام فكانت هي الحدث الرئيسي. عندما غادر جراهام وزملاؤه الشجعان سايجون، فقد تحملوا العبء الأكبر لجميع إخفاقات الولايات المتحدة في المنطقة.

بعد خمسة أيام من مغادرتنا، سقطت بنوم بنِه في أيدي الخمير الحمر. وقد أعرب مسؤولون حكوميون عن تحديهم، ولكن هزيمتهم كانت حتمية. وافق لونج بوريت على التنحي؛ فلا استسلام ولا انتخابات ديمقراطية.

ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ليطلق الخمير الحمر العنان للشراسة الكاملة لسلطتهم الجديدة.

لم يكن مستغرباً أن الأمير سيريك ماتاك كان من ضحايا عمليات الإعدام في وقت مبكر؛ فقد كان لجأ إلى السفارة الفرنسية، فحاصر الخمير الحمر السفارة وتعهدوا بقطع

جميع الإمدادات ما لم يغادر جميع المواطنين الكمبوديين المبنى. فخرج سيريك ماتاك باعتزاز، متحدياً الخمير الحمر، فأطلقوا عليه النار في عملية إعدام عامة بالقرب من فندق جراند هوتل في وسط بنوم بنِه.

كان لونج بوريت قد بقي في كمبوديا، ظناً منه أنه يمكن أن يكون هناك نوع من الحوار مع الخمير الحمر، وعندما أدرك أن هذا كان مستحيلاً، أسرع إلى المطار مع عائلته في سيارة جيب في محاولة للخروج من البلاد. وعندما وصلوا إلى المطار، صعدوا في مروحية مع بعض ضباط الجيش. فقام أحد الضباط بدفعه بوحشية خارج المروحية، فقبض الخمير الحمر على لونج بوريت وعائلته وقتلوهم جميعاً.

كان الأسقف الكمبودي في بنوم بنِه قد قرر البقاء أيضاً. فقد كان راعي الكنيسة، ولم يكن يريد أن يترك رعيته وراءه. أطلق الخمير الحمر النار عليه حالما تمكنوا من القبض عليه.

وفي السنوات الخمس اللاحقة، قتل الخمير الحمر أكثر من مليون ونصف المليون من الكمبوديين، وهذه أسوأ إبادة جماعية منذ ألمانيا النازية. قام الخمير الحمر بإفراغ المدن، وأجبروا الصغار والكبار على القيام بمسيرات طويلة إلى الأرياف، وأطلق الجنود النار على الذين تخلفوا أو أغضبوهم لسبب من الأسباب، وأجبروا الناجين على مواصلة السير فوق جثث الموتى. وقد استهدف الخمير الحمر بشكل خاص أي شخص لديه أي علاقات مع الحكومة السابقة، أو الفيتناميين، أو المثقفين. كان الله في عون أي شخص كان يرتدي نظارات.

وقعت الإبادة الجماعية في معظمها بعيداً عن أعين بقية العالم الذي كان قد صرفه السأم عن المشاهدة على أي حال. ولكن عندما لملم الصحفيون ونشطاء حقوق الإنسان أطراف القصة الحقيقية، لم يسعْ كثيراً من الناس إلا أن يهزوا أكتافهم استغراباً. فكان اليساريون غالباً ينتحلون الأعذار على غرار حجة عدم القدرة على تحضير العجة من دون

كسر البيض، أما المحافظون فتأففوا مُبدين انزعاجهم من أن الإبادة الجماعية أكدت شكوكهم حول اليساريين بشكل عام. وقد جهر عدد قليل من الأشخاص الشجعان بآرائهم، وسعوا إلى حل دولي.

كنا نعرف قبل مغادرتنا أن كمبوديا كانت تواجه أزمة بقاء كبرى في الأيام الأولى من نظام الخمير الحمر. وبصرف النظر تماماً عن وحشية الخمير الحمر، فإنهم لم يكن لديهم القدرة على إدارة الاقتصاد أو تأمين الغذاء للناس الذين يحتاجون إليه. وكنت قد ضغطت على مدى أسابيع قبل الإجلاء، بأنه ينبغي لنا وضع برنامج إنساني للطوارئ لحماية الكمبوديين من الموت جوعاً.

لم يكن أحد يعرف أن الخمير الحمر قد أفرغوا بنوم بنِه وغيرها من المدن؛ حيث أجبروا الأصحاء والضعفاء معاً على السير ميلاً بعد ميل تحت ظروف غير إنسانية. ولكن هذا ما حدث. ولعله كان سيحدث سواء قمنا بمهمة إنسانية أو لم نقم بها. لكنني لا أعلم ذلك بشكل يقيني.

بعد مغادرة بنوم بنِه، زدت جهودي لإقناع واشنطن بالوفاء بمسؤوليتها الأخلاقية لرعاية اللاجئين وإطعام الذين نزحوا بسبب الحرب. كان موقفي أنه إذا كنا بحاجة إلى العمل مع الخمير الحمر، فلا مانع من ذلك. «إننا على شفا كارثة إنسانية ما لم نتحرك بسرعة لتجنب ذلك»، هذا ما كتبته من بانكوك في 13 إبريل، فالولايات المتحدة هي وحدها القادرة على تقديم ما بين 600 و1000 طن من الغذاء يومياً، و«أعتقد أننا يجب ألا ندخر وسعاً، بقدر ما يمكن لحكومة الولايات المتحدة أن تسهم في حل منظم لحل مأساة الخمير».

لكن واشنطن قالت لا. وفي 16 إبريل، وصلتني برقية من وزارة الخارجية: «نحن لا نرغب في إقامة اتصال مع الخمير الحمر؛ ولذا لا يجوز لك أن تبذل أي جهد للاتصال بهم. نحن نحافظ على العلاقات مع حكومة جمهورية الخمير، وأنت تستمر بكونك معتمداً

لتلك الحكومة. وعندما لا تعود هي الحكومة فسوف ننظر كيف ستكون سياستنا تجاه خليفتها، وكيف سنتعامل معها».

إن الخسارة لا تحدث بسهولة للأمريكيين. لقد أدى فشل السياسة الأمريكية في جنوب شرقي آسيا إلى إيجاد جيل من الفوضى والتشويش بتوجيه من أصحاب الأيديولوجيات من اليمين واليسار معاً، ولعل الأمر الأكثر أهمية أنه موجه بحافز البراءة الدائمة للشعب الأمريكي.

أشار أليكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville في كتابه الشهير **الديمقراطية في أمريكا** إلى أن الافتقار إلى تاريخ و«التساوي في الظروف» أسهما في صوغ شكل كل جانب من جوانب الحياة في الولايات المتحدة؛ فأمريكا تفتقر إلى الجذور التاريخية الموجودة في كل مكان آخر في العالم. وإذا كنت تصنع أمراً في الولايات المتحدة فهو بسبب ما تفعله الآن، لا بسبب ما فعله بعض الأسلاف على الأرض نفسها قبل ثلاثة قرون. فالجميع لديهم فرصة. هذا ما أذهلني كثيراً بشأن الغرب الأوسط عندما انتقلت هناك كصبي. كان كل شيء مفتوحاً وملائماً. ولعل ذلك كان هو أحد الأسباب الذي يجعل المهاجرين يستمرون في التدفق على الولايات المتحدة عاماً بعد آخر.

نحن شباب إلى الأبد، ونعتقد أننا نستطيع فعل أي شيء، تماماً مثل المراهقين، ونمجد أنفسنا والأشياء التي نحبها. وعندما نخفق نجد صعوبة في فهم الإخفاق، وكذلك لدينا صعوبة أيضاً في فهم عمق مآسي الآخرين.

لقد أخفقت أمريكا في جنوب شرقي آسيا، وماتزال لا تلتفت إلى ذلك الإخفاق. إننا نقوم برحلات إلى نصب فيتنام التذكاري المهيب في واشنطن، ونندب 55,000 من قتلانا. ونحن نبذل كل جهد للبحث عن الأسرى والمفقودين، حتى عندما لم يكن هناك دليل حقيقي على أن أياً منهم باقٍ على قيد الحياة. إننا نناقش، في لفتات عاطفية وأخلاقية، مَن الذي خسر فيتنام. وفي كثير من الأحيان يكون الأمر كأنه طرح يقوم على ثنائية إما

أسود وإما أبيض. ويقول الليبراليون إننا خسرنا؛ لأننا لم نكن ننتمي إلى هناك، بل إن المهمة العسكرية-الصناعية-الرأسمالية-الاستعمارية هي التي أتت بنا إلى هناك. ويقول المحافظون إننا خسرنا؛ لأننا لم نعطِ الجيش السلطة للقيام بكل ما يلزم لكسب الحرب.

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة. فقد خسرنا لأننا اتبعنا بشكل أعمى أيديولوجية الحرب الباردة منذ الخمسينيات. فقد أعطينا قيمة استراتيجية كبرى لأرض نائية متخلفة. وبعد أن أصبحنا هناك، خدعنا أنفسنا حول دوافع العدو وصموده، وفي بعض الأحيان لم نحترمهم على الإطلاق، وأحياناً كان يراودنا شعور جيد حيالهم. كذبنا على أنفسنا بشأن سير الحرب. رفضنا بعناد إيجاد وسيلة للخروج من الصراع. نحن وسّعنا الصراع إلى البلدان المجاورة، وقوضنا النسيج الهش لمجتمعاتها، ونحن لوينا مؤسساتنا الديمقراطية لكي نحفظ ماء وجهنا.

ارتكبنا أخطاء كثيرة.

لقد أخفق الجميع في مرحلة ما. أخفق البريطانيون في الهند. أخفق الفرنسيون في الهند الصينية. وأخفق البريطانيون والفرنسيون والبرتغاليون في إفريقيا. وأخفق الإسبانيون والبرتغاليون في أمريكا الجنوبية. ولكن معظم هذه «الجهود الفاشلة» - بالمصطلح التاريخي - كان لها مع ذلك أثر عميق في التنمية والثقافة في المناطق التي حدثت فيها مبادرات خارجية. ينبغي أن يتعلم الجميع كيف يتعاملون مع عواقب الجهود الفاشلة، حتى تلك التي تُبذل بأفضل النيات.

لن أكون صادقاً مع نفسي إن لم أختم هذا الفصل ببضع كلمات بشأن علاقتي الشخصية بالدكتور هنري كيسنجر. لقد اختلفنا حول عدد من قضايا السياسة الخارجية، ولاسيما السياسة الأمريكية تجاه كمبوديا. ولكن بوصفي مسؤولاً في السلك الدبلوماسي الأمريكي، أود أيضاً أن أعترف بالإسهامات الكبيرة التي بذلها الدكتور كيسنجر في السياسة الخارجية للولايات المتحدة، عن طريق إقامة علاقة جديدة مع الصين الشعبية،

واستكشاف إمكانيات الانفراج مع الاتحاد السوفيتي؛ ولذا، فإنني بكل الاحترام والامتنان أود أن أختم هذا الفصل بالاستشهاد برسالة الدكتور كيسنجر لي حينما ترك منصبه العام في مطلع عام 1977. كانت الرسالة المؤرخة في 18 يناير 1977، قد أرسلت إلى السفارة الأمريكية في كوبنهاجن؛ حيث كنت قد تم تعييني سفيراً من إدارة فورد. وفيما يأتي نص رسالته:

> لم أكن أريد أن أترك منصبي من دون أن أعبر لك شخصياً عن تقديري وإعجابي بإسهامك في سياستنا الخارجية خلال السنوات القليلة الماضية. لقد خدمت بشرف ونزاهة، وسوف أتذكر بصورة خاصة الرزانة التي تصرفت بها خلال الأيام العصيبة لانسحابنا من كمبوديا. ويمكنك أن تفخر بالخدمة التي قدمتها لبلدك، وأتمنى لك كل التوفيق في المستقبل.



جون جونتر دين يلتقي موديبو كيتا، أول رئيـس لمالي عام 1960. وعلى الطاولة رسالة من وزير الخارجية الأمريكي بتعيين دين قائماً بالأعمال بصفة أصيلة ودائمة.



زوجة دين، مارتين، تسلم على زوجة سيلفانوس أولمبيو، أول رئيس لجمهورية توجو، في العاصمة لومي، عام 1960.



جون دين (في اليسار) يرافق السيناتور روبرت كينيدي عندما زار باريس في أواخر يناير عام 1967. وقد تلقى السيناتور كينيدي في أثناء زيارته، عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية «إشارة السلام» من فيتنام الشمالية؛ الأمر الذي كان يعني ضمناً أنه إذا توقفت الولايات المتحدة عن قصف فيتنام الشمالية، فإنه يمكن أن تكون هناك «محادثات مباشرة مع هانوي»، بشأن مستقبل العلاقات بين فيتنام والولايات المتحدة الأمريكية.



جون دين ورئيـس الوزراء سوفانا فوما يحتفلان في منزل الأخير بعد أن قام دين بالمساعدة في إخماد انقلاب ضد الحكومة الشـرعية في لاوس في سبتمبر 1973.



جون دين يحيّي ملك لاوس في قصـر الملك في لوانج برابانج عام 1973.



جون دين يجتمع مع الوزير هنري كيسنجر في وزارة الخارجية في عام 1974، بعد تعيين دين سفيراً للولايات المتحدة في كمبوديا عقب عودته من لاوس.



جون دين يقدم أوراق اعتماده سفيراً للولايات المتحدة في كمبوديا إلى الرئيس لون نول في 3 إبريل 1974، في بنوم بنِه.



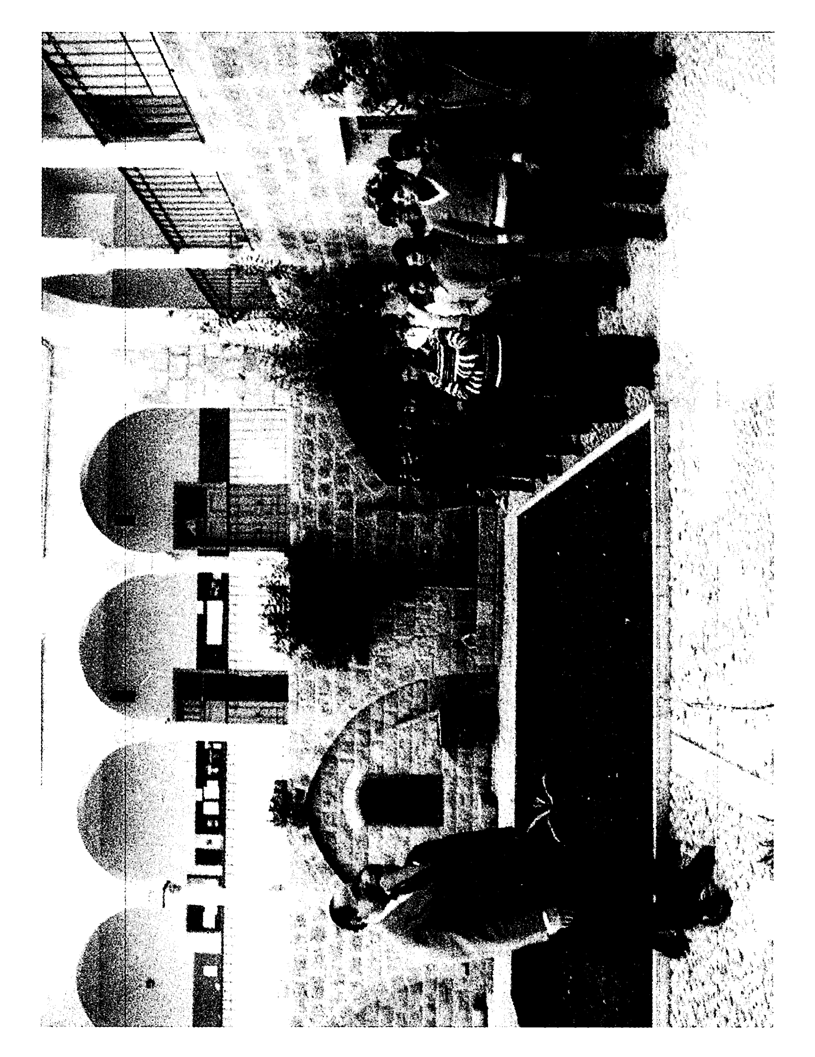
السفير جون دين يحمل العلم الأمريكي من سفارة الولايات المتحدة في كمبوديا عند وصوله إلى قاعدة أوتاباو الجوية في تايلند عقب الإجلاء بطائرة هليكوبتر من بنوم بنِه في 12 إبريل 1975. ظهرت الصورة على صفحات الجرائد الأولى في جميع أنحاء العالم. يظهر هنا غلاف عدد مجلة **نيوزويك** الأمريكية بتاريخ 21 إبريل 1975.



الرئيس فورد يتحدث مع السفير جون دين، وملكة الدنمارك مارجريت الثانية، ونائب الرئيس روكفلر في البيت الأبيض عام 1976، خلال زيارة الملكة الدنماركية إلى الولايات المتحدة بمناسبة الذكرى المئوية الثانية لقيام أمريكا.



السفير الأمريكي لدى لبنان جون جونتر دين يجتمع مع وزير الخارجية سايروس فانس عام 1980.



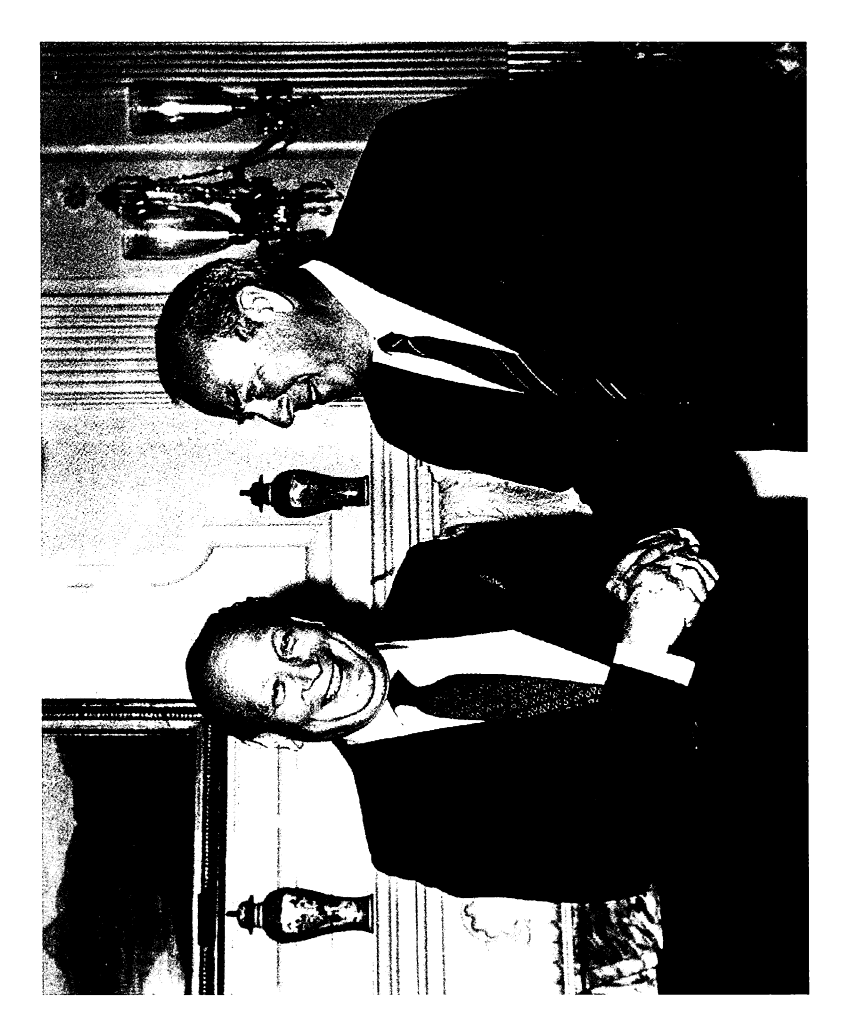
السفير جون دين يزور مدرسة في شمال لبنان عام 1980.



السفير جون دين يزور ديراً عام 1980 برفقة زوجته مارتين (في اليسار) وأمين الجميل (على اليمين)، الذي سيصبح لاحقاً رئيساً للبنان.



السفير جون دين يجتمع مع ملك تايلند بوميبول في مكتب قصر الملك في بانكوك عام 1982.



وزير الخارجية جورج شولتز يهنئ السفير الجديد للهند جون دين عام 1985.



رئيس وزراء الهند راجيف غاندي يزور الرئيس رونالد ريجان في البيت الأبيض خلال زيارة إلى واشنطن، يرافقه السفير جون دين (وسط) في 20 أكتوبر 1987.



نائب الرئيس جورج بوش الأب يستقبل السفير جون دين في مكتبه بواشنطن عام 1987
ويكتب على صورة لقائهما: «استمر في العمل العظيم هناك في الهند».



السفير جون دين يقدم احترامه للأم تيريزا في كلكتا في الهند عام 1988.



روزالين والرئيس السابق جيمي كارتر يستقبلان جون جونتر دين في إبريل عام 2007 في مركز كارتر في أتلانتا، الذي يضم وثائق دين والتاريخ الشفوي.

الفصل السابع

بوتقة لبنان

في أمسية دافئة في أواخر صيف 1980، حدثت لي إحدى أكثر التجارب المقلقة في حياتي.

لقد كنت هدفاً لمحاولة اغتيال من قبل إرهابيين باستخدام بنادق آلية وأسلحة مضادة للدبابات كانت قد تم صنعها في الولايات المتحدة الأمريكية وشحنها إلى إسرائيل. فقد استُخدمت أسلحة ممولة ومهداة من الولايات المتحدة إلى إسرائيل في محاولة قتل دبلوماسي أمريكي!

وفي 27 أغسطس 1980، كنت أنا وزوجتي نستقل سيارة من منزلنا الذي يطل على مدينة بيروت إلى الجامعة الأمريكية في بيروت؛ حيث كنا ننوي أن نتناول العشاء مع رئيس الجامعة. كانت أمسية جميلة، حوالي الساعة 6:45 مساءً، حين كان مايزال هناك ضوء النهار في الخارج. كانت ابنتنا، كاترين، وخطيبها وليام كورتيس، يستقلان السيارة الأولى ضمن قافلة من ثلاث سيارات. كنا في السيارة الثانية، وقد انعطفنا يساراً في شارع دمشق. لم نلاحظ سيارة ليموزين بيضاء على جانب الطريق، ولكن رجال حرسنا الشخصي أخبرونا في وقت لاحق أنهم لاحظوها وشكوا فيها على الفور.

فجأة انطلقت من الأعلى نيران بنادق سريعة، مستهدفة سيارتي. وعلى الجانب الأيمن من السيارة كانت هناك هضبة، أطلق المهاجمون النار منها على السيارات. كانت قوة النيران من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات - البازوكا، بشكل أساسي - قوية بما يكفي لاختراق السيارة. وقد خلص المحققون لاحقاً إلى أن القتلة كانوا يستخدمون البازوكا في محاولة لفصل سقف السيارة حتى يتمكنوا من إطلاق النار مباشرة على هدفهم - وهو أنا - قبل أن يستطيع أي فرد من حرسنا الرد.

أصابت الرصاصات من نيران البنادق السيارة الأمامية؛ حيث كانت كاترين ووليام يستقلانها. أصيبت وانفجرت إطاراتها؛ ما جعل السيارة تتوقف بشكل مفاجئ، ثم أصابتنا الطلقات؛ أولاً في الجانب الأيمن من السيارة، ثم في أرضيتها. ألقت زوجتي مارتين نفسها فوقي وصاحت: «انبطح».

كانت نوافذ السيارة من الزجاج المقاوم للرصاص لمعظم الهجمات، ولكن ليس دائماً ضد هذا النوع من النيران. ولسبب ما، ولعله زاوية إطلاق النار، لم يخترق الرصاص السيارة، ولكنه أصاب الإطارات بالفعل. ولحسن الحظ، كانت السيارة مجهزة بإطارات تنتفخ تلقائياً، ومصممة خصيصاً لهذا النوع من حالات الطوارئ. وفوق هذا كله، فقد أصيب موكب سياراتنا بإحدى وعشرين طلقة واثنين من الصواريخ التي ارتدت عن المصد الخلفي.

حينما قاد سائقي السيارة مبتعداً - فقد تلقى رجال الأمن تعليمات مشددة بحماية السفير مهما كلف الأمر وبغض النظر عما يحدث لأي شخص آخر - كانت الصواريخ التي أطلقت من الأسلحة الخفيفة المضادة للدبابات تسقط على الأرض. نظرنا من خلال النافذة الخلفية، ورأينا ما يشبه عرض الألعاب النارية المذهلة.

كانت السيارة الأمامية مدمرة. وقد خرجت منها كاترين، ووليام، والسائق، ورجل الأمن، تحت إطلاق النار، وجروا للنجاة بأنفسهم إلى السيارة الثالثة.

بينما كان هذا كله يحدث، قام أحد رجال الأمن في السيارة الثالثة برش التلال التي انبعث منها إطلاق النار، وفرّغ 20 دفعة من الطلقات من بندقيته الرشاشة. لاذ المهاجمون بالفرار، تاركين وراءهم أسلحتهم وفوارغ الطلقات من الهجوم.

في غضون دقائق، عادت سيارتنا إلى السفارة. وحالما وصلنا إلى هناك، انهارت السيارة. كان الأمر تقريباً كما لو أنها استجمعت قواها فترة كافية للعودة بنا إلى بر الأمان؛ ومن ثم انهارت من الإرهاق.

لم يكن ذلك أول هجوم على دبلوماسي أمريكي في لبنان. ففي عام 1976، تم خطف السفير فرانسيس ميلوي، والمستشار الاقتصادي روبرت ويرينج، إضافة إلى سائق، وقتلهم وهم في طريقهم من بيروت الغربية إلى بيروت الشرقية للاجتماع مع الرئيس الجديد للبنان. كانوا مارين من خلال موضع يعد واحداً من أكثر أجزاء المدينة تعرضاً للنزاعات عندما تم إيقاف سيارتهم. تم إطلاق النار على ميلوي وويرينج وتُركا في موقع قريب. وفي وقت لاحق ساعدنا ياسر عرفات، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، على استرداد جثمانَيْ هذين الدبلوماسيين الأمريكيين. لا أحد يعرف حتى اليوم من الذي ارتكب الجريمة، ولكن معظم المراقبين يُعفي منظمة التحرير الفلسطينية الرئيسية من المسؤولية عن القتل.

إن كون المرء هدفاً لمحاولة اغتيال، كان تجربة مروعة. أصيبت كاترين بصدمة. وماتزال ترتعش عندما تفكر في الهجوم بعد مرور ربع قرن من الزمان تقريباً عليه. ولكن ما يهزني هو آثار هذه الحادثة.

بعد محاولة الاعتداء على حياتي، قمت بشغل الهاتف لمدة ثلاثة أسابيع، في محاولة لمعرفة ما حدث من واشنطن.

وفي الوقت نفسه، امتلأت الصحف بقصص مثيرة عن الهجوم، وذكرت بعض الصحف اللبنانية أن الحكومة اللبنانية لم تستبعد احتمال تورط جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، الموساد. وزعمت صحف أخرى أن مسيحيين تربطهم علاقات وثيقة بإسرائيل قد فعلوا ذلك. وسواء كانوا وكلاء لبنانيين أو عملاء إسرائيليين، فقد خلصت وسائل الإعلام إلى أن جميع الأدلة تشير إلى أن الإسرائيليين كانوا وراء الهجوم.

لكنني لم أستطع الحصول على جواب فوري من حكومة بلدي حول من حاول قتلي. قلت عندما اتصلت وزارة الخارجية: «يا شباب، كدت أُقتل. هل يمكنكم معرفة ما حدث؟»، برغم كل محاولاتي الجاهدة، فإنني لم أستطع الحصول على إجابة مباشرة من وزارة الخارجية حول ما كشفت عنه تحقيقات حكومة الولايات المتحدة. حصلت على

جميع أنواع الرسائل اللطيفة من الرئيس وآخرين، قائلين، في الواقع، «جون، ألا يبعث الراحة في نفوسنا أنك مازلت حياً!». لكن لم يقل أحد شيئاً آخر. وأُمرت ببساطة باستئناف مهماتي كسفير. لم يكن ذلك سهلاً عندما علمت ما اكتشفه جهاز المخابرات اللبناني.

قام أفراد المخابرات اللبنانية بسرعة بتمشيط منطقة الهجوم والعثور على الأسلحة والذخيرة التي خلّفها المهاجمون. وعندما أرسلت أرقام الأسلحة الفردية التي استخدمت إلى واشنطن، علمت أنني تعرضت للهجوم بأسلحة أمريكية الصنع تم شحنها إلى الحكومة الإسرائيلية. كانت المعلومات دقيقة. فقد تضمنت اسم السفينة وتاريخ إبحار السفينة إلى إسرائيل، وأعداد الأسلحة المضادة للدبابات الخفيفة في الشحنة التي شملت الصاروخين اللذين استخدما ضد سيارتي في بيروت.

إن كل قطعة من الأسلحة في العالم موسومة بالأرقام التي تحدد أين تم تصنيعها ومن قام بتصنيعها. وقد أظهرت هذه الأرقام، دونما شك، أن الأسلحة كانت قد أرسلت من الولايات المتحدة إلى إسرائيل، التي قامت بشحنها إلى ميليشيا مسيحية لبنانية حليفة. وأنا أعلم تماماً أن الموساد، وهو جهاز الاستخبارات الإسرائيلي، كان متورطاً بشكل ما في الهجوم. ومما لا شك فيه أن حليفتنا إسرائيل حاولت قتلي، بواسطة وكيل عنها.

تشير هجمات بذيئة علي في الكنيست الإسرائيلي والصحافة الإسرائيلية قبيل محاولة الاغتيال إلى أن السلطات الإسرائيلية كانت غير راضية عن الدور الناشط الذي لعبته في لبنان، بالدفاع عن سيادة لبنان والمحافظة على علاقة نشيطة مع منظمة التحرير الفلسطينية؛ وهي السياسات ذاتها التي كلفني رئيس الولايات المتحدة باتباعها. وقد صورني الكلام المسمم في الكنيست الإسرائيلي من جانب الأحزاب اليمينية بأني أداة للفلسطينيين. ولأنني كنت حريصاً، وعلى استعداد، لإجراء محادثات مع جميع الفصائل في الحرب الأهلية في لبنان، فقد دارت الشكوك حولي بأني معادٍ لإسرائيل.

كيف وصل الوضع في الشرق الأوسط إلى نقطة يمكن أن يتعرض فيها ممثل دبلوماسي للولايات المتحدة، أعظم نصير ومؤيد في العالم لإسرائيل، لهجوم من إسرائيل؟ وكيف وصل الوضع إلى النقطة التي لا تود فيها الحكومة الأمريكية أن تعمل بنشاط لكشف الحقيقة وراء محاولة اغتيال لمسؤول تابع لها؟

كانت التكهنات الأولى بأن الفلسطينيين وراء الهجوم، ولكن ذلك لم يكن ممكناً. فقد وقع الهجوم في منطقة خارج سيطرة الفلسطينيين. ولتنفيذ هجوم من هذا القبيل، عليك أن تكون في مركز السيطرة على المنطقة. لم يحدث الهجوم فحسب لأن أحدهم رأى فرصة في اللحظة الأخيرة لتسديد ضربة، بل كان مخططاً له، وكان يتطلب سهولة حركة على طول الطريق الذي كانت سيارتي تتحرك عليه. وكان اليمين اللبناني الذي كان على صلة وثيقة بالموساد يحتل تلك المنطقة.

في الأيام التي سبقت الهجوم عليّ، شن الإسرائيليون غارات وقائية ضد أهداف فلسطينية في لبنان، فأدنت الهجمات، وكذلك فعلت وزارة الخارجية، ولكن بعض الناس قالوا إنني كنت فظاً جداً في بياناتي عن الإسرائيليين. وكما حدث من قبل، فقد اتُهمت بأنني «ناشط» أكثر من اللازم، وغير ودي بما فيه الكفاية لإسرائيل، وأنني مبالغ في الودية للفلسطينيين.

كيف كان المشهد السياسي خلال سنوات عملي سفيراً أمريكياً في لبنان؟ كان لبنان في ذلك الحين، كما هي الحال عليه الآن، فسيفساء من ثماني عشرة طائفة مختلفة، وكل طائفة منقسمة غالباً إلى يمينيين ويساريين ومعتدلين. وكانت هذه المجموعات الفرعية نفسها مؤيدة أو مناهضة لسوريا، وموالية أو مناهضة لإسرائيل، ومؤيدة أو مناهضة لإيران، ومؤيدة أو معادية لبريطانيا، ومؤيدة أو معادية لفرنسا، ومؤيدة أو معادية لتركيا، ومؤيدة أو معارضة للمملكة العربية السعودية، ومؤيدة أو مناهضة للعراق، ومؤيدة أو مناهضة للولايات المتحدة الأمريكية.

كان للعديد من الجماعات ميليشياتها الخاصة بها؛ فعلى سبيل المثال، تجمع المسيحيون من اليمين المتطرف معاً تحت راية «حراس الأرز». وقاتل مسيحيون يمينيون آخرون تحت قيادة الكتائب لبشير الجميل، أما المسيحيون الأكثر تحرراً فكانوا تحت قيادة كميل شمعون فقد حاربوا اللبنانيين الأكثر توجهاً نحو الاشتراكية. وكان الشيعة في الجنوب يلقون التعاطف والدعم من الشيعة في إيران، أما المؤسسة السنية فقد شعرت بالارتياح تجاه الأتراك والمصريين والسعوديين. وعمل البعثيون الأكثر علمانية في لبنان مع البعثيين في سوريا والعراق، أما الدروز بقيادة وليد جنبلاط وطلال أرسلان، فقد كانت لهم صلات مع إخوانهم الدروز في إسرائيل، وسوريا، والأردن، أو أينما كانوا.

هل كان مشهداً مجزَّأً؟ نعم. على الرغم من أنهم جميعاً لبنانيون، فقد كانت المشكلة أنهم عرّفوا أنفسهم في أكثر الأحيان في تلك الأيام وفقاً لانتمائهم الديني، وعلى نحو أقل بانتمائهم إلى مواطنيهم اللبنانيين الذين كانوا يشاركونهم في الجنسية نفسها. كانت لدى اللبنانيين من أصل أرمني أو كردي ذكريات سيئة من أيامهم تحت الحكم العثماني، ثم هنالك الفلسطينيون، الذين كانوا قد فروا من القتال في فلسطين عندما أنشئت دولة إسرائيل عام 1948. وكان العديد من هؤلاء الفلسطينيين قد فقدوا كل شيء، وتم إيواؤهم في المخيمات في لبنان.

كانت مهمتي هي تشجيع جميع اللبنانيين على الاحتشاد معاً كلبنانيين لحماية وطنهم، داخل حدوده المعترف بها دولياً، ضد كل الذين لديهم مكايد ومطامع على أرضهم ومياههم وسيادتهم واستقلالهم. وقد شجعني إلياس سركيس، الذي كان رئيساً للبنان في ذلك الوقت، على متابعة هذه السياسات، التي كانت تمثل توجيهات الرئيس جيمي كارتر ذاته، وجددها الرئيس رونالد ريجان فيما بعد.

واليوم، وبعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً، صار هناك جيل من الشباب اللبنانيين، بغض النظر عن الدين، يظهرون علامات على التفكير بصيغ وطنية، وقومية أيضاً. وإذا كان الأمر كذلك، فقد تعلم الجيل اللبناني الجديد درساً من تاريخهم ومن عقود من المعاناة.

في الدبلوماسية، يتعلم المرء بسرعة أن كل شيء له صلة بكل شيء آخر. مهمة السياسة الخارجية هي تحديد كيفية الوصول إلى جميع الفصائل، وفهم كيفية ارتباط بعضها ببعض. وعندما يفهم رئيس أو سفير جميع الفصائل والقضايا في مكان، فإنه يمكن أن يبدأ بتحديد مصالح الشعب المشتركة والتفاوض بشأن خلافات أفراده.

لقد شعرت بالترابط بين كل شيء عندما عملت في جنوب شرقي آسيا. كانت فيتنام ولاوس وكمبوديا دولاً منفصلة، لها ثقافات وتواريخ فريدة، ولكن كل ما حدث في مكان واحد كان يمكن أن يؤثر فيما حدث في أماكن أخرى في المنطقة، كما رأينا في المثال المأساوي لكمبوديا.

وينطبق هذا الترابط بشكل خاص على منطقة الشرق الأوسط، مهد الديانات الثلاث الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام. إنها موطن العرب والكرد والفرس والمغول. ومنذ نهاية المحرقة النازية لليهود والحرب العالمية الثانية، أصبحت المنطقة موطناً لدولة إسرائيل. وبسبب الظروف المحيطة بإنشاء دولة إسرائيل من الأمم المتحدة عام 1948، بعد خروج بريطانيا العظمى من المنطقة بوصفها قوة استعمارية، وظروف استمرار وجود إسرائيل منذ إنشائها، فقد دخلت مصالح الجماعات الأخرى المهمة في المنطقة في بعض الأحيان طي النسيان، أو الإهمال، أو تم غض الطرف عنها. وقد أدى استياء تلك الجماعات، ولاسيما الفلسطينيين، إلى نشوب حربين متعددتي الأطراف (حرب يونيو 1967، وحرب أكتوبر عام 1973)، وإلى مزيد من انفجارات الصراع الثنائية مع لبنان والفلسطينيين. وقد نتج عن حرب عام 1967 احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية، ما أدى إلى اندلاع حرب العصابات بين وقت وآخر، وعمليات تدخل ليس من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها فحسب، بل أيضاً من الاتحاد السوفيتي، وسوريا، وليبيا، والمملكة العربية السعودية، وإيران. أضف إلى هذا المزيج المتقلب سياسة النفط والصراع على السيطرة على القدس، وهي المدينة المقدسة للديانات الثلاث جميعاً.

إن كل شيء مرتبط بكل شيء.

تسربت هذه الصراعات في الشرق الأوسط إلى لبنان، الذي كانت له علاقة بطريقة أو بأخرى بكل هذه القضايا. كان الأسلوب الذي كنت أراه، والنهج الوحيد لحل العديد من المشكلات "المتقيحة" وحالات الاستياء في البلاد التي تم تعييني فيها، هو التحدث إلى الجميع في البلاد. إن وظيفة الدبلوماسي هي أن ترى البلد كله وكل شخص فيه، بأن تخرج من السفارة، وتجوب جميع أنحائه، في محاولة لفهم الناس وفق رؤيتهم هم، ورفع تقارير إلى رؤسائك في واشنطن وزملائك في المنطقة حول الإمكانيات والعقبات في طريق السلام.

قبيل الهجوم على سيارتي بوقت غير طويل، صرح رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات بأن المنظمة لن تعمل للقضاء على إسرائيل، وأنها تقبل حقها في الوجود، ولن تشارك في نشاطات إرهابية ضد إسرائيل. أخبار جيدة، أليس كذلك؟ ولكن مسؤولين إسرائيليين لم يكونوا حذرين فحسب، بل أعلنوا العداء بصراحة، ورأوا في تحركه خطراً على السلام، واستشهدوا بفصيل حركة فتح، المنضوي في إطار منظمة التحرير الفلسطينية، الذي كان قد درس مؤخراً قراراً جديداً يدين إسرائيل. ولكن عندما سئل عرفات عن القرار، قال إنه تم طرحه من مجموعة منشقة في فتح، ولم يتم تصديقه.

لا يمكنك دائماً معرفة النيات الحقيقية للناس؛ ومن ثم فإن مهمة الدبلوماسية هي عدم رفض فرص السلام، بل البناء عليها. فلنفترض أن عرفات كان ساخراً تماماً وغير صادق، ولنفترض أنه خدع الغرب فقط من أجل خفض درجة التأهب في إسرائيل. ألم يكن من الأفضل أن يقال، في الواقع، «نحن نرحب بهذا التأييد لحقنا في الوجود، ونحن أكثر سروراً لأن عرفات يدرك لماذا يعد السلام أفضل لشعبه وكذلك لنا»؟ عندما أرسل نيكيتا خروتشوف إلى الرئيس جون كينيدي رسالتين في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، أجاب كينيدي علناً على الرسالة التصالحية، وتجاهل رسالة التهديد. وبذلك قيد خروتشوف. فلماذا لا نقلد كينيدي؟ أو لماذا لا نقلد رونالد ريجان عند التفاوض مع الاتحاد السوفيتي؟ فقد استشهد ريجان بالقول الروسي المأثور: «ثق، ولكن تحقق».

أريد أن أتحدث مع الجميع عندما أكون في مهمة في إحدى الدول. أريد أن أفعل كل ما في وسعي لجمع الناس معاً؛ لجعلهم يتحادثون ويتعاونون على التنمية الاقتصادية، والتقنية، والتعليم، والثقافة، والرياضة، وبقية الأمور. عندما قدمت إلى لبنان، ذهبت إلى السفير السوفيتي ألكسندر سولداتوف، وقلت: «دعونا نترك تنافسنا خارج منطقة الشرق الأوسط. ونحن لن نستهدفكم، وأنتم لن تستهدفوا الولايات المتحدة. هذه الفوضى معقدة بما يكفي من دون أن ندخل تنافسنا فيها». ولسوء الحظ! لم تشجع وزارة الخارجية جهودي لإجراء حوار بنّاء مع السفير السوفيتي لدى لبنان، في تلك المرحلة من الحرب الباردة.

كنت دائماً أبحث عن طرق لإثبات أن الناس في طرفي الصراعات يمكن أن يتفاهموا. وفي لبنان، قمت بتنظيم جولات أفلام بين جميع الفصائل السياسية داخل البلاد، فضلاً عن اللاعبين الدوليين الأساسيين الذين لهم وجود في البلاد، من مسيحيين ومسلمين، ويهود، ويمينيين ويساريين، ووسطيين، وأمريكيين وروس، وسوريين. وعلى الرغم من أن مثل هذا النهج وحده لا ينقذ العالم، فإنه يمكن أن يحسن - ولو بدرجة قليلة جداً - من فرص الناس في التوصل معاً إلى إحلال السلام.

خلال فترة تعييني في لبنان، طورت تدريجياً علاقة عمل وثيقة مع منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أظهرت اتصالاتي مع المنظمة، التي كانت بتفويض من الحكومة في واشنطن، كيف أن إشراك جميع الفصائل يمكن أن يسفر عن نتائج إيجابية.

في البداية، تم تفويضي بالتواصل مع منظمة التحرير الفلسطينية فقط من أجل أمني. وإذا أردت أن أسافر في جميع أنحاء لبنان، فإنني بحاجة إلى الحصول على تأكيدات من الفصائل المختلفة بأنها لن تهاجمني. لذلك أخبرت مسؤولي المنظمة إلى أين كنت أرغب في السفر في الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها، وقد حرصوا على سلامتي عندما كنت في المناطق الخاضعة لهم.

عندما كانت تحصل مشكلة لسائح أمريكي، أو موظف حكومي، أو مقيم أمريكي في لبنان محتجز في أي مكان في لبنان، كنت أولاً أطلب المساعدة من مدير المخابرات اللبنانية، جوني عبدو. ولكنني كنت أيضاً أطلب المساعدة من السلطات الفلسطينية في لبنـان. ففـي عدد من المناسبات ساعدتني منظمة التحرير الفلسطينية في الإفراج عن الأمريكيين، سواء في وادي البقاع أو في جنوب لبنان. وتدريجياً توسـعت هـذه العلاقـة الأمنيـة مـع المنظمـة لتصبح قناة لتبادل المعلومات حول موضوعات أخرى. وكـان مسـاعد وزيـر الخارجيـة، هارولد سوندرز، أو نائبه موريس دريبر، ينقل لي رسائل من وزارة الخارجيـة، باسـتخدام هاتف آمن، ويطلب مني أن أنقلها إلى المنظمة؛ ومن ثم يتم نقل الردود الـواردة مـن قـادة المنظمة إلى واشنطن عن طريق الوصلة الهاتفية الآمنـة نفـسها. وكـان واضـحاً مـن هـذه الاتصالات أنه منذ أكثر من خمسة وعشـرين عاماً كانت السلطات الأمريكية تعـد منظمـة التحريـر الفلسـطينية محـاوراً صـالحاً لمناقشـة سـبل إيجـاد حـل غـير عسـكري للصـراع الفلسطيني-الإسـرائيلي.

بتاريخ 4 نـوفمبر 1979، اقـتحم مسـلحون إيرانيـون سـفارة الولايـات المتحـدة في طهران، وأخذوا المسؤولين الأمريكيين وأفراد أسـرهـم رهائن. وقد شلت أزمـة الرهـائن السياسة الخارجية للولايات المتحدة طوال أكثر مـن عـام، ودمـرت إدارة كـارتر. وعمـل الرئيـس جيمي كارتر ووزير الخارجية سايروس فانس في أوقات إضـافية للتفـاوض عـلى الإفراج عن الرهائن. وكان أمريكيـون آخـرون يبـذلون قصـارى جهـدهم لضـمان عـدم الإفراج عن الرهائن قبل الانتخابات الرئاسية في مطلع نوفمبر، ولم يتم في الواقـع إطـلاق سـراحهم إلا عندما تم تنصيب رونالد ريجان في يناير مـن عـام 1980. وبمجـرد خسـارة كارتر الانتخابات تعهد رونالد ريجان باتخاذ نهج أكثر عدوانية لاستعادة التفوق الأمريكي في السياسة العالمية.

ومهما أراد المرء أن يقول عن الرئيـس كارتر، فإنه كان أحد أشـرف الرجـال الـذين شغلوا المكتب البيضاوي. فقد كان يقرأ كـل مـا قـدم لـه، وفي كثـير مـن الأحيـان يكـون

صفحات عديدة، ولكنه مثل العديد من الأشخاص الشديدي الذكاء والمتبصـــرين، كـان يتردد في اتخاذ القرارات. وأذكر أنني كنت مرة في واشنطن في اجتماع مـع الرئيـــس كـارتر لحثه على التدخل لدى الإسـرائيليين بشأن لبنان، ووافق على اتخـاذ الإجـراءات اللازمـة. وهناك في وزارة الخارجية بعد حوالي ساعة واحـدة، تلقيـت اتصـالاً مـن أحـد مسـاعدي الرئيـس قائلاً إن الرئيـس سيؤجل اتخاذ أي إجراء لفترة من الوقت، ولكنني سأســمع منـه بشأن هذه المسألة. ولم أسمع منه شيئاً قط. ومع ذلك، بقيت معجباً بجيمي كارتر؛ لصفات من بينها منهجه الثابت والعادل تجاه مشكلات الشـرق الأوسط.

وبعد فترة وجيزة من قدومي لمهمتي في لبنـان، ســألت رؤسـائي هـل يمكـن إجـراء اتصالات سـرية مع منظمة التحرير الفلسطينية، أو لا؟ فكان الجواب نعم. ثم، بعد أن تـم اقتحام السفارة الأمريكية في طهران، سألني محاور في واشنطن: هل كان بإمكاننا استخدام جهات اتصالي مع منظمة التحرير الفلسطينية؛ لإخراج بعض الأمريكيين من طهران؟ وقد عملت على هذه المسألة مع عدد من الفلسطينيين، وليد الخالدي، وباسل عقل، وأبو الوليد [سعد صايل]، وأبو جهاد. (قام الأمن السـري الإسـرائيلي في وقـت لاحـق باغتيـال أبـو جهاد في تونس). سألت أبو الوليد: هل كان بإمكانه أن يفعل أي شـيء لإخراج الرهـائن من إيران أو لا؟.

ذهب هو وعرفات إلى طهران، وفاوضا عـلى إطـلاق سـراح الرهـائن الأمـريكيين الثلاثة عشـر في 17 نوفمبر 1979. وبموجـب أوامـر مـن آيـة الله روح الله خمينـي، أطلـق الخاطفون سـراح السود والنساء فقط، وهي خطوة دعائية على ما يبدو لإيجـاد انقسـامات بـين الأمـريكيين قـائلين، في الواقـع: «نحـن نـدرك الفـرق بـين الأمـريكيين المظلـومين والأمريكيين الظالمين». وعلى الرغم من أن هذه الخطوة قد تكون مدعاة إلى السخرية، فإنها كانت تعني الحرية لثلاثة عشـر أمريكياً. كانت بمنزلة إحراز تقدم في جمود رهيب. وكانت يمكن أن تكون أيضاً بداية لعلاقة جديدة مع منظمة التحرير الفلسطينية. ولو توافر بعض الحظ، لساعدت أيضاً على تحقيق حل مبكر لأزمة الرهائن. إنك لا تعرف مطلقاً. هذا هـو

السبب الذي يجعلك تتحدث وتتحدث وتتحدث وتتحدث. لم يتم الإقرار بدور منظمة التحرير الفلسطينية في الصحف، لكنه كان حقيقياً.

في وقت لاحق، ساعدت اتصالاتنا مع منظمة التحرير الفلسطينية على إنقاذ حليف لنا من الغوغاء في بيروت.

وذات ليلة وصلني خبر من صديق، هو أسعد نصر، رئيس شركة طيران الشرق الأوسط، بأنه قد تمت إصابة السفيرين السعودي والكويتي في لبنان بإطلاق نار في الجزء المسيحي من لبنان. وكان السفير السعودي في حالة من الألم؛ حيث استقرت رصاصة في ساقه وتم نقله إلى أحد المستشفيات الخاصة في المناطق المسيحية. وأخبرني صديقي أسعد نصر بأنني يجب أن أذهب وأراه.

قلت: «من قال إنني يجب أن أذهب وأراه؟».

قال رئيس شركة طيران الشرق الأوسط: «أنا أقول لك ذلك».

قلت: «لماذا؟».

قال: «لأن السعوديين يتطلعون إلى الولايات المتحدة كلما كانت لديهم مشكلة، ومن المفترض أن تساعدهم على إيجاد مخرج».

قلت: «انتظر ثانية. الساعة 9:00 مساءً».

قال: «نعم، الساعة 9:00 مساء، ولكن السعوديين يتوقعون خدمة على مدار السنة وطوال ساعات اليوم الأربع والعشرين».

سألت: «هل هذا يعني أنني يجب أن أحصل على قافلة مرافقة كاملة في الذهاب، وأن علينا أن نعبر من بيروت الغربية إلى بيروت الشرقية، ونصعد إلى المستشفى في التلال؟».

فأجاب: «نعم. أقول لك هذا ما عليك أن تقوم به. إنها نصيحة جيدة».

قلت: «سأقوم بذلك».

جمعت فريقي الأمني، قافلة المرافقة المؤلفة من ثلاث سيارات مع حرس شخصي على استعداد للقيادة ليلاً من بيروت الغربية إلى بيروت الشرقية، وإلى التلال التي يسيطر عليها غالباً رجال الميليشيات المسيحية. وكانت القيادة ليلاً بين هاتين المنطقتين لا تخلو من مخاطر. أخبرت زوجتي بأنني ذاهب لزيارة زميلي السعودي، فنبهتني إلى الخطر المترتب على مروري في الطريق في ذلك الوقت من الليل.

عندما وصلت إلى المستشفى، ورأيت الفريق علي الشاعر، سفير المملكة العربية السعودية، مستلقياً في سرير وفوقه صورة دينية. كان رجلاً طويل القامة جداً. قال: «جون، أرجوك أن تنقلني إلى المستشفى الأمريكي. أنا لا أحصل على رعاية طبية جيدة هنا، وأنا أتألم. أريد أن أذهب إلى حيث أكون مرتاحاً تماماً، وتستطيع عائلتي زيارتي. أريد أن أذهب إلى المستشفى الأمريكي في بيروت الغربية».

أجبت: «حسناً. لقد تجاوزت الساعة الآن 10:00 ليلاً، ولذلك سيكون لدينا صباح غد في تمام الساعة 10:00 موكب يأخذك إلى مستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت الغربية». عدت إلى المنزل في بيروت الغربية الذي كنت أستعمله في حال كنت عالقاً في المدينة، كما كانت الحال عليه في تلك الليلة. لا بد من أنني وصلت إلى هناك حوالي الساعة 11:30 مساء، وشرعت في اتخاذ الترتيبات اللازمة لنقل السفير السعودي في موكب السيارات وسيارة الإسعاف في الساعة 10:00 تماماً من صباح اليوم اللاحق إلى مستشفى الجامعة الأمريكية. وتم نقله بسلاسة. حصل علي الشاعر على غرفة لائقة في المستشفى الأمريكي، وزارته عائلته، وقال إنه تلقى عناية طبية رائعة.

كان داني شمعون، نجل كميل شمعون، رئيس لبنان السابق وزعيم حزب المسيحيين الوطنيين الأحرار في لبنان، من الشخصيات العظيمة في ذلك الوقت. وقد

حانت لداني شمعون فكرة زيارة السفير السعودي في المستشفى الأمريكي؛ إذ كانت لداني، مثل والده، علاقة مع السعوديين، ولكن هل كان ذلك كافياً للمخاطرة بحياته بالعبور من بيروت الشرقية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين إلى بيروت الغربية التي يغلب عليها الطابع الدولي؛ حيث يمكن لأعداء داني أن يحاولوا قتله بسهولة؟ وعندما عُرف أن داني شمعون كان في المستشفى الأمريكي، تجمعت عناصر معادية له حول المستشفى، وبدؤوا بإطلاق النار على نوافذه. فمَن الذي جمع الغوغاء الذين حاولوا اقتحام مستشفى الجامعة الأمريكية؟ هم في معظمهم لبنانيون من الذين عارضوا الكتائب والشمعونيين؛ أناس كانوا أكثر تأثراً بالدعاية اليسارية، والذين كانوا يعتقدون أن النموذج السوري كان يحمل بعض القيمة للبنان، والمسلمون المستاؤون، والفلسطينيون الذين رأوا في شمعون «صديقاً لإسرائيل».

بعد الظهر، كان بضعة آلاف من المتظاهرين قد حاصروا المستشفى، وكان ثمة خشية من حصول الأسوأ. وفي حوالي الساعة 8:00 مساء، تم إبلاغي بواسطة أحد رجالي الشجعان بالآتي: «من الضروري جداً أن تأتي على الفور إلى المستشفى الأمريكي؛ فهم يطلقون النار على المستشفى، ولن يبقى فيه شيء. إنهم يريدون أن يقتحموه ليلقوا القبض على داني شمعون. كان الحشد مكوناً من فلسطينيين وسوريين ومسلمين ومسيحيين، ومجانين عقدوا العزم تماماً على تدمير المستشفى الأمريكي. حياة السفير السعودي في خطر. إنه يحتاج إليك بشدة. وهو يطلبك الآن».

أجبته: «حسناً، يا شباب، لنجهز موكب السيارات ونذهب!».

دخلنا من خلال باب المرآب الكبير للمستشفى. وحينما فتح، تم إطلاق النار على الحارس الذي فتحه وقتله أحد القناصة في الحشد. وفور أن أصبحت داخل المستشفى، هرعت إلى غرفة علي الشاعر. كان هناك مع زوجته وابنته. قال: «اسمع، هذا الحشد مجنون. المفروض أن تساعد على وقف هذا الجنون».

أجبته: «ماذا أفعل؟».

قال: «اذهب واتصل بالأمير فهد ولي عهد المملكة العربية السعودية، وقل له أن يتصل بعرفات والرئيس الأسد ويقول لهما أن يوقفا هذا القصف، وإلا فسيخرج هذا الأمر من اليد وسوف يحترق كل شيء».

دخلت إلى سيارتي في المرآب، وحينما فتح باب المرآب لكي نتحرك إلى السفارة، أصابت طلقات بندقية حارسين أمنيين لبنانيين يحرسان باب المرآب فأردتهما قتيلين! أسفر دخولي إلى المستشفى الأمريكي وخروجي منه عن مقتل ثلاثة أشخاص. وبمجرد أن كنت خارج المستشفى، أصبحت الطريق إلى السفارة آمنة. أصيبت سيارتي برصاصة، كالمعتاد، ولكن بما أن الليموزين مصفحة، فقد كنت معتاداً على هذا النوع من التحرش.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى السفارة كانت الساعة 9:00 مساء، وطلبت أن يأتي المسؤول عن الاتصالات إلى المكتب. لم أكن أدرك كيف أن الاتصال بالعالم كان سهلاً من السفارة الأمريكية. جاء عمال الاتصالات في غضون عشر دقائق. قلت: «أود التحدث إلى ولي عهد المملكة العربية السعودية، الأمير فهد». كان الأمر كما لو أنني طلبت التحدث إلى عمتي في نيوجيرسي. لم يطلب إلي عمال الاتصالات أن أعطيهم رقم الهاتف. أخذوا الأمر على عاتقهم.

في غضون ما بين دقيقتين وخمس، كان رئيس ديوان ولي عهد المملكة العربية السعودية على الطرف الآخر من الخط. عرفته بنفسي، فقال: «بماذا يمكنني أن أخدمك؟».

أجبته: «لدي رسالة من السفير الفريق علي الشاعر في بيروت الذي طلب مني نقلها إلى ولي العهد الأمير فهد».

«نعم، الأمير فهد واقف بجواري. ما الرسالة؟».

«قل له إنهم يطلقون النار على المستشفى الأمريكي في بيروت؛ حيث يتعافى السفير الشاعر من جرح في ساقه. يرجى الاتصال بالرئيس حافظ الأسد وعرفات والقول لهما أن

يوقفا الغوغاء عن مهاجمة المستشفى. إذا لم تكن هناك تدخلات من فوق، فسيتم تدمير المستشفى، وفقدان العديد من الأرواح البريئة، وسوف تزداد المواجهة في الشرق الأوسط سوءاً. ثمة خشية على حياة علي الشاعر وعائلته».

قال رئيس الديوان: «نعم يا سيدي، سوف أبلغ الرسالة».

بعدئذٍ غادرت السفارة وتوجهت عائداً إلى المستشفى الأمريكي. في هذه الأثناء، أصبنا ببضع رصاصات طائشة حينما دخلنا المرآب. لم يقتل أحد هذه المرة، ولكن كان الوضع خارج نطاق السيطرة. كان الغوغاء يطلقون النار في كل مكان. وكانت الساعة حوالي العاشرة مساء، فطلبت إلى أحد حراس الأمن كان معه جهاز اتصال لاسلكي أن يتصل بزوجتي. «قل لها إنني لست عائداً إلى المنزل الليلة، سأمضي الليلة في المستشفى الأمريكي، بالقرب من غرفة السفير السعودي حتى يشعر بالطمأنينة»، ثم أخبرت السفير الشاعر بأنني قد نقلت رسالته إلى ولي العهد، وأنني أخذت غرفة قرب غرفته.

بحلول الساعة الواحدة صباحاً، خيم الصمت على منطقة المستشفى الأمريكي في بيروت بأكملها. لم يبقَ هناك أي تكييف للهواء تقريباً. كان الجو حاراً في الخارج، ولم تبقَ أي نوافذ في أجزاء كثيرة من المبنى. كانت الحشود قد تفرقت. وفي اليوم اللاحق، ذهبت لرؤية السفير علي الشاعر في غرفته ثم عدت إلى مكتبي. وأبلغ حراسي الأمنيون زوجتي بأنني عدت إلى المكتب، وأنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق حولي.

تمت إزالة الرصاصة من ساق السفير الشاعر. وبعد خروجه من المستشفى، منحني استقبالاً صغيراً حميماً، وشكرني على مساعدتي. وبعد عودته إلى المملكة العربية السعودية، شغل علي الشاعر منصب وزير الإعلام على مدى السنوات العشر اللاحقة، وبعد ذلك أصبح أحد مستشاري الملك فهد. وقد خرجت من هذه الحادثة بشعور بالاحترام لدور السعوديين في الشرق الأدنى، وبفهم أفضل للعلاقة الأمريكية بالقيادة السعودية. وإذا أراد السعوديون أن يلعبوا دوراً، فلديهم بالتأكيد القدرة على القيام بذلك. وإن أثبتت هذه

الحادثة أي شيء آخر، فقد أثبتت أننا كنا أفضل حالاً؛ لأننا كنا نعرف أشخاصاً من جميع الفصائل والدول التي يمكن أن تساعدنا على الخروج، وذلك هو لبّ الدبلوماسية.

ولكن لماذا كل هذه الضجة حول لبنان؟ هل هو حقاً حساس إلى هذه الإلى درجة للسلام في الشرق الأوسط؟ لبنان ليس لديه نفط، لكنه يملك بالفعل الماء، من جباله وأنهاره معاً. وقبل كل شيء فقد أثبت لبنان على مدى قرون، أن الأديان المختلفة، من مسيحيين ومسلمين ويهود، يمكن أن يتعايشوا ويحققوا الازدهار، مع وجود قدر معين من الحرية الفردية. لقد أرسل اللبنانيون أبناءهم وبناتهم إلى جميع أنحاء العالم؛ حيث حققوا قدراً كبيراً من النجاح. وحافظ كثير منهم على صلتهم ببلدهم الأم. وقد ساعدوا على تنمية الاقتصادات في أمريكا الجنوبية وإفريقيا. وهناك طلب على مهاراتهم في العالم العربي. كان لبنان حقاً جسراً بين عالم البحر الأبيض المتوسط والعمق العربي. وقد دلت أحداث السبعينيات والثمانينيات أيضاً على أن لبنان جزء من الشرق الأدنى، وأن إنشاء وطن مسيحي منفصل «مارونستان» ليس إلا حلماً غير واقعي. لم تعد الصهيونية الإسرائيلية مثالاً بالنسبة إلى الغالبية العظمى من المسيحيين في لبنان.

في الوقت الذي كان فيه العمل مع الفلسطينيين جزءاً مهماً من عملي في بيروت، ظلت مهمتي الرئيسية مساعدة الحكومة الشرعية في لبنان على التغلب على الحرب الأهلية، والمحافظة على استقرار الاقتصاد اللبناني، وجعل القوى الأجنبية تحترم سيادة لبنان واستقلاله ضمن حدوده المعترف بها دولياً. في نشاطاتي اليومية، كثيراً ما كنت أذهب إلى القصر الرئاسي أو مكتب رئيس الوزراء لمناقشة المشكلات في تلك الفترة. كان الرئيس إلياس سركيس ذكياً وصادقاً ومتسامحاً، وزعيماً على مسافة واحدة من الجميع. وقبل أن يصبح رئيساً، كان حاكماً لمصرف لبنان المركزي.

كان أحد الأهداف التي وضعها سركيس لنفسه هو الدفاع عن قيمة الليرة اللبنانية. وكان يعتقد، وهو محق في ذلك، أن هذه السياسة ضرورية لكي تمنع الحكومةُ التضخمَ والمصاعب الاقتصادية في وقت كانت البلاد فيه ممزقة سياسياً بسبب الحرب الأهلية. وكان

قد وضع لنفسه هدفاً أن يكون سعر صرف الليرة اللبنانية مقابل الدولار الأمريكي عندما يترك منصبه كرئيس هو نفسه الذي كان سائداً عندما تولى الرئاسة. كان سعر صرف الليرة اللبنانية في ذلك الوقت ثلاث ليرات للدولار الواحد. وعندما غادر منصبه في عام 1982، كان سعر الصرف نفسه بالفعل. وما لبث بعد وقت قصير من رحيله أن ارتفع سعر الصرف إلى 3000 ليرة لبنانية للدولار الواحد. عندما أصبح رفيق الحريري رئيساً للوزراء عام 1992، نجح في خفض سعر الصرف إلى النصف؛ أي إلى 1500 ليرة للدولار الواحد، كما هو اليوم.

وفي الدفاع عن العملة اللبنانية استطعت تقديم المساعدة إلى الرئيس اللبناني ومحافظ مصرف لبنان المركزي، ميشال الخوري، ابن أول رئيس للبنان بعد الاستقلال. ذات يوم تم إقناعي بقبول قوة تصديق احتياطيات النقد الأجنبي لمصرف لبنان، التي كانت محفوظة في سويسرا. وبحسب معرفتي، فقد كانت الاحتياطيات في ذلك الوقت ماتزال مليارات عدة من الدولارات. قال محافظ المصرف، الخوري، إنه كان يخشى أنه في هذه الأوقات غير المستقرة، أن يأتي بعض أفراد العصابات ويصوب مسدساً إلى رأسه ويقول: «وقِّع هذه الورقة»، وبذلك يتم الإفراج عن ملايين الدولارات لسفاح في زيوريخ أو بيرن. وباشتراط اثنين من التوقيعات، فإن جميع الإصدارات من احتياطيات المصرف الوطني في لبنان تحتاج إلى أن أصدقها. وطوال كوني سفيراً في بيروت، كان هذا الوضع سائداً. وعندما غادرت، اقترحت أن يتم إعطاء التوقيع لزميلي الأمريكي في سويسرا، فكان الجواب «لا، عندما تغادر ينتهي هذا الترتيب». وأعتقد بصراحة أن هذا الترتيب كان دليلاً على ثقة الحكومة اللبنانية بالسياسة التي اتبعتها في لبنان نيابة عن حكومتي. خلال فترة وجودي في بيروت، كان معظم الحكومة والشعب اللبنانيين يرون أن الولايات المتحدة كانت تحاول أن تكون متوازنة تجاه مشكلات التعامل مع لبنان.

لكنني أعترف بأن هذا لم يكن سهلاً دائماً؛ فقد انتقدتني الصحافة والحكومة الإسرائيليتان علناً لكوني «مؤيداً للفلسطينيين» و«معادياً لإسرائيل»، وبخاصة في المناسبات التي أدنت فيها علناً القصف الإسرائيلي للبنان. كان عدد المرات التي ناشدت

فيها واشنطن للتحدث علناً ضد الانتهاكات الإسرائيلية لحدود الأراضي والمجال الجوي والمياه الإقليمية اللبنانية يعد أسطورياً في وزارة الخارجية. واليوم، بعد سنوات، عندما ينتهك الإسرائيليون سيادة لبنان، فلا أحد يرفع صوته انتقاداً لهذا الانتهاك للقانون.

لكنني كنت بالقدر نفسه من الصرامة عندما كانت القوات أو ضباط المخابرات السورية يقولون لي إنه لا يمكنني السفر إلى أجزاء معينة من لبنان وواقعة تحت سيطرتهم. فقد جعلت من الواضح دائماً أن رئيس لبنان وحده يمكنه أن يقول لي أين لا يمكنني الذهاب بالسيارة أو سيراً على الأقدام. وقد وصلت هذه المسألة إلى موقف صعب بشكل مضاعف، وقد أجاز السوريون من دون استثناء لموكب سياراتي الثلاث بأن يذهب حيثما أردت الذهاب.

لعل أشد موقف حمل بسببه الإسرائيليون عليّ هو أنني صرفت بشير الجميل، زعيم ميليشيا الكتائب العسكرية والسياسية، عن اعتماده الكامل على إسرائيل. وقبل وصولي إلى بيروت، كان الإسرائيليون يقدمون الأسلحة، والمال، والمستشارين لميليشيا كتائب بشير. وكان الجيش الإسرائيلي يرسل طائرة مروحية مرة تقريباً كل شهر إلى لبنان لإحضار بشير الجميل إلى إسرائيل لعقد اجتماعات مع القادة السياسيين أو العسكريين الإسرائيليين. لم يكن لدى بشير بديل من الذهاب لحضور تلك الاجتماعات إذا كان يريد الأسلحة والمال للمحافظة على ميليشياته.

استطعت الاجتماع مع بشير الجميل عام 1979. وفي تلك المناسبة شرحت له أنه ينبغي في رأيي ألا تكون مثل هذه الصلات الحميمة مع إسرائيل؛ لأن مثل هذا الارتباط يبدو أنه كان يثير استياء العديد من المسيحيين والمسلمين في لبنان. واقترحت على بشير أنه يمكن أن تقوم الولايات المتحدة بتقديم السلاح والمال إلى حزب الكتائب؛ لأنني شعرت أنه يمكن أن يُنظر إلى جميع اللبنانيين في ذلك الوقت على أنهم يعملون مع الولايات المتحدة ولكن ليس مع الإسرائيليين أو - فيما يتعلق بتلك المسألة - بشكل وثيق جداً مع السوريين.

وهنا ينبغي لي أن أذكر شيئاً عن بشير الجميل نفسه. فقد كان قومياً لبنانياً أكثر من العديد من الشخصيات المارونية الأخرى. وكان يتمتع بدعم أوسع من أي زعيم ميليشيا مسيحية أخرى. حتى إن بعض المسلمين كانوا يتفقون مع معارضته للسوريين والفلسطينيين والإسرائيليين. ولكن كان يتعين على الولايات المتحدة الأمريكية اتباع سياسة عادلة في لبنان، وقبل كل شيء إزاء الوضع المعقد للقدس بين إسرائيل وفلسطين. وأود أن أؤمن أنه طوال فترتي سفيراً للولايات المتحدة في لبنان (1978–1981) كانت هذه هي الحال.

وفيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، فليس بإمكان المرء استبعاد العامل اللبناني. وكان أحد خلافاتي القليلة مع فيليب حبيب – وهو أحد كبار الدبلوماسيين وصانعي السلام في التاريخ الأمريكي الحديث – أنه لا يمكن فصل لبنان عن القضايا المركزية في الشرق الأوسط؛ وهذا لا يعني أن لبنان هو المفتاح؛ فالوضع أعقد من ذلك، ولكن عليك إشراك الفصائل اللبنانية وتسوية العداوات لتحقيق السلام في الشرق الأوسط.

وفي التحليل النهائي، فإن السؤال بسيط: كيف يمكننا العمل معاً؟ لقد عاش هذا الشعب معاً على مدى قرون، وهم يقدسون الأرض المقدسة نفسها، وقد تزاوجوا فيما بينهم، ولغاتهم لها الجذور السامية نفسها. فلماذا لا يمكنهم إيجاد وسيلة للعمل معاً؟ بالتأكيد، لدى الإسرائيليين الكثير الذي يقدمونه للعرب والفلسطينيين، مثل أنظمتهم التعليمية المتطورة.

وهم جميعاً ضحايا نوع من الظلم. كم هو محزن من دون حدود إذا كان ضحايا الظلم أنفسهم يتصرفون على نحو ظالم – بعنف ودون ديمقراطية – لأن لديهم من الخوف ما يمنعهم من الحديث واحتضان هشاشتهم المتبادلة.

أنا من أصل يهودي، وقد عانت عائلتي أيضاً خلال المحرقة التي أسهمت في إنشاء دولة إسرائيل. وقد تعرض اليهود للتمييز منذ آلاف السنين، ويجب أن يكون لهم وطن.

وأعتقد أن بين الإسـرائيليين كثيراً من الناس الطيبين، وأنهم يستحقون أن يكون لهم وطن له حدود آمنة. ولكن أخشى أن إسـرائيل لن تكون موجودة بعد خمسين عاماً أو سـتين إذا لم نجد جميعاً طريقة لدمج إسـرائيل في المنطقة. فالعنف لم يجعلنا قط أكثر قدرة على العـيش معاً.

إن الملك عبدالله بن عبدالعزيز عاهل المملكة العربية السعودية [الراحل]، في الوقـت الذي كان فيه ولياً للعهد، عرض السلام على الإسـرائيليين على أساس حدود عـام 1967 والاعتراف بإسـرائيل من جميع الدول العربية. ويبدو هـذا الاقـتراح نهجـاً واقعيـاً لإيجـاد وسيلة لمنع المزيد من عقود الصـراع في الشـرق الأدنى.

الفصل الثامن

النمر الآسيوي

عندما وصلت إلى بانكوك في أكتوبر 1981؛ لأتولى منصبي بوصفي السفير الأمريكي، لم تكن المرة الأولى التي وطئت فيها قدماي أرضاً تايلندية؛ فقبل ذلك بثمانية وعشرين عاماً، في عام 1953، كنت قد أُرسلت إلى بانكوك من سايجون؛ حيث تم تعييني لتغيير مسار نقل المنتجات النفطية إلى لاوس. وقبل عام 1945، كانت شركات النفط الدولية في الهند الصينية-الفرنسية العاملة في فيتنام، تنقل بالشاحنات المنتجات النفطية براً من فيتنام إلى لاوس. كانت لاوس تعتمد كلياً على فيتنام في تلبية الاحتياجات النفطية. كانت مهمتي عام 1953 تتمثل في جعل شركات النفط الأمريكية ترسل المنتجات النفطية إلى لاوس عبر تايلند؛ ولهذا الغرض، عملت أيضاً مع شركة الشحن المملوكة للحكومة التايلندية لنقل براميل النفط من بانكوك عن طريق البر إلى نونج خاي، وهي بلدة صغيرة في شمال تايلند. ومن هناك كان يتم تحميل البراميل على المراكب ليتم شحنها عبر نهر ميكونج إلى قرية في لاوس بالقرب من العاصمة فينتيان، ومنها كان يتم توزيع المنتجات النفطية في جميع أنحاء لاوس؛ وهكذا، كان النفط منذ خمسينيات القرن الماضي، يلعب دوراً في توجيه لاوس نحو تايلند، وبعيداً عن فيتنام. وفي عام 1953، عندما كنت أنا وزوجتي في بانكوك، لما تكن طفرة التطور الكبير قد حدثت بعد. كانت تايلند في ذلك الوقت - كما وصفتها الملصقات الإعلانية السياحية - بلداً زراعياً بصورة عامة، وهي بلد مسالم وجميل، أهله ظرفاء وذوو وجوه باسمة.

كانت المرة الثانية لوجودي في تايلند في أوائل السبعينيات، عندما كنت قائماً بالأعمال في لاوس، وكنت في حاجة إلى التشاور مع زملائي الأمريكيين في بانكوك للحصول على دعم مادي لسفارتنا، ومساعدة ملموسة للسياسات التي كنا نطبقها في لاوس. كان تقريباً

كل شيء تحتاج إليه السفارة اللازمة في لاوس يأتي من تايلند أو عن طريقها. وكانت بانكوك بالنسبة إلى فينتيان في تلك الأيام مثل مدينة كانساس سيتي بالنسبة إلى مدينة ويتشيتا في ولاية كانساس.

كان المسؤولون المدنيون والعسكريون التايلنديون يعرفونني من الدور الذي قمت به في دعم رئيس الوزراء اللاوسي المحايد سوفانا فوما، وإخماد انقلاب ضده تم تنظيمه انطلاقاً من تايلند. لم تكن السلطات التايلندية في ذلك الوقت تشارك في أفعالي وسياساتي أو توافق عليها. وفي ذلك الوقت، كما هي الحال اليوم، كان التايلنديون يرون لاوس تتحرك ضمن نطاق النفوذ التايلندي؛ لا دولة من دول عدم الانحياز، أو دولة لها صلات وثيقة بالصين الشيوعية. وبما أنني كنت مسؤولاً عن تحقيق المصالحة بين الحكومة الملكية اللاوسية وحركة لاو باثيت الماركسية، فقد كانت الصحافة التايلندية في عام 1973 تفضل دبلوماسياً أمريكياً أشد مناهضة للشيوعية في فينتيان.

ولعل التايلنديين عندما وصلت إلى بانكوك مع زوجتي عام 1981 سفيراً للولايات المتحدة الأمريكية، كانوا يتساءلون عن الخط الذي أود اتباعه هناك. في الواقع، كان معظم وقتي في تايلند في الفترة 1981-1985، مخصصاً لتعزيز العلاقات الثنائية الأمريكية-التايلندية، بما في ذلك الروابط العسكرية الوثيقة في الأصل. كانت الولايات المتحدة عادة ترسل سفراء قديرين جداً إلى تايلند، من بينهم وايلد بيل دونوفان Wild Bill Donovan الذي اشتهر بمركزه في مكتب الخدمات الاستراتيجي ووكالة الاستخبارات المركزية. وقد بذل كل من سبقوني وخلفوني قصارى جهدهم لجعل تايلند حليفاً حقيقياً للولايات المتحدة الأمريكية؛ ومن أجل تلك الغاية، أقمنا في تايلند إحدى كبرى السفارات في العالم. وقد عمل فيها نحو 680 أمريكياً لصالح حكومة الولايات المتحدة في بانكوك وفي القنصليات بتايلند خلال فترة تعييني. وتبين أن تنسيق نشاطاتهم من أصعب المهمات التي واجهتها. ومع ذلك، فإنني عندما كنت أسأل زوجتي عن البلد الذي أحبته أكثر من غيره من بين الأماكن التي تم تعييني فيها، كانت عادة تذكر تايلند. فالتايلنديون شعب لطيف،

وحتى إن كانوا سيفعلون شيئاً غير سار، فإنهم يفعلونه بابتسامة، ويتم تقبله بسهولة أكبر بهذه الطريقة. وعندما يتعلق الأمر بالتسامح، فالتايلندي البوذي قد تكون له ميزة على معظم الغربيين.

في ثمانينيات القرن العشرين، كان مايزال للولايات المتحدة نفوذ كبير في تايلند. وكان نفوذ السفير الشخصي، ودوره، وقدرته على النجاح في مهمته، يتوقف إلى حد كبير على حجم الدعم الذي يتلقاه من الإدارات الأمريكية والوكالات المعنية في الشؤون الدولية. فإذا أراد السفير إنجاز الأمور، فإنه يحتاج إلى علاقة قائمة على الصراحة والثقة مع مختلف العناصر الممثلة في موظفيه. فإن نجحتُ في مهمتي في بانكوك، فإن الكثير من الفضل في ذلك يعود إلى الدعم القوي الذي تلقيته من فريق بلدي. وفي هذا الصدد، يسترعى الانتباه إلى رسالة الرئيس ريجان إلى السفير بتاريخ 1 أكتوبر 1981، التي تؤكد مسؤولية السفير المباشرة أمام الرئيس عن جميع النشاطات الأمريكية داخل بلد اعتماده.

في أوائل ثمانينيات القرن الماضي، كانت الأولوية الأمريكية في تايلند، هي إيجاد طريقة مقبولة ومتبادلة للتايلنديين لكي يتيحوا لنا إمكانية الوصول إلى بعض التسهيلات البحرية والجوية التايلندية وفقاً لمسؤوليات أمريكا العالمية. وعندما ساعدت الولايات المتحدة التايلنديين في تحديث بلادهم وتطويرها، بادلوها من خلال منح حرية الوصول المطلوبة لنا.

وطوال الفترة التي هيمنت خلالها الحرب الباردة على الساحة الدولية، لم تكن ثمة مشكلة في اصطفاف تايلند مع الولايات المتحدة. فقد تعاون البلدان والحكومتان عن كثب في دعم مقاومة الخمير المناهضة للشيوعية والمعارضة لحكومة بنوم بنِه في كمبوديا المدعومة من الفيتناميين. لم تكن معارضة التوسع الشيوعي في آسيا سياسة تايلند وحدها في ذلك الوقت، بل كانت أيضاً سياسة بقية الدول الأعضاء في رابطة دول جنوب شرقي آسيا (آسيان).

إن السياسة في صميمها وحقيقتها تدور حول اتخاذ خيارات صعبة؛ فالخيارات السهلة يمكن لأي شخص القيام بها، وكذلك الخيارات التي لا تؤذي أي شخص. وابتداءً من عام 1981، جعلني تعييني سفيراً في تايلند عُرضة لبعض أشد القضايا صعوبة من أي وقت قضيته في السلك الدبلوماسي.

كان من بين هذه القضايا، المخدرات؛ ففي عهد الرئيس رونالد ريجان التزمت الولايات المتحدة الأمريكية شن حرب عالمية على المخدرات، وخصص ريجان أموالاً غير مسبوقة لاعتراض المخدرات على حدود الولايات المتحدة. واستخدم هو وزوجته نانسي قوى الإقناع لديهما لإيجاد ثقافة جديدة مناهضة للمخدرات في الولايات المتحدة. كما ألزم ريجان أيضاً الأجهزة الأمريكية في الخارج تعطيل إنتاج المخدرات في الخارج.

إن أي سفارة أمريكية في أي بلد يمكن أن تكون مظلة لعشرات الوكالات والمصالح المختلفة، من الجيش والبحرية والقوات الجوية، أو مشاة البحرية، إلى الوزارات؛ مثل الخزانة، والزراعة، والتجارة، والعمل، أياً كان اسمها. وقد يكون التنسيق صعباً في سفارة في الخارج؛ حيث يتعين علينا جميعاً أن نعيش معاً ونحقق الانسجام فيما بيننا. فمعظم الموظفين لا يعرفون دائماً ما يفعله الآخرون، ومعظم الموظفين في السفارة يعملون أيضاً لدى جهة خارج السفارة، في واشنطن.

وبوصفي سفيراً، كنت أتمتع بسلطة - تم بيانها بصورة بارزة أول مرة من الرئيس جون كينيدي - لإدارة هذه المصالح المختلفة. ولهذا يتعين على السفير أن يعرف ما يجري في كل قسم من أقسام السفارة. والسفير الخبير يمكنه أن يحقق التوازن والتكامل بين هذه المصالح، بحيث تتحدث الولايات المتحدة بصوت واحد في البلد المضيف. ولكن في نهاية المطاف، فإن الوكالات والإدارات الأمريكية المختلفة غالباً ما تكون على خلاف فيما بينها. وأحياناً يكون أفضل ما يمكن القيام به هو الاعتراف بوجود صراع أساسي والحرص ببساطة على أن يحصل جميع الأطراف على بعض ما يريدونه.

وكذلك كان الأمر مع مشكلة المخدرات.

في بانكوك، هناك وكالتان أمريكيتان لم تتصارعا داخل السفارة فحسب، بل فعلتا ذلك أيضاً في جميع أنحاء البلاد. وكان لكل منهما حلفاء في حكومة تايلند، وعملتا بشكل وثيق مع نظيرتيهما التايلنديتين. عندما حددتا موقع مصنع في شمال شرقي بورما على الجانب الآخر من الحدود، فإنه يمكن أن يحدث -وقد حدث هذا فعلاً- أن كانت هناك منافسة للوصول إلى المصنع أولاً. كان الأمر يشبه تسابق رجال الشرطة وصانعي الكحول غير الشرعيين للوصول إلى مقطرة الكحول أولاً. كانت الفكرة هي إغلاق مصنع الهيروين أو -على الأقل- تعطيل عمله. وأصبحت المنافسة القوية بحيث راحت المجموعتان، وكلتاهما تضم مهنيين أمريكيين وتايلنديين، تقاتل الأخرى. وقام الجانبان وحلفاؤهما بإطلاق النار على بعضهما بعضاً، وارتكاب أشكال أخرى من العنف لمنع الجانب الآخر من الوصول إلى هناك أولاً.

وأذكر حالة كان الهدف فيها مصفاة هيروين يديرها خارجون على القانون. وكانت إحدى المجموعات الأمريكية-التايلندية تحلق قرب الوجهة لكي تقتحم المصنع. وكانت مجموعة أمريكية-تايلندية أخرى تتجه بسيارة جيب إلى الموقع؛ على أمل أن تلقي القبض على الكيميائيين العاملين في المصنع. وقد ساءت الأمور جداً؛ حتى إن الفريقين الأمريكيين-التايلنديين حرفياً قصفا بعضهما بعضاً. وكانت المشكلة عدم وجود تنسيق بين المكتبين في بانكوك. وعندما تمت العملية بنجاح، وبما أنني لم أكن قد أُبلغت بها في وقت مبكر، فقد طلبت استدعاء الموظفين المعنيين.

أحياناً لا يكون هناك الكثير الذي يمكنك فعله. وفي أخرى تضطر إلى قبول الصفقات التي أبرمها الآخرون قبل قدومك إلى هناك بوقت طويل. بعد مغادرتي بانكوك بوقت غير قصير، تم رفض منح مسؤولَين تايلنديين تأشيرة دخول من وزارة الخارجية؛ لأنهما - كما قيل - وفرا حماية لبعض كبار المتورطين في تجارة المخدرات. ويبدو أنه الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به، أليس كذلك؟ إن هذا يرسل رسالة قوية: «يمكنك أن تفعل في بلدك ما تريد، ولكن ليس علينا أن نغتفر لك ذلك بالسماح لك

بدخول بلدنا». ولكن هذا الرأي أوجد مشكلات. لقد قام المسؤولان التايلنديان المعنيان هنا، باتخاذ إجراءات معينة بناءً على طلبنا. وبعد بعض المناقشات السرية، حصل الاثنان على تأشيراتهما للدخول إلى الولايات المتحدة، ولم تتعرض سمعتهما في تايلند للأذى؛ بسبب الدعاية التي استهدفتهما في وسائل الإعلام.

الجنس هو موضوع آخر من تلك الموضوعات التي تنتج مجموعة كاملة من المواقف، وجميعها صائبة من دون تنازل عنها في نظر أصحابها. في تايلند، كما هي الحال في العديد من البلدان الفقيرة في العالم، مازال استغلال الفتيات والنساء في البغاء أمراً شائعاً على مدى قرون؛ إذ تأتي الفتيات الفقيرات من المناطق البعيدة من تايلند إلى بانكوك لكسب ما يكفي من المال عن طريق البغاء لجمع مهر لأنفسهن. ويعدن بالمال، أو بآلة خياطة جديدة، إلى ديارهن لتكوين أسرة والعيش حياة طبيعية. لعل الفقر قد جعل هؤلاء الفتيات يَبعن أجسادهن في مدينة غريبة، بعيداً عن موطنهن، حتى يتمكنّ من أن يعشن حياة أفضل بعد عودتهن إلى موطنهن بما ادخرنه.

ومن المدهش أن تنظر كم تغيرت مواقفنا تجاه الجنس في آخر جيل أو جيلين. فحتى عام 1932، على سبيل المثال، كانت تايلند تسمح بتعدد الزوجات. وبعد حظره، ظل شائعاً في شكل جديد. كان الرجال في كثير من الأحيان يحتفظون بزوجة ثانوية، وفي المصطلح الغربي، بعشيقة. ولم يكن للزوجة الثانوية أي صفة قانونية، ولكن كان للأطفال الذين يولدون من تلك العلاقة حقوق ميراث مساوية لحقوق الأطفال الذين يولدون للزوجة الرسمية.

وانظر أيضاً إلى الدعارة، الموجودة في كل مكان، وبصورة قانونية في بعض المناطق (بما في ذلك هولندا، وولاية نيفادا الأمريكية). كما كانت الدعارة موجودة قانونياً في فرنسا، البلد الكاثوليكي، حتى عام 1947. وكانت بيوت الدعارة ترافق القوات المسلحة الفرنسية في جميع أنحاء العالم. الدعارة موجودة، وسوف تبقى موجودة دائماً؛ بسبب

طلب أبدي على جنس مجهول الهوية وغير ملتزم. ومادام هناك فتيات ونساء فقيرات ويائسات، فسوف يكون هناك من يلبي ذلك الطلب.

لم يكن هناك الكثير الذي يمكنني فعله بشأن ذلك في تايلند، إلا لدعم الجهود المبذولة لتمكين الفتيات والنساء من الحصول على التعليم والرعاية الصحية وفرص عمل حقيقية والسكن. هذا ما فعلته؛ حيث عملت بشكل وثيق مع العديد من المنظمات التايلندية المخصصة لتحسين مصير هؤلاء النساء وأحوالهن.

وكسفير، انتقدت علانية توريط الفتيات القاصرات في نشاطات جنسية. كان بإمكاني التصرف عندما يكون الأمر متعلقاً بمواطنين أمريكيين. فبوصفي رئيساً للمدرسة الأمريكية العليا في بانكوك، اضطُررت إلى التحرك لحماية فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً من علاقة عدوانية (وإن كانت بالتراضي) مع رجل يبلغ من العمر ستين عاماً كان مولعاً بهذه الفتاة. وكان والد الفتاة يعمل في السفارة الأمريكية. بعد ظهر كل يوم بعد انقضاء دوام المدرسة، كانت سيارة ليموزين سوداء كبيرة في الانتظار لاصطحابها إلى منزل الرجل المعني. وقد أغدق عليها الكثير من المجوهرات والذهب. طلبت إلى نائبي تكفل الأمر، فتحدث إلى المسؤولين في واشنطن، وتم نقل والد الفتاة إلى وظيفة أخرى، وغادر جميع أفراد العائلة بانكوك في غضون شهر.

إن أفضل الأمور البناءة التي أمكنني فعلها، على المدى الطويل، كان مساعدة البلاد على تطوير بدائل لاقتصادها. استطعت تشجيع تعليم البنات الصغار وأسرهن، كما أمكنني تشجيع المشروعات التي من شأنها أن توفر فرصاً أخرى. واستطعت أيضاً الإسهام في الفعاليات الثقافية التي رفعت بصائر الناس، بدلاً من تحقيرهم هم وضحاياهم. وتمكنت كذلك من تقديم المساعدة إلى الكنيسة ومنظمات الحقوق المدنية التايلندية والأجنبية معاً في تايلند، التي كانت تسعى لاجتثاث شبكات الدعارة وإنقاذ الفتيات من القوادين. كما أمكنني التعاون مع الصحفيين الذين كانوا يريدون تسليط الأضواء على هذه المشكلة.

لكن لم تكن مهمتي إغلاق بيوت الدعارة أو تغيير عادات الناس أو توجهاتهم في جميع أنحاء العالم. ولم تصبح وظيفتي أسهل عندما ذكّرني أصدقائي التايلنديون أن الجيش الأمريكي كان قد أسهم إلى حد كبير في جعل بانكوك عاصمة الجنس في آسيا. وطوال الفترة التي شارك فيها العسكريون الأمريكيون في فيتنام، منذ منتصف الستينيات تقريباً حتى عام 1975، كان بإمكانهم الاسترخاء والتخفيف من واجباتهم الخطيرة في فيتنام عن طريق الحصول على إجازة لقضاء بضعة أيام في بانكوك المحبة للمتعة. ما الذي يفعله الجنود - الذين يواجهون الموت في حفرة - عندما يكونون في إجازة؟ إنهم يبحثون عن صحبة الإناث الجذابات. وفي بانكوك يوجد العديد من المضيفات الجميلات لتلبية احتياجات العزاب الوحيدين؛ ومن ثم، فليس هناك شك في أن الولايات المتحدة أسهمت في جعل بانكوك «مدينة الخطيئة».

إن كثيراً من الناس في الولايات المتحدة يعرفون تايلند باسم «سيام»، البلد المصوَّر في مسرحية برودواي الموسيقية **الملك وأنا**، لكن معرفة الأغلبية تقتصر على ما عرضته هوليوود على شاشة التلفزيون أو في السينما. والواقع مختلف تماماً.

تايلند هي دولة حجمها يساوي حوالي أربعة أضعاف حجم ولاية نيويورك. وخلال فترة وجودي هناك، كانت تايلند يحيط بها الخطر من ثلاث جهات؛ ففي الجنوب، كانت تقع مناوشات حدودية من وقت إلى آخر مع ماليزيا. وعلى الحدود الجنوبية الشرقية، كانت القوات التايلندية تشتبك مع القوات الفيتنامية التي احتلت كمبوديا. وعلى الحدود الشمالية والشمالية الشرقية تقع لاوس، وهي بلد يسكنه الأشخاص أنفسهم الذين يعيشون في شمال تايلند ويتحدثون لغة وثيقة الصلة باللغة التايلندية. وتعد تايلند أرض التناقضات؛ صخب المدينة الكبيرة وهدوء الريف القديم؛ حيث يعيش نحو 85 في المائة من السكان. إن قاعدة تايلند الريفية تضفي على البلاد الصفاء والاستقرار. وتبقى الزراعة، ولاسيما زراعة الأرز، النشاط الرئيسي على التربة الخصبة في تايلند. وبعد انفتاح التايلنديين على الغرب،أصبحوا الآن يزرعون محاصيل مثل الهليون والمانجو لأغراض التصدير.

ولكن المدن تمنح تايلند قوتها الاقتصادية والديناميكية التي تجذب السياح والشركات من جميع أنحاء العالم. فهناك أكثر من 60 في المائة من الناس يعملون في الصناعات الريفية - الزراعة وصيد الأسماك والحراجة - لكنهم لا ينتجون إلا حوالي ربع الناتج المحلي الإجمالي في البلاد.

بتعداد سكان تايلند البالغ حوالي خمسين مليون نسمة، فإنها كانت تحتل المرتبة الثامنة عشرة من حيث حجم السكان على مستوى العالم، عندما عملت هناك. وهناك نسبة حوالي 85 في المائة من السكان تايلنديون، و14 في المائة صينيون.

إن ما يجعل تايلند أعجوبة هو قدرتها على المحافظة على توجيه مسار ثابت خلال الاضطرابات. فمنذ عام 1932، عندما قيد انقلاب عسكري صلاحيات العائلة المالكة، قبلت الأمة ترتيباً يحافظ بموجبه الجيش على وحدة الأمة، ويستخدم الملك هيبته للحد من تجاوزات المؤسسة العسكرية. كانت تلك خدعة مذهلة للملك؛ حيث حدث 13 انقلاباً ومحاولة انقلاب خلال تلك الفترة.

وكان من حسن حظ تايلند أنْ كان شخص، مثل الجنرال بريم تينسولانوندا Prem Tinsulanonda، رئيساً للوزراء مدة ثماني سنوات ونصف. ولم يحدث قط أن استمر زعيم سياسي مثل تلك المدة في تايلند. لقد أسهمت التقلبات المستمرة في توفير عدم الاستقرار للحياة الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية في تايلند. كان بريم زعيماً مثالياً؛ لأنه كان يملك خبرة زعيم عسكري وسياسي معاً؛ ولذلك كان يفهم ويحترم كلا العالمين. كان بريم قائد الجيش التايلندي قبل أن يعينه الملك رئيساً للوزراء. ولعل الأهم من ذلك، أنه كان عزَباً، ولذلك لم يكن لديه أي أفراد أسرة يحتاجون إلى وظائف، أو زوجات يردن المجوهرات أو المنازل الكبيرة والعطلات الفخمة. لقد كان خادماً متواضعاً للملك. عندما كان مورتون أبراموفيتش Morton Abramowitz سفيراً في تايلند، كان يدعم جهود بريم للبقاء في منصبه عندما واجه تحدياً من بعض السياسيين التايلنديين. وعندما وصلتُ، كان بريم رئيساً للوزراء لمدة عامين تقريباً. كان ماهراً في العمل مع جميع الفصائل في تايلند.

وكان ثانات خومان Thanat Khoman، الذي شغل منصب وزير الخارجية مدة أربعة عشر عاماً؛ وهو شخصية أخرى دامت سنوات طويلة في السياسة التايلندية، وفي خلال فترة عملي سفيراً في بانكوك، كان ثانات نائب رئيس الوزراء. وقد فعل الكثير من أجل تشكيل المشهد السياسي في تايلند مثل أي شخص تقريباً كان حاضراً بالفعل عند إنشاء رابطة آسيان. وبما أن ثانات كان قومياً غيوراً، فإنه لم يكن تعامله دائماً جيداً مع الولايات المتحدة الأمريكية، وبمرور الوقت، أصبح كثير الانتقاد على نحو متزايد. وبدافع القلق من أن تسهم أمريكا في تقويض سلامة آسيا كمنطقة، فإنه كان يريد أن يعمل الآسيويون معاً، وألا يعتمدوا على قوة عظمى لقيادتهم.

كان ثانات ممارساً كبيراً لولع تايلند باللعب بالدول الأجنبية بعضها ضد بعض. كان للتايلنديين تاريخ طويل من الاستقلال: الأمة الوحيدة في جنوب شرقي آسيا التي لم تُستعمر، وحمت استقلالها من خلال هذه الممارسة. وكانت علاقات تايلند الدبلوماسية مع فرنسا منذ لويس الرابع عشر قد وازنت النفوذ البريطاني في ماليزيا وبورما. وفي أواخر القرن التاسع عشر، بدأ التايلنديون تحديث بلادهم من خلال جلب مستشارين من البلدان الصغيرة. فقد دعا التايلنديون الدنمارك إلى المساعدة في القضايا الأمنية. وقامت بلجيكا بتقديم المشورة لهم في المسائل القانونية. وفي وقت لاحق قدمت الولايات المتحدة الأمريكية لهم مستشارين في السياسة الخارجية لعقود من الزمن.

خلال الحرب العالمية الثانية، خضعت تايلند للاحتلال الياباني، وهي استراتيجية البقاء والمرونة المعروفة باسم «انحناء الخيزران». في عام 1948، أسهم سفير الولايات المتحدة في تايلند في جعل تايلند بأثر رجعي «فخراً للحياد» خلال الحرب، وذلك اعترافاً بجماعة «التايلندي الحر» التي حاربت مع الحلفاء. وقد لعبت هذه المجموعة من النخبة - التي قام مكتب الخدمات الاستراتيجي (OSS) بتجنيدها وتدريبها - دوراً رئيسياً في السياسة التايلندية في الجيل اللاحق، ومكنت الولايات المتحدة من المحافظة على علاقة وثيقة مع تايلند؛ من الملك إلى المؤسسة السياسية إلى أجهزة الاستخبارات العسكرية،

وأصبحت تايلند أوثق حلفائنا في جنوب شرقي آسيا، وأصبحت البعثة الدبلوماسية الأمريكية ضخمة، بممثلين لكل وكالة من وكالات حكومة الولايات المتحدة.

بعد حرب فيتنام، فضّل العديد من التايلنديين الموازنة بين القوة العظمى الأمريكية واليابان في مسألة التنمية الاقتصادية؛ إذ أصبح لليابانيين وجود رئيسي في صناعة السيارات والتلفاز والسلع الاستهلاكية الأخرى، والسياحة من خلال الاستثمارات والإنتاج. وعندما برزت جمهورية الصين الشعبية كقوة، دعت تايلند الاتحاد الأوروبي إلى تطوير علاقات اقتصادية وثيقة بها.

عملت مع بريم وثانات في قضية حرجة تتعلق بالقواعد العسكرية. كانت الحرب في الهند الصينية قد انتهت عام 1975، عندما اجتاح الشيوعيون حكومتَي فيتنام الجنوبية وكمبوديا ثم استولوا على الحكم في لاوس. وعلى الرغم من أن الاعتراف بالهزيمة كان وقتاً عصيباً على الولايات المتحدة، فقد كانت مهمة السياسة الخارجية الأمريكية إعادة بناء سمعتنا وعلاقاتنا بعد خسارة تلك الحروب.

وكانت تايلند بمنزلة «جراوند زيرو» أو أرض الصفر لعملية إعادة البناء في مرحلة ما بعد فيتنام. كان علينا أن نتحرك بشكل حاسم، ولكن مع بعض الدقة أيضاً.

كان على رأس أولوياتي في تايلند ضمان أن الولايات المتحدة لديها قاعدة آمنة للعمليات العسكرية. كنا قد استخدمنا القواعد التايلندية طوال حرب فيتنام، ولكن هذه القواعد عادت إلى السيطرة التايلندية بعد الحرب. ولم يكن هناك أحد في آسيا سعيداً ببقاء الولايات المتحدة الأمريكية في الجوار.

أرادت قواتنا المسلحة استخدام قاعدة يودابو Udapao، التي كانت قاعدة جوية ضخمة لقاذفات B-52 خلال حرب فيتنام. وكان فيها مدرج رائع ومستودع. وبعد انتهاء الحرب عام 1975، لم نعد نتمكن من استخدام القاعدة. وكان التايلنديون - مثل العديد من شعوب الدول الأخرى - قد اعتمدوا سياسة متحفظة تجاه التمكين من استخدام

القواعد الأمريكية السابقة. فقد طلب المسؤولون في إدارة ريجان إليّ أن أفاوض لاستخدام يودابو للطائرات الأمريكية في طريقها من اليابان إلى الغرب، وكمكان لتخزين قطع الغيار العسكرية.

وبعد بعض المفاوضات مع رئيس الوزراء بريم، توصلنا إلى اتفاق. ستقوم الولايات المتحدة بتحديث مرافق تزويد الطائرات بالوقود في يودابو، وهو استثمار كبير. وسيرفرف العلم التايلندي فوق القاعدة، رمزاً إلى أنهم هم المسؤولون. ويسمح نظام التزود بالوقود الجديد لأي طائرة بالتزود بالوقود في غضون ساعة. وفي المقابل، تتمتع الولايات المتحدة بحق استخدام يودابو عندما تحتاج إلى قاعدة للعمليات العسكرية. وحصلنا أيضاً على إذن لتخزين قطع الغيار والمعدات اللازمة لفحص الطائرات.

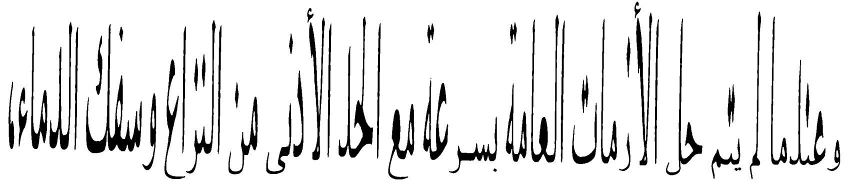
أثمر التزام الإدارة بالتخطيط لهذا الأمر في ما بعد؛ إذ لعبت قاعدة يودابو دوراً رئيسياً كقاعدة للطائرات الأمريكية في حرب الخليج في الفترة 1990–1991.

أرادت الإدارة الأمريكية أيضاً العمل بشكل وثيق مع القوات المسلحة التايلندية. فمنذ الانقلاب الذي وقع عام 1932، لعب الجيش دوراً حاسماً في حكم تايلند. وقد ضَمن الجنرالات، جنباً إلى جنب مع الملك، الاستقرار الذي أبقى البلاد خالية من السيطرة الأجنبية. وقام الأمريكيون بتدريب الضباط والأفراد المجندين التايلنديين في القوات الجوية، والبحرية، والبرية. كما ساعدنا أيضاً على تحديث القوات البحرية التايلندية بسفن تم بناؤها في تاكوما، بواشنطن. وتم تجهيز هذه السفن بتكنولوجيا متقدمة، بما في ذلك صواريخ معينة.

كان العمل مع الجيش التايلندي يعني أيضاً العمل على التنمية الاقتصادية. فقد قام الجيش التايلندي ووزارة الأشغال العامة بتشييد الطرق في المناطق الريفية المعزولة من تايلند؛ لكي تتمكن العناصر المستاءة – المزارعون، غالباً – من نقل المنتجات إلى السوق. وعن طريق تشييد الطرق، ساعدنا على تمكينهم من إيصال المدارس والتلفزيون، والعيادات الصحية، وغيرها من الخدمات الأساسية، إلى المناطق النائية.

في قرن حدثت فيه حرب بين الديمقراطية والدكتاتورية الشمولية من أجل السيطرة على السياسة العالمية، قدّمت تايلند درساً في تأثير التقاليد القديمة في دولة نامية، وعلى وجه التحديد، الأهمية الدائمة للسلطة الملكية.

لقد فعل ملك تايلند وملكتها المزيد للمحافظة على السلام - وشرعية الحكومة - مقارنة بأي شخصيات أخرى في البلاد. فأينما ذهبا، كانا يجدان جمهوراً يحبهما ويحترم سلطتهما. وقد بادل الزوجان الملكيان الجميع في البلاد المودة والاحترام؛ من الفصائل السياسية المتحاربة إلى عمال المزارع المتواضعين. وجعل الملك هذا الأمر عادة أظهرها إلى العلن مع جميع الفصائل في تايلند، ومنحهم التقدير الذي كانوا يتطلعون إليه، ولكن أيضاً مع تليين تصلبهم من خلال الخضوع له.



كان بإمكان الملك استخدام نفوذه للجمع بين الجانبين. كان الملك، مثل بابا الفاتيكان، يملك فهماً عجيباً لقوة الرمز في وسائل الإعلام. فبعد سنوات من جولتي في تايلند، في عام 1992، جمع الملك بين رئيس الوزراء والقادة العسكريين بعد أن أطلق الجنود النار على الحشود التي كانت تدعو إلى مزيد من الديمقراطية. وفي الاجتماع - الذي بث عبر شاشات التلفاز - اقترب الجانبان من الملك وهم راكعون، واستجابوا لأمره بأن يشكلوا ائتلافاً حاكماً مقبولاً لكلا الجانبين.

وعندما كان يشعر بأن إحدى القضايا بحاجة إلى إثارة في وعي الجمهور - مثل الأيدز أو التلوث - كان الملك يبدي رأيه حولها. على الرغم من أن الملوك نادراً ما يخوضون في مشكلات السياسة العادية، خوفاً - وبحق - من أن يفقدوا سحرهم إن أصبحوا مجرد متذمر آخر، كان الملك بوميبول يعرف كيف يبدي رأيه «كمواطن» عندما كانت الأمة تعلق في مأزق وتحتاج إلى دفعة للخروج منه.

لا أحد كان بإمكانه أن يتنبأ بالتأثير النادر الذي سيتمتع به الملك بوميبول أدوليادیج في شعبه عندما تولى العرش في عام 1946 في ظل ظروف مأساوية.

كان أبوه الذي ولد في كمبردج بولاية مساتشوستس، طالباً في كلية الطب بجامعة هارفارد، ووالدته طالبة في كلية سيمونز في بوسطن، وقد اعتلى بوميبول العرش في ظل ظروف صعبة. وقبل صعود بوميبول على العرش، كان ملك تايلند هو شقيقه، أناندا ماهيدول البالغ من العمر عشرين عاماً. ولكن في 9 يونيو 1946، وُجد أناندا ميتاً في غرفة بعيار ناري في رأسه. لم تكن ثمة تفسيرات مطلقاً لظروف وفاة الملك الشاب؛ ما أوجد سيناريوهاً محرجاً للملك الجديد.

أنهى بوميبول تقليداً عمره قرون من تعدد الزوجات واقترن بزوجة واحدة فقط، وبقي جانبها طوال حياته. أنا لست مؤمناً بعمق بشعار «الشخصي هو السياسي»، لكن الفكرة تنطبق على ملك تايلند. وقد وجد بوميبول - في حياته مع الملكة سيريكيت وأطفالهما الثلاثة - الطاقة والهوية اللتين ساعدتا على تماسك أمة مضطربة.

وقد أسهم معظم أعضاء العائلة المالكة في العمل الوطني في تايلند. عندما كنت في تايلند، كانت والدة الملك، المعروفة باسم «أم الأمير»، ماتزال نشيطة جداً؛ حيث كانت تطير في جميع أنحاء البلاد، على الرغم من تقدم عمرها، وتوزع المساعدات؛ مثل الأدوية والبطانيات والملابس، لقبائل المناطق الجبلية. كانت سيدة مسنة رائعة، وقدوة ممتازة للنخبة التايلندية.

مع مرور الوقت، أصبح بوميبول أطول الملوك جلوساً على العرش في التاريخ التايلندي. والحاكم الذي تفوق هو عليه من حيث المدة، كان الملك مونجكوت Mongkut [الملقب راما الرابع] ملك القرن التاسع عشر الذي اشتهر في الثقافات الغربية في مسرحية **الملك وأنا**. كان مونجكوت، في الواقع، جد بوميبول الأول. وكان بوميبول، مثل مونجكوت، رجلاً يتصف بوقار كبير، ولكن مع اهتمام كبير بالعلم والتقدم. إن من الصعب أن أشرح للأمريكيين قوة الشخصية الفريدة للملك. فهو، من ناحية، كان شخصية مبجلة، لا يجرؤ أحد في تايلند على انتقاد الملك أو الملكة، لكنه، من ناحية أخرى، كان متواضعاً، ومعتدلاً، وهادئاً.

أقمت علاقة عمل وثيقة مع الملك بوميبول. وقد قاده اهتمامه بالشعب إلى زيارة الأرياف مع زوجته بشكل منتظم للقاء التايلنديين العاديين. كان يسألهم بكل تواضع عما يحتاجون إليه لتحسين حياتهم، وقد أتاح السفر في المحافظات للزوجين الملكيّين إحدى أعظم وسائل نفوذهما. فقد أقاما المئات والمئات من الأشغال العامة في مختلف أنحاء البلاد، وتتبّعا شخصياً سير الأعمال في هذه المشروعات. وبدلاً من تطوير أفكارهم للمشروعات من خلال تعيين لجان من الخبراء وتكليفهم بوضع خطط رئيسية، قام الملك والملكة باكتشاف العديد من الأفكار من خلال رحلاتهما بين الناس.

كان الملك يلتقي الناس ويسمع طلباتهم، ويحيط به ما لا يقل عن خمسين مساعداً. يسأل أحد القرويين: «ماذا يمكنني أن أفعل لك؟».

يأتيه الرد: «أنا بحاجة إلى الماء». وفي غضون ثلاثة أسابيع، يصبح هناك مضخة مياه في القرية.

ويسأل: «ماذا يمكنني أن أفعل لك؟».

كان الناس يصطفون لساعات للقاء الملك والملكة، وعندما يصلون إلى مقدمة الرتل كانوا يركعون أمامهما، ودموع الفرح في عيونهم. «أنا بحاجة إلى شخص لإصلاح أسناني. نحن جميعاً بحاجة إلى طبيب الأسنان». وبالفعل قام الملك والملكة، في بعض رحلاتهما بجلب طبيب أسنان؛ ليعتني بمئات الناس في زيارة واحدة. كما شجع الملك الأطباء لقضاء بعض الوقت «في أعالي البلاد» لتوفير الرعاية للأشخاص الذين يعيشون في تلك المناطق من دون عيادات أو مستشفيات.

كان بوميبول استراتيجياً بلطف في زياراته إلى الريف، وذلك باستخدام طلبات الشعب؛ لا لتلبية الاحتياجات العاجلة فحسب، ولكن أيضاً لتسليط الضوء على المبادرات السياسية الواسعة النطاق؛ ففي إحدى زياراته أعلن تمويل عيادة الخصوبة، وفي مناسبة

أخرى أعلن منحة لمصنع الوقود البديل، وفي وقت آخر أعطى المال من أجل مصنع بَسترة الحليب.

كان الملك مهتماً دائماً بالاكتفاء الذاتي للناس في المناطق النائية. وقد تعهد العديد من المشروعات لدفع المزارعين والحراجيين للتحول من الممارسات التدميرية - ما يسمى زراعة «القطع والحرق» - إلى ممارسات أكثر استدامة لا تحمي الأرض فحسب، بل تؤدي إلى عائدات أعلى أيضاً.

بسبب وباء المخدرات في تايلند، عمل الملك بجد لتحويل الاقتصاد الزراعي من الخشخاش إلى الغذاء. وهذه عملية صعبة؛ لأن هوامش ربح المخدرات أعلى كثيراً مما هي عليه بالنسبة إلى جميع المحاصيل الأخرى. ولكن بوميبول كان يفهم أن المزارع في أسفل النظام لم يكن يحصل على الكثير من المال من المخدرات؛ فالرجل الذي يزرع الخشخاش لا يحصل على الكثير من المال، بل الوسطاء هم الذين يجنون معظم الأرباح. فإذا تتبعت المصافي والأسواق، فلديك فرصة لتعطيل النظام، وعندئذٍ سيستخدم المزارع الحوافز التي تقدمها له ليتحول إلى المحاصيل القانونية. وقد حققت هذه الجهود نجاحاً إلى حد ما. يمكنك شراء المنتجات التايلندية في أوروبا في منتصف فصل الشتاء؛ مثل الهليون وجميع أنواع الفاكهة.

عندما كنت في تايلند، كانت آفة الأيدز قد بدأت للتو تنتشر في تايلند. فأعلن الملك مبادرات لإنشاء دُور إيواء المرضى والعيادات التي من شأنها رعاية ضحايا المرض. وقد أسهم احتضانه هذه القضية في تخفيف بعض وصمة العار الاجتماعية.

في لقاءاتي مع الملك في مقر الإقامة الملكي كنا نتحدث بانتظام عن الشؤون السياسية والعسكرية. فكان يقول: «أعطني جرافات، أما طائرات F-16 فهي مسألة أخرى. إننا قد نحتاج إليها، ولكنني في حاجة إلى مزيد من الجرافات». كان بوميبول يفهم أن الشيوعية لا تنجح إلا إذا افتقر الناس إلى وسيلة لتحصيل معيشتهم. قال لي: «عليك أن تعطي الناس

فرصة لكسب العيش. لا تعطِنا فقط السفن التي نحتاج إليها للدفاع عن أنفسنا، بل ساعدنا على بناء السفن بدلاً من الحصول عليها من دول أجنبية».

وعندما تتم كتابة كتب التاريخ، فإنها قد تستنتج أن اللاجئين أفضل رمز للعنف والدمار إلى جانب الحركة والتنقل والفرص في القرن العشرين. وفي السنوات الخمسين الماضية فقط، تشير تقديرات الأمم المتحدة إلى أن أكثر من خمسين مليون شخص اضطروا إلى مغادرة أوطانهم. وأنا كلاجئ من ألمانيا النازية، كان لدي التزام شخصي بأن أحرص على أن تجد الجماعات الهائمة على وجوهها في عصرنا مكاناً آمناً ومأموناً للاستقرار، تماماً كما فعلت.

كان موظفو سفارتي في بانكوك يعملون أكثر على موضوع اللاجئين الكمبوديين، أكثر من أي قضية أخرى. فقد فر الكمبوديون من إبادة جماعية قتل فيها أكثر من مليون ونصف مليون نسمة من أصل عدد سكانها البالغ سبعة ملايين فقط. ومن حق أولئك الذين استطاعوا الإفلات اللجوء في دول أخرى. وبما أن تايلند لها حدود مع كمبوديا، فقد عملت السفارة الأمريكية مع الحكومات الأخرى والمنظمات غير الحكومية من مختلف أنحاء العالم لتوفير المأوى والغذاء والدواء والتعليم للاجئين. وأصبحت مراكز اللاجئين المخصصة لهذا الغرض مدناً صغيرة. فكان النساء والأطفال يذهبون في جولاتهم اليومية، ولكن في كثير من الأحيان، لم يكن الرجال يعرفون ماذا يفعلون. كان بعضهم يحفرون قطعاً فنية خشبية صغيرة، في حين تجنَّد آخرون في المقاومة المناهضة للشيوعية في كمبوديا.

في عام 1979، فر مئات آلاف الكمبوديين إلى تايلند، وهي الأزمة التي كانت قد شغلت سلفي، السفير مورت أبراموفيتش، مدة عامين. وفي عام 1979 غزت فيتنام كمبوديا، فطردوا الخمير الحمر، الذين لم يقتلوا شعبهم فحسب، بل هاجموا فيتنام أيضاً، ثم استولت حكومة جديدة من المنشقين عن الخمير الحمر على بنوم بنِه. كانت الحدود الشرقية لتايلند مفتوحة أمام تدفق اللاجئين الكمبوديين والهجمات من فلول قوات بول بوت. وقد

انضم بعض الكمبوديين في مخيمات اللاجئين - بدعم من المنظمات التايلندية والأمريكية - إلى الكفاح المسلح ضد النظام الجديد في بلادهم.

حينما تضخمت مخيمات اللاجئين، كان الأمل الوحيد هو إعادة التوطين في بلدان أخرى. انتقل مئات الآلاف من الكمبوديين وبعض الفيتناميين إلى الأمريكتين، وأوروبا، وأستراليا، وإلى حد أقل إلى أجزاء أخرى من آسيا. أصبح العديد من هؤلاء اللاجئين مشردين، وفي حاجة إلى المساعدة بسبب الصراعات السياسية والعسكرية والاستراتيجية بين المتنافسين الأيديولوجيين. لم يكن معظم اللاجئين يريدون إلا أن يجدوا لأنفسهم مكاناً للعيش في سلام، وإقامة أسر تعيش حياة أفضل مما كانوا عليه خلال نصف قرن من الحرب في جنوب شرقي آسيا.

لقد أثّر الوضع كله - من لاجئين، ومخيمات على طول الحدود بين تايلند وكمبوديا، وقوة فيتنام المتنامية - في العلاقات بين الولايات المتحدة وتايلند. كان التايلنديون بحاجة إلينا، وكنا نحن بحاجة إلى التايلنديين أكثر من أي وقت مضى. وقد أقاموا وحدة خاصة على الحدود لمنع الكمبوديين من الدخول إلى تايلند. وقد أقامت مجموعة الدول التي استقبلت اللاجئين أنظمة معالجة جيدة. لكن المخيمات كانت منطقة مجردة من السلاح؛ حيث تمركزت القوات التايلندية المتمركزة على الجانب الغربي، والمنظمات غير الحكومية كانت تعمل داخل المخيمات، بينما منعت القوات الكمبودية الناس من العودة إلى البلاد.

وثمة إرث مؤسف آخر من حرب فيتنام هو الجهود العاطفية، وغالباً الساخرة، من بعض الأمريكيين لتعقب جنود كانوا في عداد المفقودين في أثناء القتال. وكانت مجموعات منظمة من أشخاص؛ مثل روس بيرو أو العسكريين المتقاعدين، تعتقد أن لاوس، وكمبوديا، وفيتنام كانت ماتزال تحتجز أسرى حرب، وكانت عازمة على إخراجهم.

كان هناك سيدة معينة اسمها السيدة تشابمان، كان زوجها قد قاد الطائرات الأمريكية في لاوس، قَدمتْ لرؤيتي في بانكوك. وكنت قد التقيتها قبل ذلك بسنوات في لاوس

عندما تعين عليّ إبلاغها الخبر السيِّئ بأن الطائرة التي كان زوجها يقودها قد تحطمت. وبما أن الطائرة كانت تحمل ذخيرة، فقد انفجرت أيضاً. لم يكن هناك أي إمكانية لأن يكون هناك أي ناجين. وبعد سنوات، في بانكوك، جاءت السيدة تشابهان مع مجموعة من أفراد أسر أخرى فقدوا أحباءهم في الحرب، وقالت لي: «سعادة السفير، أنا واثقة بأن زوجي مايزال على قيد الحياة وأنه مسجون في لاوس». منذ الوقت الذي توفي فيه زوجها، كان بعض صائدي الجوائز من عديمي الضمير في الولايات المتحدة قد أقنعوها بأنه لم يمت. كان هؤلاء الوطنيون المزعومون ليسوا أكثر من محتالين استفادوا من خلال رفع آمال ضحايا الحرب الأمريكيين.

اعتذرت إلى السيدة تشابهان عن عدم رغبتي في الحديث مع المجموعة. قلت لها: «السيدة تشابهان، أنت تعرفينني. أنا الذي أبلغتك الأخبار السيئة بأن زوجك كان يقود طائرة فيها ذخيرة، وأنها قد انفجرت».

انهارت في البكاء. وقالت: «أنت تعرف، هؤلاء الناس الذين يتحدثون معي يمنحونني الأمل وأنا أعيش على الأمل. وهم قالوا لعله مايزال على قيد الحياة، وأنا صدقت ذلك». وغادرتْ مكتبي. لعلها أصبحت مطلعة على الحقيقة، لكنني لا أعتقد أنني كسبت صديقاً عن طريق الصدق.

ثمة أناس آخرون – وهم في الغالب من العسكريين السابقين – جاءوا إلى تايلند بغرض وحيد هو البحث عن المفقودين أو الأسرى في لاوس. وأحضروا معهم معدات اتصالات متطورة إلى لاوس. وبقيت مجموعة احتياطية في تايلند على اتصال معهم وهم يبحثون في أدغال لاوس.

ومادمت خدمت في لاوس مرتين، وشاركت في حرب فيتنام، فقد كنت أعرف عن عدد قليل من الجنود الذين هربوا، ووجدوا لهم امرأة من السكان المحليين، وبقوا هناك. وعانى بعض هؤلاء الرجال الحنين إلى الوطن أو المرض، وخرجوا من الغابة، وسلموا

أنفسهم، وطلبوا تسفيرهم إلى وطنهم. وعلى العموم، فقد تعامل الجيش الأمريكي إلى حد ما بإنسانية معهم.

ولكن لا أعتقد أن أي أمريكيين تم اعتقالهم في لاوس، بل أعتقد أن عدداً من الجنود مازالوا في عداد المفقودين في الحرب. وقد واصلت الأجهزة الأمريكية البحث عن المفقودين. وقد دعمت هذا الجهد تماماً. ولكن المجموعات الخاصة التي كانت تبحث عن الأسرى في لاوس في الثمانينيات كانت تقوم بترتيبات للحصول على المال مقابل عظام عادت بها. فقد خرجوا بعظام، ولكنها ليست عظام الجنود الأمريكيين.

وقعت إحدى مجموعات المغامرين الأمريكيين في مشكلات مع الجيش اللاوسي. أصيب أمريكي ولاوسي قدما مع المجموعة بجراح في أثناء محاولتهما الهرب من الأسر لدخولهما الأراضي اللاوسية من دون إذن، فاتصلا لاسلكياً لطلب المساعدة. ولم يتصلا بالسفارة الأمريكية مباشرة، ولكن جاء أمريكي وأخبرني. «سعادة السفير، هذا الرجل وفريقه في ورطة خطيرة. إنهم محاصرون، وبحاجة إلى إخراجهم من هناك». وقد فعلت ما في وسعي لتمكينهم من الرحيل من لاوس.

عندما وصل الأمريكيون الذين تم إنقاذهم إلى بانكوك، أمرت القنصل العام بأن يحصل للأمريكيين على العناية الطبية وعلى مقاعد على متن طائرة إلى الولايات المتحدة، فعاد في وقت لاحق، وقال: «لا أعتقد أننا يجب أن نفعل ذلك». يبدو أن الأمريكيين لديهم بعض المناصرين الرفيعي المستوى في الولايات المتحدة الذين دعموا هذه المشروعات الداعية إلى السخرية.

بما أن قنصلنا العام قد أحجم عن التصرف، فقد ذهبت إلى رئيس الوزراء لأقترح أن تقوم السلطات التايلندية بتقليص تأشيرات الدخلاء، وإجبارهم على الخروج من تايلند. وقد فعلوا ذلك. ولكن كان من العار أن يحدث هذا الوضع في المقام الأول، وأن تلقى هذه الاحتيالات الدعم في الولايات المتحدة.

حاولت هذه المجموعات الخاصة توريطي كوسيط، فقد جاءني مدير أحد البنوك الأمريكية في بانكوك بعد ظهر أحد أيام الجمعة بمغلف يحتوي على 5,000 دولار نقداً، قائلاً: «جون، لقد طُلب إلي أن أعطيك هذا المغلف؛ لأنك سوف تدعم الجهود المبذولة لاسترداد ما تبقى من الأمريكيين الذين قتلوا في المعارك، هؤلاء الأمريكيون يتسللون إلى لاوس ويعودون بالرفات للعائلات في الوطن. يرجى منحهم هذه الأموال عندما يعودون مع الرفات».

غضبت. «هؤلاء الرجال يعودون من لاوس بعظام الدجاج. أنا لا أريد أن أتورط في هذه الصفقة. أنا لا أريد هذا المال في خزينة حكومية خلال عطلة نهاية الأسبوع. يرجى إعادته». وكانت هذه نهاية تلك القصة.

هناك مناسبات يتم فيها الطلب إلى أي سفارة القيام بخدمات، وغالباً ما تكون لأشخاص ذوي صلات جيدة. ولكن عندما تتعلق تلك الخدمات بنشاطات غير مشروعة مثل المخدرات، فمن المفيد أن تتخذ جانب الحيطة والحذر. فبين كل فترة وأخرى، كانت السلطات التايلندية تعتقل «بغلاً»؛ أي شخصاً يجلب الهيروين من بانكوك إلى الغرب بالطائرة. كان البغالون يحصلون على ما بين 3000 و4000 دولار، وهو أجر ليس سيئاً لعمل يوم واحد، إلا إذا كنت ترى أنهم غالباً ما يلقى القبض عليهم متلبسين. وفي الوقت نفسه، تم القبض على عدد من المتعاطين والمروجين من خلال مختلف الجهود التايلندية والدولية الرامية إلى اعتراض المخدرات. كنا دائماً نطلب إنزال أحكام قاسية في هذه الحالات، ويمكن أن تتراوح الأحكام بين عشرين عاماً وثلاثين. وقد حصلت على عدد من الطلبات المقدمة من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي أو مسؤولين رفيعي المستوى في الإدارة من أجل تحرير السجناء الذين كانت لهم صلات رفيعة المستوى في الوطن. وعادة، كان يُطلب إليّ أن أطلب العفو الملكي عن الجناة.

ذات مرة تم القبض على أمريكي كان يعمل في السفارة ومعه مخدرات في صناديق الشحن في أثناء عودته إلى منزله في الولايات المتحدة. فهل كان مسؤولاً عن إخفاء المخدرات؟ وهل

ثمة شخص آخر وضعها له هناك للإيقاع به؟ أدين وألقي في السجن. وصلتني مذكرة شخصية من مسؤول أمريكي عالي المستوى يطلب مني التماس العفو الملكي.

في البداية لم يكن من الصعب جداً أن نطلب عفواً عندما كان يطلبه أمريكيون رفيعو المستوى. ولكن سرعان ما صارت الطلبات تأتي من ممثلين وأعضاء في مجلس الشيوخ وجنرالات وأدميرالات. كان ذلك أكثر من المعقول. لم يكن بإمكاني الاستمرار في الطلب من الملك لمثل هذه الخدمات. لقد كان ذلك إهانة للجهد التايلندي لمواجهة آفة المخدرات الفظيعة. وما شأن الأمريكيين في السجون التايلندية الذين لم يكن لديهم تلك الصلات؟ كانت المشكلة هي كيف تحمي المواطنين الأمريكيين، وفي الوقت نفسه تكون منصفاً تجاه الأمريكيين الآخرين في السجون.

ذات مرة، وبينما كنت في إجازة في فرنسا، التقيت فرنسياً بارزاً، قال لي: «سعادة السفير، لقد ارتكبت خطأً فظيعاً. قبل سنوات عديدة تزوجت زوجة أصغر مني سناً بكثير، وكانت جزءاً من جيل الهيبيين ومدمنة بشدة على المخدرات. وقبل بضع سنوات مضت، أخذت أطفالنا الثلاثة إلى تايلند، وجميعهم الآن غارقون في ثقافة المخدرات. لقد تم القبض عليهم جميعاً في تايلند ويقضون عقوبات طويلة الأجل في السجون التايلندية. هل يمكنك أن تفعل شيئاً؟ وأنا على استعداد لدفع أي مبلغ من المال لإخراجهم».

قلت له إنني سوف أرى ما يمكنني فعله. وعندما عدت إلى تايلند، أخبرت نظيري الفرنسي جان سولييه، حول الطلب، فقال لي: «هذا آخر شيء تريده. لا تتورط على الإطلاق في هذه الحالة الدنيئة. هناك قصة تدور في بعض البلدان حول أن القضاة التايلنديين فاسدون. ومعظمهم ليسوا كذلك. إنهم يطبقون القانون فقط. إن عرضت عليهم المال فسوف تُتهم بإفسادهم».

قال سولييه: «بدلاً من طلب العفو من الملك، لماذا لا تفاوض على توقيع معاهدة لتبادل المساجين؟ وبعد أن يخدم الشخص المدان سنة في السجن المحلي، يمكنهم أن

يعودوا إلى ديارهم لقضاء بقية العقوبة. سوف يقبل التايلنديون الاقتراح لأنه لـن يقـوض جهود مكافحة المخدرات، وسوف يخلص الـبلاد مـن الخـارجين عـلى القـانون». أخـذنا الفكرة إلى الملك، فوافق. وقد وقعت الولايات المتحدة وفرنـسا على الاتفاق مع تايلنـد في ذلك العام.

أخذ ذلك في الحسبان، مشكلة العفو الملكـي، وأنهـى التعامـل مـن الـداخل وسـمح للتايلنديين أن يكونوا منصفين مع جميع المخالفين. ومع نهاية الحرب الباردة في عام 1989، وإعادة التأكيد التدريجي لدور الصين (الشيوعية) التقليدي في آسـيا، ظهـرت تايلنـد أقـل انحيازاً علناً وأكثر انسجاماً مع دول آسيان الأخرى. ومع ذلك، فإنـه بحلـول تـسعينيات القرن الماضي كان التعاون بين الولايات المتحدة وتايلند وثيقاً جداً لفترة طويلـة، حتـى إن كثيراً من النيات الحسنة ظلت موجودة في تايلند تجاه الولايات المتحدة الأمريكية.

لكن نهوض البر الصيني الرئيسـي كمركز اقتصادي وثقافي رئيسـي كان لـه تـأثير في تايلند. فقبل أواخر التسعينيات كانت بعض الدول في جنوب شـرقي آسيا تعتقد أن مراكز قوى عدة، وليس الولايات المتحدة وحدها، ستحدد الأوضاع حول العـالم. وبـدأ رجـال الأعمال التايلنديون من أصل صيني يستثمرون في الصين، ولم يعودوا يتطلعـون حصـرياً نحو تايوان لأجل المشـروعات التجارية. وقد شعـر هـؤلاء التايلنـديون بفخـر متجـدد بالتقاليد والثقافة الصينية. وحدثت هذه الظاهرة أيضاً في بلدان أخرى من جنوب شـرقي آسيا مع مواطنين من أصول صينية.

يوجد خمسة ملايين مسلم في جنوب تايلند، وحدود مشتركة مع ماليزيا ذات الأغلبية المسلمة. في الماضي، كان التسامح البوذي قد مكّن جميع المواطنين من العيش بانسجام معـاً إلى حد ما. وقد احتاج جنوب تايلند (المسلم) إلى التنمية الاقتصادية، مثلما احتاجت إليهـا الأرياف (البوذية) شمال شـرقي تايلند. وقد تلقى كلاهما المعاملة نفـسها. فهـل يمكـن أن يصبح الدين قضية لتايلند في القرن الحادي والعشـرين؟ لقـد تأقلمـت تايلنـد دائـماً مـع الواقع، ومن المرجح أن تواصل القيام بذلك في المستقبل. ولكن القتال الأخير، والقتـل في

جنوب تايلند لا يبشر بالخير. وبحلول التسعينيات تغير المشهد السياسي. ففي وقت مبكر من ذلك العقد، كان مؤتمر باريس للسلام في كمبوديا قد استقر على تشكيل حكومة ائتلافية لهذا البلد، ولم تعد كمبوديا قضية ثنائية بين الولايات المتحدة وتايلند. وقد انضمت كمبوديا ولاوس وفيتنام إلى رابطة آسيان. وبما أن تايلند لم تعد «دولة الخط الأمامي» في الحرب الباردة ولا في جنوب شرقي آسيا، فقد تطورت العلاقات بين الولايات المتحدة وتايلند.

لعل الملك بوميبول كان على حق عندما اقترح علي في أوائل الثمانينيات أن المساعدة العسكرية الأمريكية يجب أن تعطي اهتماماً أكبر لتوفير الجرافات بدلاً من الطائرات المتطورة للقوات المسلحة التايلندية. وقد سوغ بأن الجرافات، ومواد بناء الجسور وتشييد المدارس والمستشفيات، من شأنها تحسين البنية التحتية؛ ومن ثم تسهيل الحياة لسكان المناطق الريفية داخل البلاد. وهذا من شأنه أن يسهم في توحيد الأمة أكثر من الأسلحة المتطورة للجيش التايلندي. ألم يكن العدو المحتمل هو من الداخل (الفقر والبطالة وعدم المساواة الاجتماعية)؛ حيث يهدد بقاء الدولة مثله مثل عدو عسكري أجنبي محتمل؟

لقد بنت الولايات المتحدة وتايلند علاقة منفعة متبادلة، في الوقت الذي حرض فيه الوضع السياسي في العالم الولايات المتحدة ضد العالم الشيوعي. وبدلاً من الاعتماد المفرط على التعاون العسكري، في هذا الجو السياسي المتغير، يغدو التعليم، والتجارة، والمالية، والعلوم، والزراعة وسيلة أكثر قيمة لتعزيز الصداقة التي يعود تاريخها إلى عام 1833.

الفصل التاسع

عناقات قاتلة

إن بداية أي فترة لتعيين السفير تكون مليئة بالمراسم والآمال الكبيرة. وقبل التعامل مع العمل الدبلوماسي الشاق – من حرب وتمرد ومخدرات وأسلحة، وصراع ديني وتنمية اقتصادية – يتعين على السفير الجديد أن يتعرض لوهج الأمل.

عندما جاء رئيس المراسم في الهند إلى السكن ليأخذني إلى قصر الرئاسة لتقديم أوراق اعتمادي، كان يرافقه اثنا عشر رجلاً من حاملي الرماح الهنود الذين يرتدون ملابس زاهية الألوان، وقد امتطوا خيولاً جميلة المظهر. وبعد استعراض مفرزة من القوات الهندية في ثياب القتال الحديثة، صعدتُ الدرج الحجري الضخم في القصر للقاء الرئيس الهندي. وعند كل واحدة من هذه الدرجات الواسعة جداً، كان الرماحون الهنود يقدمون التحية بعصيّهم وأعلامهم الصغيرة، وعند القمة وقف الرئيس أمام العرش الفضي الذي كان يستخدمه الوالي البريطاني في السابق.

عندما عينني الرئيس ريجان سفيراً في الهند، حظيت بتوديع لطيف من الإدارة. كان نائب الرئيس جورج بوش [الأب] قد كتب إلى رئيس الوزراء راجيف غاندي للتعريف بي، يقول: «ستجده سفيراً "نشيطاً"، وفي اعتقادنا أن هناك فرصاً لا مثيل لها لتعزيز العلاقات بين الهند والولايات المتحدة، وأن سفيراً مثل جون هو المطلوب لتحقيق أقصى فائدة فيها».

لم أكن من النوع الذي يجلس في السفارة يقرأ البرقيات ويستضيف الأطراف. كنت في حاجة إلى الخروج، ورؤية البلد كله، والتحدث مع كل مجموعة، وجمع الناس معاً عندما تكون هناك صراعات. كان تحركي دائماً يثير حفيظة بعض الأشخاص، سواء كنت

أحاول العثور على «حل موجَّه» في كمبوديا، أو العمل مع منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، أو التوسط في النزاعات بين الأمريكيين في تايلند. ولكن نائب الرئيس بوش -الذي كنت قد عرفته عندما كنت سفيراً لدى كمبوديا، وكان هو مبعوثاً إلى الصين- بدا أنه كان يستحسن ذلك، وكذلك الرئيس رونالد ريجان.

عندما يوافق الرئيس ونائب الرئيس على نهجك في النشاط الدبلوماسي، فأي خطأ سيحدث؟

كان التحدي الذي واجهني في نيودلهي هو كيف تكون ناشطاً من دون أن تصبح شديد الدفاع عن أحد الجانبين. كان علي أن أتعامل مع أطراف كانوا على خلاف مع بعضهم بعضاً؛ (الهندوس والمسلمون، الأصوليون والعلمانيون، والشركات والبيروقراطيون الحكوميون، والطوائف وأهل الحداثة، والحكومة المركزية والإدارات الإقليمية).

كان التعامل مع أي قضية في الهند يتطلب أيضاً التدخل في الصراعات السياسية الخارجية المعقدة. فالحياة اليومية في الهند تتحول في كثير من الأحيان إلى صراعات خارجية مدمرة مع باكستان وأفغانستان؛ ومن ثم، من طرف الدول الأخرى المشاركة في صراعات الشرق الأوسط التي مضى عليها قرون. وعندما كان يقع أي حدث كبير في بلد مجاور في أي وقت من الأوقات - كمحاولة انقلاب في باكستان، وبيع الأسلحة إلى مجموعات حرب العصابات في أفغانستان، والاحتلال العراقي لدولة الكويت، والانتفاضات في الأراضي الفلسطينية التي تحتلها إسرائيل - فإن الحياة في الهند كانت تتأثر.

كنتُ على مدى حياتي المهنية كلها، أشارك دائماً مع البلد المضيف، ومع كل البلدان التي لها تأثير مباشر في مصالح البلد المضيف ومصالح الولايات المتحدة. كانت لاوس وفيتنام وكمبوديا جميعاً تتطلب عملاً جاداً مع كل واحدة من هذه الدول الثلاث، وكذلك مع فرنسا، والصين، والاتحاد السوفيتي، أما تايلند فكانت تتطلب التعامل مع لاوس

وبورما. وكان لبنان يتطلب التعامل مع إسرائيل، وسوريا، والأردن، والمملكة العربية السعودية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وغيرها. لم تعد أي دولة تمثل جزيرة بعد الآن، ولا يمكن للدبلوماسيين أن يحددوا مجالات عملهم على نحو ضيق جداً. وماداموا ينسقون نشاطاتهم مع واشنطن، فإن التحرك يثمر أفضل نهج لإيجاد حلول للمشكلات المعقدة. وهكذا كنت أتوقع أن أمضي الكثير من الوقت في التعامل مع باكستان وأفغانستان خلال فترة ولايتي كسفير.

كان أحد مخاوف الهند خلال هذه الفترة، الجهود الباكستانية للحصول على القنبلة النووية. ولم تكن الهند الدولة الوحيدة التي كانت تخشى الطموحات النووية الباكستانية. فإسرائيل وأصدقاؤها الأمريكيون أعلنوا قلقهم بصراحة لامتلاك دولة مسلمة القنبلة النووية.

شدت الأزمة في أفغانستان أيضاً اهتمام كل من الهند وباكستان. فقد خاض الاتحاد السوفيتي حرباً هناك مدة سبع سنوات. عندما غزا السوفييت أفغانستان عام 1979، لم يكن أحد يتوقع أن يتحمل البلد الكثير من القتال. ولكن حركة متنامية من المتمردين المسلمين حاربت السوفييت بفاعلية مذهلة، وقد سمّت الصحفُ الحربَ في أفغانستان «فيتنام السوفيتية»، وكان المجاهدون الثائرون قد تلقوا أسلحة من دول عدة. وبحلول الوقت الذي توليت فيه منصبي في نيودلهي عام 1985، كان الثوار يحرزون تقدماً. وبحلول عام 1988 أعلن الزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف جدولاً زمنياً للانسحاب من أفغانستان خلال ستة أشهر، مع تولي حكومة جديدة الحكم في كابول.

ولكن وراء العناوين كانت تتراءى مشكلات خطيرة، إحداها أن حركة المقاومة ضد السوفييت في أفغانستان كانت ضالعة بشكل عميق في الاتجار بالمخدرات. وقد ساعد الباكستانيون، بمن في ذلك الجيش الباكستاني، على تصدير الإنتاج الأفغاني.

ومع مرور الوقت، أصبحت المقاومة ضد السوفييت حركة أصولية إسلامية، وطورت تنظيماً وتكتيكات أدت إلى أهوال 11 سبتمبر 2001؛ ولأسباب سعيت جاهداً لفهمها، كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها الباكستانيون يلقون بثقل دعمهم وراء أشد العناصر أصولية في أفغانستان. ولم يكن لدى هؤلاء الأصوليين تسامح أو احترام للديمقراطية أو حقوق الإنسان الأساسية.

ومهما كانت علاقات الهند معقدة مع الدول الأخرى، فربما كانت العلاقات الداخلية أشد تعقيداً. وذات مرة وصف جواهر لال نهرو، زعيم حركة الاستقلال والأول في سلالة سياسية دامت ثلاثة أجيال، الهند بأنها «كيان جغرافي واقتصادي، ووحدة ثقافية في ظل التنوع، ومجموعة من التناقضات تجمعها خيوط قوية ولكنها غير مرئية»؛ ولذا، فإن الهند تمثل اختباراً أساسياً للحداثة: كيف تجمع بين أشخاص من خلفيات مختلفة بحيث يرون المصالح المشتركة، ولكنهم يتمتعون أيضاً بحرية التعبير عن أنفسهم والسعي وراء تحقيق مصالحهم الفريدة.

تعد الهند أكبر الديمقراطيات وأعقدها في العالم؛ فهي دولة تعادل حجم أوروبا الغربية تقريباً، وكان عدد سكانها في الثمانينيات حوالي 700 مليون نسمة، وهي في المرتبة الثانية في عدد السكان بعد الصين البالغ عدد سكانها مليار نسمة. وفي عام 2008 كان عدد سكانها 1.1 يفوق مليار نسمة.

والهند، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، تدير تنوعها في إطار نظام فيدرالي، ولا يتم حكم الأمة من أعلى إلى أسفل، بل تتوزع السلطة بين خمس وعشرين ولاية وسبعة أقاليم. وتمارس الولايات سلطة غير عادية على الثقافة واللغة والدين. إن أنظمة الولايات الإدارية مصممة لتلبية الاحتياجات والتقاليد المحلية.

إن التنوع في الهند يمتد إلى الدين كذلك. فالهندوسية هي الديانة الأكثر بروزاً في البلاد، ولكن يوجد في الهند مجتمع مسلم غير قليل أيضاً. وتشمل التقاليد الدينية الأخرى البوذية واليانية والسيخية والمسيحية، وثمة عدد قليل أيضاً من اليهود.

كانت أنديرا غاندي تقول إنها هي وحزبها، حزب المؤتمر، وحدهما اللذان يمكنهما توحيد هذه الأمة الواسعة والمعقدة. وكانت السيدة غاندي تمثل قوة كبيرة في كل ما فعلت، سواء في مواجهة باكستان، أو في تطوير القدرة النووية في البلاد، أو في بناء صناعة ثقيلة، أو في إبرام صفقات مع الاتحاد السوفيتي، أو في قيادة حركة عدم الانحياز على الصعيد العالمي.

ولكن وجود أنديرا غاندي القوي كان يمكن أيضاً أن يضعف الديمقراطية الهندية. فعلى الرغم من أنها ساعدت على إخماد الانقسامات العرقية والدينية، فإنها لم تضع حداً لها تماماً. وهي من خلال دفع تلك الانقسامات جانباً أسهمت في إيجاد حالة تشبه تأثير «طنجرة الضغط» التي لا بد لها من أن تنفجر في يوم من الأيام. ولكن رؤيتها لاستقلال الهند وتنميتها، كان لها أيضاً تأثير في السياسة الخارجية للهند.

لم تكن أنديرا غاندي هي التي جعلت الهند في نهاية الأمر تعتمد حصرياً تقريباً على الأسلحة الروسية للقوات المسلحة الهندية، بل إن صناع السياسة الأمريكية، بمن في ذلك هنري كيسنجر، هم الذين قرروا في أثناء حرب استقلال بنجلاديش عام 1971 أن تقف الولايات المتحدة إلى جانب باكستان، وكانوا غير راغبين في توفير قطع الغيار والذخيرة التي طلبتها الهند لأجل المعدات الأمريكية التي اشترتها منذ الاستقلال في عام 1948، وبعد حرب بنجلاديش لم تعد الهند تشتري أسلحة أمريكية. وفي أثناء تلك الحرب، أرسلت الولايات المتحدة الأمريكية حاملة طائرات أمريكية قبالة كلكتا بالهند، وهو إجراء فسرته الهند على أنه عمل غير ودي. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد الولايات المتحدة الأمريكية في نظر الهند صديقاً يعتمد عليه. وأصبح الاتحاد السوفيتي المزوِّد الرئيسي للهند بالأسلحة الحديثة.

بدءاً من سبعينيات القرن الماضي، أصبحت جماعات المعارضة الهندية أكثر جرأة وأكثر إبداعاً وإصراراً على معارضة حكم أنديرا غاندي. وازدادت المعارضة على نحو مطرد لأنديرا وحزبها، المؤتمر، عبر السنين. وقد قادها برنامجها بشأن التعقيم في أواخر

السبعينيات، وما نجم عنه من أعمال شغب في جميع أنحاء البلاد، إلى فرض حالة الطوارئ عام 1975. وفي عام 1977، أنهت حالة الطوارئ، وسعت لإعادة انتخابها، ولكنها خسرت الانتخابات. وفي عام 1980 تمكنت من العودة، ولكنها لم تتمكن مطلقاً من استعادة السلطة أو الحب الذي تميزت به حياتها المهنية الأولى. وفي يونيو عام 1984، إبان محاولة لتهدئة الاضطرابات في إقليم البنجاب، أمرت أنديرا غاندي القوات بالاستيلاء على معبد وإخلاء المبنى من المتمردين السيخ؛ وقد أدى هذا الإجراء إلى موجة جديدة من أعمال الشغب والاضطرابات الدينية. وفي شهر أكتوبر ذاك، انتقم حرس غاندي الشخصيون السيخ للهجوم على المعبد باغتيالها.

كان راجيف غاندي من أشد الموالين لأمه وإرثها، لكنه كان أيضاً رجلاً عصرياً. وكان يدرك أن الهند بحاجة إلى تبني تقنيات جديدة وحريات جديدة لكي تزدهر. وكان نوعاً ما يستشرف عصر ما بعد الحرب الباردة في الوقت الذي كانت فيه الحرب الباردة ماتزال جارية. كان طياراً معظم فترة شبابه، ولم ينخرط في السياسة إلا بعد أن لقي أخوه سانجاي حتفه في حادث تحطم طائرة عام 1980.

ومثلما أن الهند تمتلك أكثر الأنظمة الدينية والاجتماعية تنوعاً في العالم، فإنها تمتلك أحد أشد اقتصادات العالم تعقيداً أيضاً. فقد تحددت الطبيعة الأساسية لاقتصاد الهند بُعيد الاستقلال، عندما قرر نهرو أن الهند يجب أن تكون مستقلة، وألا تعتمد على التجارة أو المساعدات الخارجية. كان الهدف من الاستقلال الاقتصادي بالنسبة إلى نهرو، يعني اعتماد نظام الإدارة الاقتصادية المركزية. وقد استطاعت الهند باستخدامها الخطط الخمسية التي تذكرنا بالنظام السوفيتي، توجيه التصنيع وغيره من الصناعات، وإيجاد أهداف للإنتاج، وتحديد تدفق الموارد في جميع أنحاء شبه القارة. وقد أدارت الدولة الموارد بعيداً عن الزراعة نحو الصناعة، وبذلك تحولت الهند من دولة مكتفية ذاتياً زراعياً إلى مستورد محض للسلع الزراعية، وهي حالة تفاقمت بسبب النمو السكاني السريع.

كانت التعرفات الجمركية المرتفعة، وهي سياسة رئيسية في تلك الفترة، تهدف إلى حماية المنتجين الهنود من طوفان السلع الاستهلاكية الأجنبية. كانت معدلات التعرفة في الهند عام 1985 من بين أعلى المعدلات في الدول النامية.

الفقر في الهند معروف جيداً. فهناك حوالي 30 في المائة من جميع الهنود ما يزالون فقراء وأميّين. والفقر موجود في كل مكان: في المدن القذرة المحشورة بالمصانع والأكواخ غير الآمنة، وفي الأرياف الملأى بأكواخ القش. الفقر يعني أقل من دولار واحد في اليوم، ومصادر غير كافية من المياه الصالحة للشرب، وضآلة الرعاية الطبية أو انعدامها، وعدم وجود أي فرصة للتعليم. ويعني الفقر انخفاض وزن الأطفال عند الولادة وسوء التغذية مدى الحياة.

عندما سافرت في جميع أنحاء البلاد، شاهدت الفقر في المدن وفي الريف. لكنني رأيت أيضاً التحسينات الكبرى التي أدخلتها الحكومة الهندية في كل مجال تقريباً. فقد تحسن نظام الطرق كثيراً، وأسهم نظام المواصلات - السكك الحديدية والحافلات والطائرات - كله في جعل الهند دولة أكثر حداثة. وبلغة الأرقام المطلقة، فقد انتقل المزيد من الناس من الفقر إلى الكفاف، ومن الكفاف إلى الطبقة المتوسطة. وكان عدد الناس الذين كانوا آنذاك جزءاً من الطبقة المتوسطة العليا يساوي تقريباً مجموع عدد السكان الهنود في وقت استقلال الهند عن بريطانيا؛ أي نحو 400 مليون نسمة. وقد طرأ تحسن كبير على التعليم في الهند لعامة الجماهير والنخب معاً، مقارنة بما كان البريطانيون قد تركوه وراءهم عام 1948. وكانت التقنية العليا -ابتكاراً واستكمالاً وتصديراً- على وشك الإقلاع كأحد مساعي الهند المعروفة للانضمام إلى أعلى ترتيب لدول العالم الحديث. والاستنتاج بأن نهج الهند في التحديث من خلال تخطيط الدولة لم يؤدِّ إلى نتائج إيجابية يبدو مبالغاً فيه إلى حد كبير. وإذا أُخذ في الحسبان أن الهند ظلت مجتمعاً مفتوحاً وديمقراطياً نسبياً، وجدنا أن التقدم الذي أحرزته البلاد منذ الاستقلال جدير بالإعجاب حقاً. وقد اتفق البنك الدولي مع هذا التقويم الإيجابي.

كان راجيف غاندي عاقداً العزم على فتح الاقتصاد الهندي لقوى التغيير في العالم، وفي صميم استراتيجيته الاستفادة من الطبقة المتوسطة المتعلمة الكبيرة الحجم في الهند، وتحقيق التفوق في مجال التقنية العليا. وقد طلب مني أن أساعد على الحصول على المساعدة الأمريكية لهذا الجهد المتضافر؛ للأخذ بيد الهند للخروج من الركود الاقتصادي.

كانت الولايات المتحدة الأمريكية لسنوات، ترفض تقديم التقنيات المتطورة إلى الهند؛ بسبب مخاوف من أن تجد المعلومات الحساسة طريقها إلى السوفييت. كان الرجل الرائد في الولايات المتحدة هو كبير مستشاري العلوم والتكنولوجيا لريجان، روبرت دين. «ابن العم روبرت»، كما كنت أدعوه مازحاً، أقنع ريجان ببيع حاسوب كراي العملاق المواكب لأحدث التطورات إلى الهند من أجل برنامجها الخاص بالأرصاد الجوية. وكان الأمل أن عملية البيع ستضع أساساً متيناً لحقبة جديدة من التعاون.

وللأسف! كانت المتابعة ضعيفة من الجانب الهندي، ولعل إدارة ريجان توقعت أن يتحول الهنود الآن إلى الولايات المتحدة لشراء معدات عسكرية؛ ومن ثم تقليل الاعتماد الهندي على الأسلحة السوفيتية. لكن هذا لم يحدث.

ما حدث بالفعل هو أن المغتربين الهنود في الولايات المتحدة، الذين كانوا قد ارتقوا إلى المستويات الإدارية في مجال تقنية المعلومات، أقنعوا رئيسهم في الشركة وراجيف غاندي بأن الولايات المتحدة والهند هما شريكان طبيعيان في هذا المجال. وهكذا كانت شركة «تكساس إنسترومنتس»، ممثّلة برئيسها يرافقه الخبير الهندي المولد، في أواخر عام 1985، أول شركة أمريكية تأتي إلى الهند لبدء مشروع تقنية المعلومات في بنجلور. ولكي تستقبل الرسائل وترسلها، قامت «تكساس إنسترومنتس» ببناء طبق اتصالات ضخم، مكّن الشركة من الاستعانة بمصادر خارجية لبعض برامجها إلى الهند. وقد تبعتها شركات أخرى، أولاً من أمريكا، وفي وقت لاحق من بلدان أخرى. وكان الاهتمام الكبير من راجيف غاندي بالتقنيات الحديثة، وربطها مع الخبراء الهنود في الولايات المتحدة

والشـركات الخاصة الأمريكية التي شاهدت إمكانات المعرفة والمهارة في الهند، هـو الـذي بدأ قصة النجاح غير العادي التي جعلت الهند رائدة في عالم الحوسبة الحديثة.

ومما سبب تعقيد التحديات بشكل دائم أمام الهند في الشؤون الدوليـة -توجيـه المسـار نحو كونها قوة مستقلة- الطريقة التي تم بها تكوين شبه القارة الآسيوية في وقت الاستقلال. وعندما أنهت بريطانيا العظمى 350 عاماً من الحكم الاستعماري عـام 1947، اتفـق حـزب المؤتمر الهندي وحزب الرابطة الإسلامية على إقامـة دولتـين مـن 562 ولايـة أميريـة في شـبه القارة. كانت الهند تريد المحافظة على السـيادة عـلى شـبه القـارة كلهـا، لكنهـا اضـطُرت إلى التنازل عن مناطق مسلمة لدولة جديـدة تسـمى باكسـتان. سـيطرت الهنـد عـلى الولايـات والأقاليم الهندوسية الأكثر عدداً، في حين سـيطرت باكسـتان عـلى الولايـات ذات الأغلبيـة المسلمة. وفي أثناء تنفيذ التحول، حدثت هجرة ضـخمة؛ حيـث انتقـل نحـو خمسـة ملايـين مسلم من الهند الجديدة إلى باكستان الجديدة، وانتقل 3.5 ملايين من الهنـدوس والسـيخ مـن باكستان إلى الهند. وقد كلفـت أحـداث العنـف خـلال الفـترة الانتقاليـة أكثـر مـن مليـون شخـص. تم تقسيم باكستان إلى منطقتين، كل منهما على أحد طرفي الهند. وفي نهايـة المطـاف، ونتيجة للحرب في عام 1971، انسلخ القسم الشـرقي، وأصبح اسمه بنجلاديش.

وعلى الرغم من أن الدين كان المصدر الرئيسـي للانقسام بين الهنـد وباكسـتان، فلـم تنجُ أي من الدولتين من الصـراع الديني الداخلي الواسع النطاق. فالهند هندوسية في المقام الأول، إلا أنها تحتوي على واحدة مـن كبريـات مجموعـات المسـلمين وأسـرعها نمـواً في العالم: أكثر من 200 مليون. وحتى في دولة معروفة بالحرية الدينية، فإن وجـود مثـل تلـك الأقلية الضخمة يوجد بعض الاضطراب. يشعـر كل من الهندوس والمسلمين بألم التمييز. والجهود المبذولة لمعالجة مخاوف إحدى المجموعتين تثير حتماً استياء المجموعة الأخرى.

كانت الهند وباكستان خصمين منذ ولادتهما. وقد خاضت الـدولتان ثـلاث حـروب خلال نصف قرن من وجودهما؛ منها اثنتان بسـبب كشـمير. كـما أنهـما كانتـا تشـتبكان في مناوشات حدودية مستمرة هددت بالتوسع إلى حرب شاملة. وحتى وقـت قريـب، كـان

كل جانب في الصميم لا يثق بالجانب الآخر. وتعد الهند دولة علمانية، بينما باكستان دولة مسلمة. والهند دولة ديمقراطية؛ بينما كانت غالباً ما تهيمن على باكستان دكتاتوريات عسكرية. وكانت الهند من دول عدم الانحياز مع صلات لها بروسيا؛ أما باكستان فكانت غالباً متحالفة مع الولايات المتحدة. قامت الهند بأول اختبار لقدراتها النووية في السبعينيات؛ أما باكستان فقد طورت قدراتها النووية في الثمانينيات والتسعينيات، ولم تفجر أول قنبلة نووية لها حتى السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين.

فما أفضل طريقة للبقاء في مثل هذه البيئة المعقدة؟ بالنسبة إلى الهند، كان الجواب دائماً هو عدم الانحياز. لقد حذر جورج واشنطن، في خطابه الوداعي، من خطورة دخول «تحالفات دائمة» مع الدول الأخرى. وحينما أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية نظامها الاقتصادي والسياسي، حذر قادة أمريكيون آخرون من أن الوقوف إلى جانب الفصائل المتحاربة في أوروبا من شأنه استنزاف موارد الدولة الجديدة وطاقتها. ولكن لسبب ما، رفضت الولايات المتحدة السماح للدول الناشئة الأخرى بحقها في تجنب التورط في التحالفات. والصيغة التي خرج بها جون فوستر دالاس في أشد أيام الحرب الباردة مرارة – إما أن تكون معنا أو ضدنا – قد سيطرت على السياسة الخارجية للولايات المتحدة طوال قرن.

بعد أن حصلت الهند على استقلالها عن بريطانيا العظمى عام 1947، حافظت بثبات على حقها في عدم الانحياز في الصراعات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ومنذ البداية، أعلنت الهند استعدادها للقيام بأعمال تجارية مع أي جهة في العالم، مادام ذلك يخدم المصالح الوطنية للهند.

وعلى مر السنين، أصبحت الهند الرائدة عالمياً في حركة عدم الانحياز؛ ومادام معظم دول عدم الانحياز من تحالف العالم الثالث، فقد كانت تجتمع بشكل منتظم لاستكشاف طرائق للمناورة حول القضايا المتقلبة التي تفصل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

كنت ستظن أن الولايات المتحدة الأمريكية ستكون الحليف الأكبر للهند، فقد كانت الهند منذ استقلالها أكبر ديمقراطية في العالم. وبرغم الانفجار السكاني فيها، بتجاوز عدد سكانها مليار نسمة وتكونهم من مجتمعات متنوعة، فقد تمكنت الهند من إجراء انتخابات منتظمة والقيام بعمليات انتقال سلمية للحكومات الجديدة. وعلى مر السنين، كافحت الهند العنف العرقي والعنف الديني، والفقر، ومطامع الأسر، والأزمات البيئية والديمغرافية، والتنافس العسكري الشديد مع باكستان المجاورة. ولكن خلال ذلك كله، ظلت الهند ديمقراطية. وبحسب تعبير فرانك سيناترا Frank Sinatra، إن نجحت الديمقراطية هنا فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان.

يجب أن يكون للولايات المتحدة مصلحة قوية في هذه التجربة الجارية في حكم الذات، وقد كانت لها علاقات قوية بالهند تاريخياً. فقد قامت الولايات المتحدة على مدار السنين بالتبادل التجاري على نطاق واسع مع الهند، وباعتها معدات عسكرية. ولكن تصميم الهند على عدم الانحياز أغضب الإدارات الأمريكية ودفع بالهند إلى أحضان الاتحاد السوفيتي. وابتداءً من عام 1972، باع السوفييت إلى الهند أسلحة، وتعاونوا في مجموعة واسعة من القضايا الدولية. وقد شقت الهند أيضاً طريقها الخاص بها فيما يتعلق بقضايا تتراوح من انتشار الأسلحة النووية إلى الحرب في جنوب شرقي آسيا، وإلى الفصل العنصري في جنوب إفريقيا. وقبل أن أغادر واشنطن لتعييني الجديد في نيودلهي، تم إطلاعي من الإدارات والوكالات المختلفة حول هذا القلق بشأن اعتماد الهند المفرط على الأسلحة السوفيتية، واعتمادها المتكرر مواقف دولية موازية لمواقف دول الاتحاد السوفيتي. وقيل لي: «انظر إلى ما يمكنك القيام به حيال ذلك».

بعد أن تعرفت إلى راجيف غاندي وزوجته سونيا، في نيودلهي، كنت أثير هذه الموضوعات معه. وكان يعرف منذ البداية أنني كنت ميالاً إلى مساعدة جهود الهند لتحديث اقتصادها بقدر ما أستطيع؛ ففي الشؤون الدولية، كانت سمعتي عن الاعتدال والتسامح وعدم الانحياز قد سبقتني؛ ومن ثم، فإنني كنت أطرح - في أحاديثنا الخاصة -

اقتراحات حول كيفية تحسين الأداء الاقتصادي في الهند، أو تماشي سياستها النووية مع المعاهدات الدولية، أو إدخال التوازن في شراء الأسلحة. وفي تلك المناقشات، لم أكن أحاول أن أكون متغطرساً أو متعجرفاً، بل سعيت لمساعدة غاندي مع المحافظة على الانسجام مع تعليمات واشنطن.

كان يسأل، في حزن وغضب في آنٍ واحد: «منْ أنتَ لتقول لنا كيف ندير اقتصادنا؟ من أنت لتقول لنا إذا ما كان يمكننا إبرام صفقات أسلحة مع الاتحاد السوفيتي؟ ومن أنت لتقول لنا إننا لا نستطيع مواصلة سياستنا النووية؟».

كان غاندي يرفض فكرة أن الهند تميل إلى الاتحاد السوفيتي؛ إذ لم يكن القصد من بناء مصانع للسلاح السوفيتي في الهند لتمكين الهند من السيطرة على مصيرها فحسب، وليس للتحالف مع السوفييت. وقال غاندي: لو أن الولايات المتحدة كانت على استعداد لبناء مصانع للسلاح في الهند، لفضلت الهند ذلك البديل. وفي خلال فترة عملي سفيراً في الهند، قامت الهند «باستئجار» غواصة نووية سوفيتية لكي تتعلم البحرية الهندية كيفية تشغيل هذه السفن البحرية المتقدمة. إن عدم قيام الولايات المتحدة عام 1971 بتزويد الهند بالأسلحة وقطع الغيار عندما طلبتها أو احتاجت إليها، كان معناه أن تتحول الهند إلى تلك الدول التي قدمت الأسلحة وباعتها «من دون ربطها بشروط سياسية».

تمثل الأمر الأكثر حساسية من صلة الأسلحة السوفيتية في مشكلة مواقف السياسة الخارجية التي اعتمدتها حركة عدم الانحياز. وقد شعر العديد من النقاد بأن حركة عدم الانحياز كانت مبالغة في التعاطف مع ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد لعبت الهند؛ بوصفها زعيمة لدول عدم الانحياز، دوراً بارزاً في دعم جهود عرفات للحصول على وطن للفلسطينيين. في تلك الأيام، وكان عرفات غالباً ما يرتدي الزي العسكري ويحمل مسدساً كرمز للنضال؛ ونظراً إلى نضال الهنود من أجل الاستقلال، فقد تعاطفوا مع القضية الفلسطينية. ودعي عرفات لزيارة الهند في مناسبات عدة.

كل ما فعله عرفات - في الهند ولبنان وسوريا ومصر والأراضي المحتلة - كان يمكن أن يفجر - وقد فجر بالفعل - هزات في السياسة الأمريكية. وقد بذل اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة قوة أكبر من أي قضية مماثلة. لقد حافظت إسرائيل - كأمة تعدادها في ذلك الوقت 4.4 ملايين نسمة (الآن أكثر من 7 ملايين) ولها صلات مع العديد من مراكز القوى الرئيسية في الولايات المتحدة - على علاقة وثيقة بمؤسسة السياسة الخارجية في الولايات المتحدة الأمريكية.

هل أثّرت كل هذه العوامل في غاندي لتغيير المسار حيال هذه القضايا؟ شخصياً، أشك في ذلك. فالهند، مثل معظم الدول الكبرى، سوف تفعل دائماً ما يعتقد قادتها أنه يخدم المصلحة الوطنية للبلاد على المدى البعيد. قد يجد المرء وسائل لإقناع الهند بأن تقطع جزءاً من الطريق في بعض القضايا، ولكن الهنود على يقين كافٍ من تاريخهم وثقافتهم ومصيرهم بحيث إنهم لن يرضخوا للضغوط الأجنبية.

في عالم من القوى المتنافسة، يمكن أن يكون عدم الانحياز مسلكاً تصعب متابعته. إن القوى العظمى الرئيسية، فضلاً عن كتل الدول الأخرى الأقل هيمنة تكاد تصر دائماً على أن تنحاز الدول الأخرى. وعندما تقرر دولة مهمة مثل الهند أن تكون محايدة، فقد تفسر القوى الأخرى ذلك على أنه معارضة.

أوضحت سابقاً أن التغيير الحاسم في العلاقات بين الولايات المتحدة والهند وقع خلال حرب استقلال بنجلاديش في عام 1971، عندما وقفت الولايات المتحدة إلى جانب باكستان، ورفضت تلبية طلبات الهند لقطع الغيار والذخيرة، ونشرت حاملة طائرات قبالة كلكتا. وقد دلت هذه القرارات على أن صانعي السياسة في واشنطن في ذلك الوقت لم يكونوا يفهمون أمزجة الهند ونفسيتها، أو ربما لم يكونوا يهتمون بذلك. وبدءاً من عام 1971، لم تعد العلاقات الأمريكية-الهندية مبنية على الثقة المتبادلة. لقد أصبحت باكستان الشريك المفضل لدى الولايات المتحدة في جنوب آسيا، وعززت الهند علاقاتها بالاتحاد السوفيتي.

كان موقف الهند شبيهاً بشيء من هذا القبيل: «إذا كنتم تريدون أن تكونوا أصدقاءنا، فأتيحوا لنا فرصاً للتعاون. وكلما قدمتم لنا أكثر، كان لدينا مسوغ أقل للتعاون مع السوفييت، إننا لن نتخلى عن السوفييت، ولكننا سعداء بأن نكون أصدقاء لكم، أيضاً».

كان رد الهند على سياسة الولايات المتحدة «للتوازن» بين الهند وباكستان، أن أكدت قلقها من أن البرنامج العسكري الباكستاني كان يعزز عدم الاستقرار، وأن الأصولية الإسلامية تهدد بإثارة غضب المسلمين داخل الهند، وأن هذا يهدد الاستقرار في منطقة جنوب آسيا وما وراءها؛ من أفغانستان إلى تركيا إلى بنجلاديش.

ومادامت إيران تشتعل بالحماسة الثورية الراديكالية الإسلامية، وكان هناك عدم استقرار في الخليج أسهمت الحرب بين إيران والعراق في زيادة حدته، فإن الهند تبقى لديها مصلحة قوية في دعم تحديث محدود فقط لمؤسسة الدفاع في باكستان.

وجدت نفسي في خضم المشكلة بين الهند وباكستان منذ الأيام الأولى لي في نيودلهي؛ بسبب التحالف المتنامي بين الولايات المتحدة الأمريكية وباكستان. كانت باكستان تمثل منطقة الإعداد الرئيسية للمسلمين الذين كانوا يقاومون احتلال الاتحاد السوفيتي لأفغانستان، وكانت الولايات المتحدة حريصة على تزويد باكستان بالأسلحة لرجال حرب العصابات في أفغانستان.

كانت طائرات أواكس - وهي التسمية المختصرة لنظام الإنذار والمراقبة الجوي - من أهم المعدات العسكرية في تلك الأيام. وتعد أواكس - المصنوعة بواسطة الشركة الأمريكية، بوينج - طائرة تقوم بمراقبة دائمة لظروف المعركة وأحداثها. ويمكن للنظام أن يوفر معلومات مفصلة من مسافة تصل إلى 400 ميل. ويمكن استخدام أواكس بشكل هجومي من خلال استطلاع العدو قبل أن يقرر متى يهاجم؟ وأين؟. ومن المعقول تماماً أن نفترض أن بلداً لديه هذا النظام يتمتع بقدرة زائدة جداً على مهاجمة الأعداء البعيدين.

كان السلاح الآخر الذي كانت باكستان تفكر في شـــرائه، هـو دبابـة «إم 1 أبرامـز». وتمثل هذه الدبابة أقوى الدروع، وتضم أنظمـة ملاحيـة أفضـل، وقـدرة عـلى المنـاورة في تضاريس صعبة مثل الصحراء تفوق قدرة النماذج السـابقة. وهـذه الدبابـة التـي صـنعتها شـركة جنرال داياميكس لم يكن قد تم اختبارها في ظروف الحرب، ولكنها لعبت فيما بعد دوراً رئيسـياً في حرب الخليج عام 1991. وقال الرئيـس الباكستاني الجنرال ضـياء الحـق: إنه لا يستطيع تحمل ثمن اللعب العسكرية التي كنا نقدمها، وإنه سـيختار دبابـة «إم 1» إذا كان عليه أن يختار.

اشتكى لي غانـدي - ولريجـان - بشـأن تزويـدنا باكستان بالصـواريخ، وأواكـس، والتقنيات العسكرية الأخرى. وكتب لي يقول: «إن توريد طـائرات أواكـس إلى باكسـتان يؤدي إلى مرحلة جديدة نوعية في سباق التسلح في منطقتنا، ويرفع التوترات إلى مستويات خطيرة».

كما انتقـد غانـدي الدعم الأمريكي للبرنامج النووي الباكستاني. ورفـض فكـرة أنـه ينبغي أن تكون النشاطات الباكستانية متوازنة مع القدرات النووية الموجودة لـدى الهنـد، وقال: «لا يمكن النظر إلى قدرات أسلحة نووية يسيطر عليها الجيش وتتم حيازتها سـراً في باكستان في سياق ثنائي مع الهند. إن باكستان هي التي تطرح خطر انتشار الأسلحة النووية في منطقتنا وهذا ما تجب معالجته».

أزعج الميـل الأمريــــكي نحـو باكسـتان المشــرعين؛ حتـى إن الكونجـــرس أقـر تشـريعاً - تعـديل بريسـلر - في عـام 1985 مـن شـأنه أن يطلـب إلى الولايـات المتحـدة الأمريكية قطع جميع المساعدات عن باكستان إن واصلت خطط صنع قنبلة نووية. ولكـن باكستان مضت برغم ذلك بأقـصى سـرعة قدماً في صنع القنابل النووية.

وكان اتجاه بعض صانعي السياسة الأمريكية للمسـاواة بـين البرنـامجين النـوويين في الهند وباكستان قد أغضب راجيف غاندي بشكل خاص: «فجرت الهند قنبلة نووية في عام

1974، وذلك باستخدام البلوتونيوم المخصب؛ لإثبات قدرتها على إتقان التكنولوجيا المتقدمة المعقدة». احتج غاندي بشدة بأن وضع الهند كقوة عالمية وكأمة ديمقراطية ذات برامج سلمية للتقنيات النووية يضعها في رابطة مختلفة عن باكستان. فقد كانت الهند أكبر بستّ مرات من باكستان، فهي تملك القدرات العقلية والقدرة الصناعية لتكون قوة نووية كاملة النضج، وهي كانت دائماً تخطط لتطوير القدرات النووية لتوليد الطاقة.

بدأ البرنامج النووي الهندي قبل أكثر من خمسة وأربعين عاماً، قبل فترة طويلة من المحادثات الأولى لمعاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية الدولية. وقد تم انتقاد الهند لرفضها التوقيع على المعاهدة، ولكن قادتها كانوا دائماً يجدون أن المعاهدة تعاني نقصاً جوهرياً، بحجة أنها تميز ضد الدول التي تستخدم التقنية النووية للأغراض السلمية. وتشكو الهند أيضاً من أن الصين تحظى بمعاملة تفضيلية بموجب المعاهدة لمجرد أنها أجرت تجربة نووية قبل الهند.

سعى البرنامج النووي الأساسي في الهند لإنتاج البلوتونيوم؛ ومن ثم استخدام البلوتونيوم في مفاعلات التوليد السريع للكهرباء. ولم يكن برنامج الطاقة النووية الرئيسي في الهند ينطوي على تخصيب اليورانيوم، كما هي الحال في باكستان، بل تقوم الهند بإعادة معالجة الوقود المستنفد لاستعادة البلوتونيوم؛ من أجل الحد من مشكلات تخزين النفايات واستخدام البلوتونيوم في برنامجها الخاص بمفاعل التوليد السريع. ولكن يتم استخدام أقل من نصف إنتاج البلوتونيوم بالهند في مفاعل توليد واحد صغير في كالباكام. وتقول الهند إن الباقي هو مخزون لاستخدامه في جيل جديد من مفاعلات التوليد التجارية النطاق التي هي قيد التصميم.

كان البرنامج النووي الباكستاني موجهاً دائماً لتطوير السلاح، وسرياً دائماً، كما صرح رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو مراتٍ عدة في السبعينيات. وفي المقابل، كان برنامج الهند مفتوحاً للتدقيق الخارجي، وقد نشرت الحكومة التفاصيل المالية والفنية للبرنامج. كما سمح للأجانب بزيارة المنشآت النووية الهندية.

أما باكستان فقد حصلت على المواد سـراً وبطريقة غير مشـروعة، ولا تسمح لمفتشين من الخارج برؤية منشآتها. وهي لا تملك القدرة ولا برنامجاً معلناً لبناء العديد مـن محطـات الطاقة النووية. ويبدو أن منشأة التخصيب الضخمة في كاهوتا تعمل لغرض وحيد هو بناء الأسلحة. وتنتج باكستان اليورانيوم المخصب، وهو الوقود المثالي للتسلح النووي، وهي لم تبرهن قط على الحاجة إلى مخزون من البلوتونيوم أو اليورانيوم المخصب.

فهمتُ حجج راجيف غاندي حول عدم التكافؤ الأخلاقي بين الهند وباكستان بشأن القضايا النووية. أبرقت إلى واشنطن أقول: «إذا اختارت الولايات المتحـدة مسـاواة الهنـد مع باكستان، فإن غاندي يقول إنه سيكون "من المستحيل" تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة». وأقنعت وكيل وزارة الخارجيـة مايكـل أرماكوسـت أن يجعـل مجلـس الشـيوخ الأمريكي يعكس قرار معاملة باكستان والهند معاً بشأن المسـائل النوويـة الـذي اعتمدتـه اللجنة في الأصل بناءً على نصيحة من خبراء وزارة الخارجية.

إن مواقف الهند وباكستان بشأن الضمانات تختلف فلسفياً. فـما يشـغل باكسـتان هـو القدرة النووية للهند.

عندما وصلت إلى الهند عام 1985، كان الاتحاد السوفيتي قد احتـل أفغانسـتان سـت سنوات، وكان يتم قتل المزيد والمزيد من الجنود السوفييت. واكتشف السوفييت، كما فعـل آخرون قبلهم، أن الأفغان ليسوا لقمـة سـائغة، وأنـه عـلى الـرغم مـن الخلافـات القبليـة العديدة، فقد كان الشعور المشترك الوحيد بين صفوف الأفغان أنهم لا يريدون أن يحكمهم أجانب. وكان الرئيـس السوفيتي ميخائيل جورباتشوف حريصاً عـلى إصـلاح بلـده مـن خلال سياستَي الجلاسنوست (الانفتاح) والبيريسترويكا (إعادة البناء)، وأظهر السوفييت استعداداً أكبر خلال السنوات الثلاث اللاحقة لسحب القوات والمشاركة في عملية دوليـة لتشكيل حكومة جديدة.

وحينما شن الثوار المسلمون حرب عصابات ضـد الاتحـاد السـوفيتي في أفغانسـتان، أنشأت وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه) علاقـة عمـل قويـة مـع الاسـتخبارات

الباكستانية، وحصلت وكالة الاستخبارات الباكستانية على المال، في حين قام مستشارو القوات الخاصة الأمريكية والمخابرات الباكستانية بتدريب المقاتلين تحت إدارة وكالة الاستخبارات المركزية.

جاءت الأسلحة والتمويل من مصادر ودول عدة. (بعد الانسحاب السوفيتي من أفغانستان، قام هؤلاء المحاربون المدربون تدريباً جيداً، بدورهم، بتدريب المجندين لحرب العصابات التابعين لحركات التمرد في العديد من الدول).

ووفقاً لستيف كول، تصاعد دعم الولايات المتحدة لحرب العصابات الأفغانية في عام 1985. ورأى مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليم كيسي في الحرب فرصة لإضعاف الاتحاد السوفيتي. وبعد رحلة كيسي إلى باكستان في أكتوبر 1984، أصدرت إدارة ريجان قرار الأمن القومي رقم 166، الذي وفر الخبرات العسكرية والتقنية؛ مثل صواريخ ستينجر المضادة للطائرات، للثوار الأفغان. زاد هذا القرار التمويل الأصلي للاستخبارات الذي وافق عليه الرئيس كارتر عام 1980، وأذن بزيادة المساعدات العسكرية السرية للمجاهدين.

على مر السنين، عملت وكالة الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) بشكل وثيق مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وضدها. كان صفقة إيران كونترا بمشاركة مهمة من الموساد، وأسهمت في عرقلة جهود الولايات المتحدة للحد من تدفق الهيروين والكوكايين من كولومبيا إلى الولايات المتحدة؛ ووفقاً لما قاله إسرائيل شاحاك، وهو أستاذ متقاعد في الكيمياء في الجامعة العبرية في القدس وأحد الناجين من معسكر الاعتقال بيرجن بيلسن، كان الإسرائيليون يغسلون أموال المخدرات بالعملة الأمريكية لزعماء المخدرات من كولومبيا وبنما، على الرغم من جهود الولايات المتحدة المعلنة لاعتراضها.

هل كان الموساد أو أسلحة أخرى للحكومة الإسرائيلية من المتورطين في دعم الولايات المتحدة للمقاتلين الأفغان؟ في الثمانينيات أقام الموساد نشاطات تجارية في جميع أنحاء العالم، وخاصة في الأماكن التي يمكن أن تثبت إسرائيل أنها يمكن أن تساعد في دعم أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وفي تلك الأيام، لم يكن ثمة مبادرة أكثر أهمية من معارضة التوسع السوفيتي في أفغانستان.

أسهم الدعم الإسرائيلي لنشاطات الولايات المتحدة في باكستان في تفاقم سوء العلاقات بين الولايات المتحدة والهند، في الوقت الذي كان ينبغي لها فيه أن تزدهر. لقد عكست الهند القيم الديمقراطية الأمريكية -من حكومة علمانية، وتطوير ميزان قوى مستقر في الشرق الأقصى- أفضل كثيراً مما تعكسه باكستان.

إن رسالة غاندي في 28 يناير 1987، الموجهة للرئيس ريجان، تحدد بعبارات صريحة موقف الهند بشأن أفغانستان وموقف غاندي تجاه الولايات المتحدة:

> موقفنا في أفغانستان، كما تعلمون، أنه ينبغي السماح للبلاد برسم مسار مستقل وغير منحاز، وخالٍ من التدخلات والتداخلات. كررت هذا الأمر للرئيس جورباتشوف. كما أنني نقلت له فحوى ما كنت قد كتبتَه لي. وقد ترك الرئيس السوفيتي لدي الانطباع بأن الاتحاد السوفيتي يود أن يسحب قواته في إطار زمني واقعي من أفغانستان التي ستكون غير منحازة وغير معادية للاتحاد السوفيتي. آمل ألا يغيب عنا التوصل إلى حل سلمي لفترة طويلة. وبصرف النظر تماماً عن عوامل أخرى، فإن التوصل إلى تسوية مبكرة سيكون في مصلحة الهند.
>
> كانت باكستان تستغل الوضع في أفغانستان للحصول على مستويات وأنواع أعلى من الأسلحة. ومعظم هذه لها تأثير ضئيل، أو لا تأثير لها في أي نزاع محتمل على الحدود الأفغانية. ويسرني أنك قد وافقت على أخذ مخاوفنا في الحسبان من مطالب باكستان الملحوظة بشأن تعزيز قدرات الإنذار المبكر على حدودها الغربية الجبلية. وكانت هناك تقارير مخيبة للآمال حول احتمال تزويد باكستان بطائرات

أواكس. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى مرحلة جديدة نوعية في سباق التسلح في منطقتنا، وتصعيد التوترات إلى مستويات خطيرة.

في رسالتكم التي حملها الوزير واينبرجر خلال زيارته إلى الهند، كنتم قد أشرتم بحق إلى أن السلام يتطلب قيوداً نووية حقيقية. ونحن مانزال قلقين جداً بشأن برنامج الأسلحة النووية الباكستانية. لا يمكن النظر إلى قدرات أسلحة نووية يسيطر عليها الجيش وتتم حيازتها سراً في باكستان في سياق ثنائي مع الهند. إن باكستان هي التي تطرح خطر انتشار الأسلحة النووية في منطقتنا وهذا ما تجب معالجته.

ونحن نولي علاقاتنا بالولايات المتحدة أهمية كبرى، ونود تعزيز علاقاتنا من خلال توسيع التعاون القائم بيننا، والانتقال إلى مجالات جديدة في التعاون في حقل التقنيات الفائقة، وفي مجال الدفاع أيضاً. وبعد المباحثات التي أجراها الوزير واينبرجر في الهند، قد يكون من الممكن بالنسبة إلينا القيام بمزيد من التحرك، وإقامة علاقات أكبر في مجالات نقل التقنيات والتعاون في مجال الدفاع.

اختلف الهنود والأمريكيون حول ما يعنيه الانسحاب السوفيتي في نهاية المطاف بالنسبة إلى المنطقة. وقد رأى الهنود في أفغانستان مرشحاً مثالياً لأن تكون دولة عدم انحياز، بينما رأى الأمريكيون فيها أولاً وقبل كل شيء آخر هزيمةً للأسلحة السوفيتية وخطوةً في احتواء الزحف السوفيتي في جنوب آسيا.

كنت في خضم موجة من الرسائل بين ريجان وغاندي حول الفترة الانتقالية في أفغانستان. وقد أعرب كلاهما عن تأييده لتشكيل حكومة ائتلافية؛ لإعطاء الشعب الأفغاني الحق في اختيار حكومة جديدة؛ ومن أجل انسحاب منظم للقوات السوفيتية. ويبدو أنهما أيضاً اتفقا حول الأخطار المترتبة على استيلاء نظام أصولي على أفغانستان. وكما قال غاندي في رسالة بتاريخ 20 يوليو 1988: فـ «إن الأصولية، بحكم طبيعتها، لا يمكن التوفيق بينها وبين القيم الأساسية التي يعتز بها بلَدانا: الديمقراطية، والحقوق المتساوية لجميع المواطنين، والمساواة للمرأة، وما شابهها من حقوق الإنسان الأخرى».

ولكن الاثنين اختلفا على تشكيلة الحكومة الائتلافية. كان السوفييت والهنود يفضلون ترك محمد نجيب الله [آخر رئيس لأفغانستان الشيوعية] مسؤولاً خلال الفترة الانتقالية، مع ائتلاف واسع النطاق في مجلس الوزراء، أما ريجان فرفض نجيب الله، مصراً على أنه لم يكن يحظى بتأييد الشعب الأفغاني، وطالب بفترة انتقالية قصيرة بقدر الإمكان، وذلك أفضل لإزالة نجيب الله من السلطة.

وكان ثمة اختلاف آخر بشأن أفغانستان يتعلق بكيفية تأهيل أفغانستان لتنسجم مع التوازن العالمي الجديد للقوة. أصر غاندي على أن تصبح أفغانستان دولة عدم انحياز، وخالية من المنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. كان ريجان يستخدم أحياناً لغة عدم الانحياز، ولكنه في الواقع كان يريد التأكد من أن أفغانستان كانت أقرب إلى الولايات المتحدة منها إلى الاتحاد السوفيتي. وفي النهاية، تراجع ريجان عن فكرة تشكيل حكومة ائتلافية تماماً.

في سبتمبر 1988، أظهر المجاهدون قدرة متزايدة على تنسيق نشاطاتهم؛ الأمر الذي أخاف الهند، وأظهر شبح قيام دولة إسلامية متطرفة، متحالفة مع عدوها باكستان. ولن يمثل هذا التحالف تهديداً عسكرياً تقليدياً للهند فحسب، بل إن من شأنه أن يسهم أيضاً في زعزعة استقرار المجتمع الهندي الداخلي، بوجود 200 مليون مسلم فيه.

وافقني صديقي أرنولد رافيل، سفير الولايات المتحدة لدى باكستان، على أن مستقبل أفغانستان يمكن أن يصوغ شكل العلاقات بين الهند وباكستان لجيل من الزمن. وقد كتب رافيل في رسالة، في صيف عام 1988، يقول فيها: إن الأمريكيين كانوا غالباً ما يفكرون في أفغانستان بصورة أساسية ضمن سياق الانسحاب السوفيتي.

وذكر أن إسلام أباد ونيودلهي، تريان احتمال وجود عملية إعادة ترتيب أوراق استراتيجية كبرى، بحيث تكون هناك كتلة إسلامية قوية تمتد من تركيا إلى باكستان، مع كون أفغانستان عضواً كاملاً وداعماً، في مواجهة هند هندوسية بأقليتها المسلمة الضخمة.

وبعبارة ضياء الحق، فإن أفغانستان إذا أعيد تشكيلها فستوفر احتمال أن «تدرك الهند أنه لا يمكنها أبداً أن تهددنا مرة أخرى، في حين أننا يجب أن نكون قلقين من جهة الخلف». واختتم رافيل مذكرته بقوله: «بالنسبة إلى معظم الأمريكيين، يعد الانسحاب السوفيتي هو النصر. وبالنسبة إلى أصدقائنا في جنوب آسيا، فإنه ليس إلا أول مشهد في دراما أكبر من ذلك بكثير».

عكست تصريحات الجنرال ميرزا أسلم بيج، وهو من الشخصيات العسكرية القيادية في باكستان، التقلبات في المنطقة. وقد زعم أن هناك «تآمراً ثلاثياً يضم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، وأفغانستان، والهند؛ ويهدف إلى زعزعة استقرار باكستان»، وقال إن «باكستان وأفغانستان هما الآن واحد، دولتان ولكنهما شعب واحد». وقال: إنه يتطلع إلى بناء «إجماع استراتيجي» بين باكستان وكل من أفغانستان، وإيران، وتركيا، كجزء مما أسماه «خطة كبرى» للمنطقة. واليوم، الجنرال بيج متقاعد ولم يعد مقرباً من الأمريكيين، بل هو – على العكس من ذلك – من أشد منتقدي السياسة الأمريكية تجاه شبه القارة في جنوب آسيا.

وما يبعث على القلق أيضاً، أن الأصوليين الذين كانوا يحرزون تقدماً على الأرض في أفغانستان، أظهروا ميلاً إلى العمل مع الإرهابيين في جميع أنحاء العالم. وقد قامت الولايات المتحدة بدعم كل من يريد المساعدة في الجهد العسكري لطرد السوفييت من أفغانستان، وجاء المتطوعون من العديد من الدول الإسلامية في جميع أنحاء العالم. وقد تم الترحيب بالجميع، وتم تمويلهم من مصادر سعودية أو أمريكية. وليس من شك في أن بعض هؤلاء المقاتلين ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان تحولوا لاحقاً إلى إرهابيين، وأخذوا القانون بأيديهم؛ من أجل قضايا هي على طرفي نقيض مع مصالح أولئك الذين مولوهم للقتال في أفغانستان.

وبحلول شهر أغسطس عام 1988، كنت قد وصلت إلى رحلة غريبة في مسيرتي. فبعد أن خدمت مدة ثلاث سنوات سفيراً في الهند، وهو منصب لم أسعَ إليه قط، ولكنني وجدت متعة كبرى فيه: لقد قرر الرئيس رونالد ريجان أن يأتي بسفير جديد. جولة الواجب العادية للسفراء هي ثلاث سنوات؛ ومن ثم فإن الرغبة في التغيير ليست أمراً غير مألوف. ولكن بدلاً من الانتظار حتى الانتخابات، قامت الجهات الفاعلة الرئيسية في الإدارة الأمريكية بالفعل باختيار جون هوبارد، وهو رئيس سابق لجامعة جنوب كاليفورنيا. ذهل القادة الهنود ووسائل الإعلام بسبب سرعة تغيير الدبلوماسيين.

قلت للرئيس ريجان ووزير الخارجية جورج شولتز: إنني أود أن أتنحى كسفير إن كانا يرغبان في أن أفعل ذلك. وكان كل ما كان عليهما القيام به هو الطلب. كنت قد أعربت عن تقديري للفرصة التي أتيحت لي للخدمة، ولأن أعرب عن رأيي بالقوة التي أردتها، وكنت أدرك أن ريجان كان الرجل المنتخب لإدارة البلاد، وليس أنا.

في نحو ذلك الوقت، زارتني صديقة قديمة وعزيزة، هي باتريشيا بيرن. كنا أنا وبات نعرف بعضنا بعضاً منذ عام 1953، عندما كنا نخدم معاً في سايجون. قالت لي إن جنرالاً أمريكياً قد وصل لتوه إلى إسلام أباد لإطلاع الجيش الباكستاني على برنامج المساعدات العسكرية الأمريكية لباكستان. لم يكن هذا الخبر بالأمر غير المتوقع؛ فالولايات المتحدة تعمل بجد طوال سنوات لتعزيز علاقاتها بباكستان، وهي التي كانت حليفاً رئيسياً لها في محاولة لاحتواء الشيوعية من الانتشار في جنوب آسيا. وقد قامت الولايات المتحدة في مسعاها ذاك بدعم جميع أولئك الذين كانوا يقاتلون لتحقيق انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان.

وبوصفي سفيراً لدى الهند، كنت قد عملت بجد لإقناع كبار المسؤولين في الإدارة بأن الحل لمشكلة أفغانستان، وللمنطقة بكاملها، هو باتباع نهج متوازن كامل. وبحلول عام 1987 كان السوفييت قد وافقوا بالفعل على مبدأ سحب القوات من أفغانستان، ولكنهم لما يوافقوا بعد على جدول زمني، وعلى من كان سيحكم أفغانستان بعد الانسحاب

السوفيتي. كان الاتحاد السوفيتي والهند يريدان حكومة علمانية محايدة في كابول، وأنا فكرت أيضاً أن هذا النهج سيحقق أفضل المصالح للولايات المتحدة. كنت أخشى أننا كنا نصنع وحشَين بسياستنا الحالية. فعن طريق تسليح الأصوليين من بين المجاهدين، كنا نجازف بإيجاد حكومة متطرفة ستعارض القيم الغربية الأساسية المتمثلة في التسامح وحقوق الإنسان. وبتسليح باكستان بأسلحة متطورة جداً، كنت أعتقد أننا سنسبب نفور الهند وتقويض الاستقرار في جنوب آسيا.

في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم 17 أغسطس، تلقيت مكالمة أولى، من بين مكالمات هاتفية عدة، من رونين سين، السكرتير الشخصي لرئيس الوزراء الهندي راجيف غاندي، قال لي إن طائرة نقل هيركوليز من طراز «سي-130» تحمل الجنرال محمد ضياء الحق قد تحطمت. كان ضياء قد حضر عرضاً لدبابة «إم1» من صنع أمريكي، وهي معدات لم يكن يريد شراءها، ولكن المقاولين العسكريين الأمريكيين أرادوا بيعها. كانت طائرة ضياء قد تحطمت لدى إقلاعها من قاعدة جوية عسكرية خارج باهاوالبور. كان سين يتصل ويزودني بتحديث للمعلومات كل خمس عشرة دقيقة أو عشرين.

منذ اللحظة التي سمعت فيها الخبر، كنت أشتبه بأن تحطم الطائرة لم يكن حادثاً. لكن همي الأكثر إلحاحاً هو من كان معه على متن الطائرة. بعد المكالمة الهاتفية الثانية أو المكالمة الهاتفية الثالثة من رونين سين، اتضح أن سفير الولايات المتحدة لدى باكستان، أرنولد رافيل، ورئيس بعثة المساعدات العسكرية الأمريكية، الجنرال هربرت واسوم، كانا على متن طائرة ضياء الحق. ولكن لماذا؟ وفقاً لمعلوماتي، كان كلاهما قد طار إلى باهاوالبور على متن طائرة السفارة لمشاهدة عرض دبابات؛ فلماذا لم يعودا على طائرتهما؟ ما الذي حدث لحرسهما الشخصي؟

أدى بحثي عن إجابات في نهاية المطاف، إلى تقاعدي المبكر من السلك الدبلوماسي. وكلما دفعت أكثر للحصول على إجابات، ازداد صد المسؤولين في إدارة الرئيس ريجان لي.

وقد قادتني المخاوف المستمرة في نهاية المطاف إلى الترتيب لمشاورات في واشنطن في شهر سبتمبر. ولكن الاجتماعات التي تم الاتفاق عليها في رسائل رفيعة المستوى لم تجرِ قط.

عندما وصلت إلى وزارة الخارجية، قيل لي: إن الاجتماعات حول قضية ضياء والعلاقات بين الولايات المتحدة والهند لم تنعقد. فاجأني ذلك؛ لأن وزارة الخارجية كانت قد أرسلت إلي رسائل تحدد فيها مواعيد محددة على مستوى عالٍ. كان واضحاً أن الإدارة تريد أن تجعل حادث الاغتيال من مخلفات الماضي، وتمضي قدماً في السياسات القائمة تجاه الهند، وباكستان، وأفغانستان. وأسارع إلى القول إن ذلك كان من حق الإدارة وصلاحياتها.

ولكن بعد ذلك حصلت صدمة العمر لدي؛ فقد قيل لي إن الأطباء قد وقعوا على أوراق وصفتني بأنني مضطرب نفسياً. وكان لدي خيار: إما الذهاب إلى منتجع التزلج التابع لعائلتي في سويسرا، أو الحصول على الرعاية الطبية في الولايات المتحدة. وفي كلتا الحالتين، لم يسمح لي بالعودة إلى الهند في الوقت الراهن.

في صيف عام 1988، كان يجري صراع صامت وراء الكواليس بين النخب العسكرية الباكستانية، وموردي الأسلحة الأمريكيين، والدول في أنحاء المنطقة. وكان توازن القوى في آسيا على المحك. كان السؤال: أي نوع من المؤسسة العسكرية التقليدية يوجد في باكستان؟ وكيف يمكن استخدام تلك القوات المسلحة ضد الجيران؟

كانت الولايات المتحدة – كما لوحظ – تريد التأثير في الصراع من خلال بيع الأسلحة إلى باكستان. وقد فكر الجنرال ضياء الحق في شراء نظامين على وجه التحديد: طائرة أواكس ودبابات «إم1».

وعندما أبلغ السفير رافيل، في 6 يونيو 1988، أن ضياء قرر عدم شراء الدبابة فوجئنا؛ إذ شعرت واشنطن بالضيق. ولكن الجنرال ضياء الحق لم يكن لديه موارد غير محدودة. فالبرنامج النووي وشن حرب يتطلبان الكثير من المال. وفي حفل عشاء صغير لعضو الكونجرس تشارلز ويلسون، في 5 يونيو 1988، قال ضياء لويلسون في منزل ضياء:

إن سعر الدبابة كان مرتفعاً جداً، وإن باكستان ستستخدم مواردها بدلاً من ذلك لشراء طائرات أواكس.

وحالما قال ضياء لا للدبابة، تمت ممارسة ضغوط لإعادة النظر، واستنفر أنصار هذه الدبابة في واشنطن وإسلام أباد، ونظموا عرضاً لقدرات الدبابة في 17 أغسطس؛ فوافق ضياء على مضض على السفر إلى باهاوالبور لرؤية دبابة واحدة تطلق مدفعها في الصحراء. وقد ضغط اللواء محمود دوراني، قائد سلاح المدرعات الباكستاني والسكرتير العسكري السابق لضياء الحق، بشدة عليه لرؤية العرض. قال دوراني: إن قيادة الجيش بأكملها ستكون حاضرة لمشاهدة العرض؛ ما يعني ضمناً أن غياب ضياء الحق سوف يؤخذ على أنه بمنزلة استخفاف.

كان العرض كارثياً. لم تعمل أي من الدبابات العشر كما هو معلن. وإن كان هناك من دلالة، فإن هذا الحدث يبدو أنه كان بمنزلة عرض للأسباب الداعية إلى عدم شراء ضياء للدبابات، وحتى لو كان لديه المال لفعل ذلك. لكن القضية سرعان ما أصبحت موضع نقاش عندما قُتل ضياء ورفقته، بمن في ذلك بعض كبار جنرالاته والسفير رافيل، في حادث تحطم الطائرة التي كانت تقلهم إلى إسلام أباد.

بعد أن حلقت الطائرة «باك ون» Pak One في الجو، سأل مراقب في برج باهاوالبور قائد الطائرة، مشهود حسن، عن موقعه، فرد مشهود باللاسلكي: «باك واحد، في وضع الاستعداد». وبعد ذلك، لم يعد هناك رد آخر، فأصيب المراقبون على الأرض بالذعر. وأصاب اليأس الجهود للاتصال بمشهود. فقد غدت «باك ون» في عداد المفقودين بعد دقائق من إقلاعها.

وفي الوقت نفسه، وفي النهر على بعد حوالي تسعة أميال من المطار، رأى القرويون طائرة تترنح في السماء، كما لو كانت على قطار ملاهٍ غير مرئي. وبعد حركتها البهلوانية الثالثة، سقطت بسرعة مباشرة نحو الصحراء؛ حيث غاصت في الرمال، ثم انفجرت

وأصبحت كرة من النار حينما اشتعل وقودها، وقتل واحد وثلاثون شخصاً كانوا على متنها. وخلال ذلك المساء يوم 17 أغسطس، ذكر رونين سين لي أن قمراً صناعياً كان قد رصد - وربما صوّر - الطريقة التي أقلعت بها طائرة ضياء الحق، ثم ترنحت، ثم تحطمت.

وفي رأيي، أن أرجح تفسير للحادث هو أن قنبلة غاز أعصاب مزروعة في فتحة تهوية الطائرة «سي-130» قد تم تحريضها لتنفجر عندما كانت تتم تغذية قمرة القيادة بالهواء المضغوط. ومن شأن الغاز المصنوع في الاتحاد السوفيتي أن يفعل تلك الحيلة، ولكن من شأن مجموعة من غازات الأعصاب الأخرى أن تفعل ذلك. ووفقاً لخبير تقني في مركز الحرب الكيميائية في الجيش الأمريكي في أبردين بولاية ماريلاند، يعد غاز الأعصاب VX المصنوع أمريكياً عديم الرائحة ويسهل نقله في شكل سائل. ومن شأن كمية صغيرة منه أن تكون كافية، عندما يتم نشره بواسطة انفجار صغير واستنشاقه، لإحداث الشلل وفقدان القدرة على النطق في غضون ثلاثين ثانية. وتكون بقاياه فوسفورية. وقد أظهر التحليل الكيميائي لحطام من قمرة القيادة لطائرة ضياء الحق آثاراً شديدة للفوسفور.

وفي أواخر شهر أغسطس عام 1988، حاولت أن أستخرج المعنى المنطقي لكل البيانات التي حصلت عليها من الهنود، ومن بعثتنا في كابول، والموظفين لدي، وواشنطن، والزملاء السفراء في نيودلهي. اجتمعت أولاً مع السفير البريطاني أولجود Allgood. قبل تعيينه في الهند، كان قد خدم في الحكومة البريطانية، مسؤولاً عن الاستخبارات الخارجية (MI6)، وكانت تربطنا علاقة شخصية وثيقة، ولكن عندما سألته مساعدتي في فك غموض المعلومات المختلفة حول اغتيال ضياء الحق، صمت ولم يقدم أي مساعدة على الإطلاق.

لم يكن زميلي الكندي أيضاً مفيداً كذلك، ولا زميلنا النيوزيلندي، قاهر قمة إيفرست، إدموند هيلاري. واستمع زميلي الفرنسي، أندريه ليفين، إلى كل ما كان لي أن أقوله حول عملية تستر خطيرة محتملة، لكنه لم يقل إلا أنه سينقل قلقي.

ثارت اتهامات واتهامات مضادة على مدى أسابيع: مَن الذي قتل ضياء الحق؟ الهنود، أم الجيش الباكستاني الساخط، أم جهاز الخدمة السرية الأفغاني، أم الروس، أم عملاء أمريكا؟ عندما رأيت رئيس الوزراء غاندي، قال إن رأيه كان منذ البداية أن عبوة ناسفة كانت قد وضعت في سلة فاكهة وضعت على متن طائرة ضياء الحق. ولعل هذه القنبلة سببت رد فعل آخر داخل الطائرة سبب صمت الطاقم عن الإجابة على المكالمات من برج المراقبة و«سقوط الطائرة من دون دفة على الأرض».

كما أنني ناقشت حادثة التحطم مع الجنرال ك. سندرجي K. Sundarji، رئيس أركان الجيش الهندي. وكان سندرجي رجلاً محبوباً، تخرج في كلية القيادة والأركان العامة في فورت ليفنوورث بولاية كنساس. في مسيرته المهنية الطويلة، كان قد قاد القوات الهندية في عملية الأمم المتحدة في الكونجو البلجيكية سابقاً، وخدم في كل الحروب والمناوشات بين الهند وباكستان. كان سندرجي معروفاً بلقب «المحارب العالِم» بين أصدقائه. وقد توفي في فبراير 1999.

في البداية، ربط سندرجي مقتل ضياء الحق بالوضع في أفغانستان. ولم يكن يعتقد أن السوفييت كانوا وراء ذلك، كما لم يكن يرى أن لدى جهاز المخابرات الأفغانية الوسائل لتنفيذ الاغتيال. ولكنه كانت لديه أسباب شخصية للشك في الموساد. وفي عامي 1986 و1987، اصطدم سندرجي بالموساد عندما تم نشر قوات هندية في سريلانكا لمقاومة حركة انفصال التاميل في شمال سريلانكا؛ استجابة لنداء للمساعدة من رئيس سريلانكا. وأخبرني سندرجي أنه اكتشف أن العشرات من ضباط الموساد كانوا يعملون مع القوات السريلانكية.

كان لدى سندرجي احترام قوي للموساد؛ حيث كان يظن أن وظيفة رجاله الأولى معارضة باكستان وأي دولة من الدول الإسلامية التي تعزز قدراتها العسكرية. وقد أجبر وصولُ القوات الهندية في سريلانكا ضباطَ الموساد على المغادرة.

التقيت الجنرال سندرجي وزوجته فاني في 25 يونيو عام 1993، عندما استضفناهما في شقتنا بباريس. وبطبيعة الحال، تحول الحديث إلى اغتيال الرئيس ضياء قبل خمس سنوات. قال لي سندرجي بصوت رصين: «أنتم [أيها الأمريكيون] فعلتم ذلك». لم أكن متأكداً من أنه يعني في الواقع أننا قد تورطنا مباشرة في تنفيذ الفعل، بدلاً من التخطيط والتستر وراء الكواليس. وكان في اعتقاده أنه لا السفير ولا الجنرال الأمريكيان كان مفترضاً أن يكونا على متن طائرة ضياء الحق؛ حيث كانا قد طارا إلى العرض العسكري في باهاوالبور على متن طائرة السفارة الأمريكية. والأحرى أن وجودهما لم يكن إلا نتيجة دعوة ضياء الحق لهما في آخر دقيقة.

هل كان للهند يد في حادث تحطم ضياء؟ لا أعرف. من المؤكد أن راجيف غاندي لم يكن متورطاً. قد تكون وحدات الاستخبارات وغيرها في الهند لعبت دوراً في ذلك. لم أكن أعتقد أن الهنود متورطون، ولكن ربما كانوا! هل فعلها الروس؟ أو الأفغان؟ هل إسرائيل متورطة؟ في 19 يوليو 1988، كتب ريجان إلى ضياء، مشيداً بنظامه نظراً إلى التقدم الذي أحرزته باكستان تحت قيادته في تطوير المؤسسات الديمقراطية على نطاق واسع ودائم. وبالنظر إلى أن الرسالة كتبت قبل شهر واحد من موت ضياء الحق، فإنني أجد صعوبة في تصديق أن الولايات المتحدة متورطة في اغتياله، كما زعمت بعض الأصوات الخارجية.

لماذا استنتجت، كما فعلت في نهاية المطاف، أن الموساد قد لعب دوراً ما، على الرغم بالتأكيد من أنه ليس وحده محل شك؟ لعلي ربطت فقط معاً بين عدد من الأحداث التي دفعتني إلى الاتهام الآتي: (1) في نيودلهي استقبلتُ زيارات عدة من النائب ستيفن سولارز، وفي وقت لاحق من النائب توم لانتوس، وكلاهما مؤيد راسخ لإسرائيل. وكان كلا الرجلين يعتقد أنني، كلاجئ من ألمانيا النازية، أود تلقائياً أن أدعم إسرائيل، وأقف عن رغبة إلى جانب إسرائيل، كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ولكن هذا الافتراض كان خاطئاً تماماً، ودل على سوء فهم كامل لنظرتي إلى الحياة. أنا ممثل للولايات المتحدة

الأمريكية، وبالنسبة إلي تعد إسرائيل كياناً سياسياً أجنبياً. وكنت قد أوضحت هذا على مدى سنوات عديدة في الخدمة الخارجية للولايات المتحدة، بل أوضحته للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في جلسات الاستماع لتأكيد تعييني لمختلف السفارات. (2) لم يشدد سولارز ولانتوس في زياراتهما إلى نيودلهي خلال فترة ولايتي، على ضرورة الانسحاب السوفيتي من أفغانستان، وبدلاً من ذلك، كانا يعملان بنشاط على التشجيع على: (أ) رفع مستوى نائب القنصل الإسرائيلي في بومباي إلى قنصل كامل، بحيث يتم توسيع نطاق اختصاصه إلى حد كبير ليشمل موقعاً لمعبد يهودي قديم في جنوب غربي الهند؛ (ب) جعل رئيس الوزراء غاندي يلتقي وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريز في نيويورك؛ لتحقيق التوازن مع صلات الهند بزعيم منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات؛ (ج) السعي لتجنب أن تصبح باكستان دولة نووية. كل هذا كان مموهاً بموقف مؤيد للهند بقوة في أي خلافات بين باكستان والهند عند مناقشة هذه الموضوعات مع راجيف غاندي والقادة الهنود الآخرين.

أضف إلى هذا التدبير، وجود تحيز أكيد لإسرائيل من بعض العناصر الهندية الذين رأوا في إسرائيل الحليف المفضل للولايات المتحدة، وينتهي الأمر في نهاية المطاف بهؤلاء الناس أنفسهم، إلى الاعتقاد أنه من خلال دعم إسرائيل فإنهم يتزلفون إلى صانعي السياسة في واشنطن.

لا بد لي أيضاً من أن أعترف بأن تجربتي في لبنان قد علمتني ألا أثق بأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية. وقد سبق أن وصفتُ كيف قدّم الموساد أسلحة أمريكية في محاولة لقتلي في بيروت؛ لأنني نفّذت تعليمات الرئيس الأمريكي بالعمل مع الفلسطينيين. ولعل هذا الحادث ترك أثراً في نفسيتي.

تساءلت عمن استفاد أكبر فائدة من اغتيال ضياء؟ فكرت أولاً في إسرائيل؛ لأن ضياء الحق كانت أصولياً مسلماً محافظاً، وقد جعله العزم الباكستاني على حيازة القنبلة النووية خصماً لإسرائيل.

وبوصفي سفيراً للولايات المتحدة لدى الهند في الجزء الثاني من ثمانينيات القرن الماضي، كنت حريصاً على التقريب بين الولايات المتحدة والهند. وكنت أرى أن زيادة التبادل التجاري، وخصوصاً زيادة التعاون في مجال التقنيات الفائقة، وسيلةٌ لتحقيق هذا الهدف. وخلال فترة عملي ثلاث سنوات في الهند، عدت أكثر من مرة إلى واشنطن للتشاور. وفي كل مرة كنت أستغل المناسبة للقاء المهاجرين من شبه القارة الهندية. وقد شجعتهم على أن يلعبوا دوراً مهماً كبناة للجسور لتوثيق الصلات بين بلد التبني: الولايات المتحدة الأمريكية، وبلدهم الأصلي: الهند. لقد حملت هذه الرسالة إلى المدن على الساحلين الشرقي والغربي، حيثما دعتني جاليات المهاجرين الهنود الكبيرة إلى الحديث. أحبَّ هؤلاء «الأمريكيون الجدد»، مثلي أنا قبل خمسين عاماً مضت، هذه الرسالة وتصرفوا. بحثوا في جميع أنحاء الولايات المتحدة لاكتشاف أي جماعات في البلاد كانت لها جماعات ضغط قوية في الكونجرس، ويمكن أن تؤثر في التشريع. وخلصوا بسرعة إلى أن اللوبي المؤيد لإسرائيل وأصدقاءهم في الكونجرس؛ مثل المندوب سولارز، كانوا أقوياء بشكل خاص في واشنطن، وفي الوقت نفسه لديهم ميل قوي نحو الهند. ربما كانوا يعتقدون أيضاً أنني، بالنظر إلى ماضيّ أنا، كنت سأتفق في هذا التقويم.

وهكذا، ومع مرور الوقت، فقد أقام المهاجرون الهنود الناجحون جداً، والذين لديهم أعلى دخل من أي جماعة مهاجرة أخرى، علاقة وثيقة، وتحالفاً مع الكتلة الموالية لإسرائيل في الكونجرس. وذهب المهاجرون الهنود الناجحون ليروا نوابهم وأعضاء مجلس الشيوخ ودعمهم، وبخاصة أولئك الذين كانوا مؤيدين لإسرائيل. ويستمر هذا التحالف اليوم، وبعد أكثر من عشرين عاماً من وصولي أول مرة إلى نيودلهي، أما اليوم، فقد أصبحت إسرائيل مصدراً مهماً للأسلحة المتطورة إلى الهند، بما في ذلك الطائرات من دون طيار التي تم تصنيعها في إسرائيل، بموجب ترخيص من الولايات المتحدة الأمريكية. وقد بلغت صادرات الأسلحة من إسرائيل إلى الهند بضعة مليارات من الدولارات بحلول عام 2005.

أضف إلى هذه المجموعة، الأصوليين الإنجيليين الأمريكيين، الذين يُعرفون بمشاعرهم المؤيدة للصهيونية. وتعد المجموعات الثلاث جميعاً من المؤيدين الأقوياء لإسرائيل في الكونجرس، بغض النظر عمن هو رئيس الوزراء في إسرائيل، أو - لهذا السبب - من هو رئيس الوزراء في الهند.

تم إرسال صديقي روبرت أوكلي إلى إسلام أباد ليحل محل آرني رافيل بعد فترة وجيزة من 17 أغسطس 1988. وفي 31 أغسطس؛ أي بعد أسبوعين من مقتل ضياء الحق، أخبرني باجتماعه يوم 29 أغسطس مع قائد أركان الجيش الباكستاني الجديد الجنرال بيج. وكان الجنرال بيج قد أكد أن «باكستان وأفغانستان هما الآن أمة واحدة»، هما دولتان ولكنهما شعب واحد. ذكر أوكلي لي أن: «الجنرال بيج نفى أهمية تصاعد الأصولية الإسلامية، وقال إنه لن تكون هناك أي حكومة أصولية في أفغانستان».

هل تزامنت آراء الجنرال بيج - يا ترى - مع آراء الإدارة الأمريكية في واشنطن؟ وقال بيج لأوكلي: إن إيران هي «واقع ناشئ آخر»، وإن توثيق العلاقات بين إيران وباكستان يساعد على تمييع الأصولية الإيرانية. وتطلع بيج نحو «إجماع استراتيجي» بين باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا، عده «الخطة الكبرى». لا ضرورة لاتفاق رسمي، إلا أن مثل هذا الإجماع أوجد معادلة قوة إقليمية جديدة، كما يعتقد بيج، ووفر للولايات المتحدة خيارات جديدة للتعامل مع الهند، والاتحاد السوفيتي، والشرق الأوسط. وقد شكك أوكلي بحكمة في بعض عبارات بيج.

وفي الاجتماع نفسه، حث مستشارو أوكلي العسكريون بيج على التصميم على شراء دبابة «إم1». وكانت الولايات المتحدة تريد أن تظهر دعمها لباكستان بالأفعال لا بالأقوال فحسب. وتعني قراءتي للرسالة المشار إليها ضمناً أن بيج وافق على المضي قدماً في شراء الدبابة، أما مساعد أوكلي العسكري، الجنرال فيستر، فقد أشار إلى أن هناك عدداً من الأنظمة الأخرى؛ مثل مروحيات كوبرا، وصواريخ تاو (TOW)، والقاذفات، ومن شأن ذلك أن يثبت دعم الولايات المتحدة لباكستان، و«ربما لن تواجه معارضة الكونجرس».

ولكن، مَن هم هؤلاء الأعضاء في الكونجرس الذين يمكن أن يعارضوا شحنة الأسلحة الأمريكية إلى باكستان؟ ألقى بعض الباكستانيين باللوم على «اللوبيات المؤيدة للهند» في الولايات المتحدة، ولكن عدداً من الأعضاء كانوا قلقين من طموحات باكستان العسكرية، بما في ذلك سعيها للحصول على قدرات نووية. وقد عارض هؤلاء المشرعون، مبيعات الأسلحة إلى باكستان. وأشك في أن المشرعين كانوا قلقين بشأن رد فعل الهند على بيع الأسلحة إلى باكستان؛ لأنهم كانوا يعلمون أن الهند تعتمد حصراً على الأسلحة الروسية، وأن الهند قد فجرت بالفعل أول قنبلة نووية لها عام 1974، وأنها كانت تعتمد على خبراتها ودرايتها وقدراتها الصناعية من أجل قدراتها النووية. وفي الوقت نفسه، كان بعض الناس ينظر إلى السعي الباكستاني للحصول على رادع نووي من بعض الناس؛ بوصف ذلك محاولة لبناء «قنبلة إسلامية»؛ الأمر الذي لا تعارضه الولايات المتحدة الأمريكية فحسب، بل إسرائيل أيضاً.

وفي 10 سبتمبر، أبرقتُ إلى المسؤولين في واشنطن أسألهم إن كان بإمكاني العودة إلى واشنطن للقاء كبار المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الخارجية. لقد أردت أن أقول لهم: إن علاقتنا الجيدة مع الهند كانت في خطر بسبب ميل الولايات المتحدة الأمريكية إلى باكستان، وتصميمنا على دعم الأصوليين بدلاً من العلمانيين في أفغانستان. وأردت أيضاً أن أشارك رؤسائي بواشنطن في تقويمي بشأن مَن قد يكون وراء اغتيال الرئيس الباكستاني.

عرف الجميع بمخاوفي، لكننا لا يبدو أننا كنا نتواصل. وكنت أرى أنه ينبغي أن أقابل الناس وجهاً لوجه، ولدي حديث قاسٍ ومفصّل حول هذه الموضوعات. عند إرسال البرقيات ذهاباً وإياباً، يكون هناك في بعض الأحيان ميل إلى التحدث عن أمور مختلفة، بينما نظن أننا نتحدث عن الأمر نفسه. ويتم التعبير عن القضايا بلغة دبلوماسية حذرة. ويمكن للأطراف أن يتهربوا من الأسئلة والمخاوف التي يبديها بعضهم. وفي 10 سبتمبر، تلقيت رداً من مساعد وزير الخارجية ريتشارد ميرفي، يعرب فيه عن امتنانه لاستعدادي

للقدوم إلى واشنطن لأرى جورج شولتز [وزير الخارجية]، وويليام وبستر [مدير وكالة الاستخبارات المركزية]، ومسؤولين آخرين رفيعي المستوى.

نصحتني زوجتي مارتين بعدم القيام بالزيارة، علماً بأنها خلال سنواتنا التي أمضيناها معاً كلها، حتى في مناطق الحرب؛ مثل فيتنام، وكمبوديا، ولبنان، لم تنصحني بعدم الذهاب إلى أي مكان لأي سبب من الأسباب. ولكن كان لديها هاجس حول هذه الرحلة. كانت تعتقد أن الناس في واشنطن كانوا يقاومون نصحي كثيراً إلى درجة أنني يمكن أن أعاني بعض العواقب القاسية إذا واصلت الضغط من أجل قضيتي. كانت مدة وجودي في الهند على وشك الانتهاء؛ إذ كانت إدارة ريجان قد قررت سلفاً إحلال جون هوبارد محلي، وقد رأى كبار المسؤولين ما يكفي من مخاوفي.

قبل بضعة أيام من مغادرتي نيودلهي، أبلغت الوزير شولتز بالعديد من المخاوف، ولاسيما أن «علاقتنا بالهند في تراجع سريع ما لم تحدث بعض التغييرات»، واشتكيت من توقيت ترشيح الإدارة لهوبارد لكي يحل محلي سفيراً. كنت أحب جاك كثيراً؛ فهو لم يكن المشكلة. ولكن مع كون الرئيس في الشهرين أو الأشهر الثلاثة الأخيرة من فترة رئاسته، ومع وجود مثل هذه الأزمات الخطيرة الجارية في جنوب آسيا، كنت أرى أن التعيين الرئاسي في فترة استراحة المؤسسة التشريعية كان عملاً غير حكيم. وأخيراً، قلت لشولتز إنني سأقدم للرئيس استقالتي في أي وقت يطلب مني ذلك. وقمت بإعداد مذكرتين قبل الاجتماع؛ الأولى حول «ما الذي يمكن عمله لإرسال الرسائل الصحيحة إلى الهند؟»، والثانية عن «بعض الأفكار العشوائية للسفير دين حول جنوب آسيا».

ظهرت بعض العلامات التي تنذر بالسوء في أيامي القليلة الأخيرة في الهند؛ ولسبب ما، انقطعت الخدمة عبر خطوط الهاتف الآمنة بين الهند والولايات المتحدة. ويوماً بعد آخر حاولت الاتصال بوزارة الخارجية، ولكنني لم أستطع فعل ذلك. ولم يقل لي أحد ما الخلل أو ما يمكن عمله لإصلاح الخطوط. وعندما قامت وزارة الخارجية بالترتيبات

لرحلتي إلى واشنطن، تم إدراج اسمي جون جونتر، وليس جـون جـونتر ديـن. ورافقنـي عميل لوكالة الاستخبارات المركزية في تلك الرحلة.

عندما وصلت إلى مطار دالاس الدولي، بدأت أخيراً أعرف مـا كـان يحـدث. قيـل لي إنني لن أقابل وزير الخارجية شولتز، أو مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليـام وبسـتر، أو أي شخـص آخر بشأن الهند، وباكستان، وأفغانستان.

في اليوم اللاحق، ذهبت إلى وزارة الخارجية لرؤية جورج فيست، مدير عـام السـلك الدبلوماسي، فأبلغني أنني لـن أعـود إلى منصـبي في الهنـد. وإذا لم أذهـب طوعـاً إلى بيـت الإجازة التابع لأهل زوجتي في سويسـرا، فسيتم وضعي تحت الرعاية الطبية في الولايـات المتحدة.

استخدمتْ وزارة الخارجية تقويماً مزوراً عن حالة «إجهاد لدي» في تقريرهـا. وكـان الدكتور ديفيد كوش، وهو مسؤول طبي إقليمي في نيودلهي، قد كتـب في أواخـر الصـيف بأنني كنت «في حالة إجهاد»، وأنه قلق بسبب «تغيرات ممكنة في الشخــصية». كـان ذلـك هو الدليل الذي استخدمته وزارة الخارجية لإثبـات أني كنـت مختلاً عقلياً. وقـد أعـرب الدكتور فريدريك سـامرز، طبيـب الأمـراض العصـبية في سـفارة الولايـات المتحـدة في نيودلهي، عن ارتيابه في تقويم حـالتي، فعوقـب عقوبـة عاجلـة. وفي عـام 1992، أكـد لي الرئيـس السابق للخدمات الطبية بوزارة الخارجية، والدكتور جوف، أنـه قـد تـم حجـب شهادة خلوّي من الأمراض «لأسباب كاذبة».

فاجأتني إجراءات واشنطن؛ إذ مـن خـلال تشـكيكهم في سـلامتي العقليـة، الـذي دعموه بتقارير أطباء نفسيين وأطباء آخرين رتبت الوحدة الطبية بوزارة الخارجية مواعيد معهم، أخفت وزارة الخارجية شهادة خلوّي من الأمراض.

وبما أنني كنت بعيـداً عـن واشـنطن ونيـودلهي، فـإنني لم أتمكـن مـن التحـدث مـع الصحفيين الفضوليين في محاولة للعثور على قضايا للانتخابات المقبلـة في نـوفمبر. كانـت

فكرة الوزارة في البداية أن ترسلني إلى مصح عقلي. ولحسن الحظ! تم نبذ هذه الفكرة، وتم إرسالي إلى سويسرا «للاستجمام». كان لدي أوامر بالبقاء هناك إلى أن تصلني إشارة بالعودة إلى نيودلهي لحزم أمتعتي الشخصية والمغادرة.

هذا هو الأسلوب الذي كان يستخدمه النظام الستاليني لإسكات منتقديه في الاتحاد السوفيتي، لم أكن أتصور أن هذه الأساليب يمكن استخدامها من الإدارة الأمريكية تجاه واحد من كبار موظفي السلك الدبلوماسي.

طرت من واشنطن إلى سويسرا؛ حيث أبلغت الشرطة السويسرية. انضمت زوجتي وأحد أبنائنا إليّ خلال فترة الإقامة الجبرية. استمر هذا «الحجز في الغرفة»، وهو الغريب حتى نهاية أكتوبر. كان موظفو وزارة الخارجية يتصلون بي هاتفياً بشكل منتظم للتأكد من بقائي هناك. حتى إن مساعد وزير الخارجية وأحد كبار مساعديه قاما بزيارتي للتأكد من أنني لم أبتعد. وأخيراً، أعلمتنا واشنطن أن بإمكاننا مغادرة سويسرا.

عدنا إلى نيودلهي في أواخر أكتوبر لحزم أمتعتنا والرحيل. كان أصدقائي وزملاؤنا الهنود جميعاً في منتهى الطيب. وأعطانا الرئيس الهندي هدية وداع، هي لوحة زيتية قمت بإهدائها إلى السكن الأمريكي؛ وكانت تصور القارات الخمس في الكرة الأرضية، وأمام كل قارة كان هناك نساء يبكين.

عدت إلى واشنطن بعد رأس السنة. وتم تعييني في مكتب ضخم بوزارة الخارجية، بالقرب من جناح وزير الخارجية، ولكن لم يكن لدي أي واجبات محددة، وقد أبقاني رؤسائي مشغولاً بالمواعيد مع الأطباء النفسيين وأطباء من الوحدة الطبية التابعة لوزارة الخارجية. وذهبت أيضاً إلى المختبرات المتخصصة، التي تم فيها تصوير دماغي. وتم إجراء عدد من «اختبارات الذكاء» عليّ، كما لو كنت أعاني نوعاً من تلف في الدماغ في منصبي الأخير.

لقد انتهت حياتي المهنية، وأعلنتُ أنني، بما أنه لم تعرض عليّ أي مهمة جديدة، على استعداد لتقديم استقالتي من السلك الدبلوماسي. وفجأة، أقرت الوزارة بأنني في قمة حالتي البدنية والعقلية. وتمت استعادة شهادة خلوّي من الأمراض وتصريحي الأمني.

الشيء المضحك هو أنه لو أن أي شخص أخبرني أنه لم يعد هناك حاجة إلى خدمتي وأنه قد حان الوقت لإنهاء مسيرتي المهنية في السلك الدبلوماسي، لتقبلتُ ذلك. لن أكون سعيداً بذلك، ولكنني كنت سأتقبله. لقد كنت دائماً وفياً، واتّبعت تعليمات رؤسائي. أنا أفهم أن الرؤساء ووزراء الخارجية لديهم حياة أكثر تعقيداً من السفراء، وأنهم في بعض الأحيان يضطرون إلى رفض نصيحة الدبلوماسيين. وقد اعتبرت نفسي محظوظاً بأن خدمتُ خمسة رؤساء أمريكيين، بصفتي رئيساً لبعثة دبلوماسية. كان يمكن أن أترك الخدمة لو طُلب إليّ ذلك.

وعلى ما يبدو، لم يكن كافياً أن يطلبوا إلي المغادرة فحسب، بل كان لا بد من قطعي أيضاً تماماً عن أي شخص قد يرغب في سماع أفكاري حول الخلافات في شبه القارة الآسيوية. كان ثمة خطورة كبرى في إطلاق سراحي؛ حيث يمكن أن أتحدث إلى مراسلي الصحف أو الزملاء القديمين في السلك الدبلوماسي أو مسؤولين من الهند أو أي حكومة أخرى؛ ولسبب ما، كان لا بد للإدارة من تكميم فمي!.

عند تقاعدي تم منحي جائزة الخدمة المتميزة في وزارة الخارجية، كما تلقيت أيضاً رسالة من الوزير شولتز، تشيد بي بالنظر إلى «النجاح غير المسبوق في تحسين العلاقات بين الولايات المتحدة والهند، وهو إنجاز كبير لإدارة ريجان».

بعد سنوات، عرفتُ من هو الذي أمر بالتشخيص الكاذب للخلل العقلي ضدي. كان هو الرجل نفسه الذي أشاد بي على نحو مبالغ فيه بعد مغادرتي: جورج شولتز.

لم يكن الغرض من هذا الفصل إعادة صوغ الحرب لطرد السوفييت من أفغانستان. وثمة آخرون، وبخاصة ستيف كول في كتابه **حروب الأشباح** (2004)، قد فعلوا ذلك

بشكل جيد جداً. ولكن ما يتطلب تفسيراً بالتأكيد هو كيف أن المحاربين الذين دعمتهم الولايات المتحدة في أفغانستان قد تحولوا بكل هذا العنف ضد اليد نفسها التي قامت بتغذيتهم. يتمحور الجواب حول التنافس بين مقاتلَيْن أفغانيين اثنين، هما: قلب الدين حكمتيار، من البشتون، وأحمد شاه مسعود، من الطاجيك.

وفي عام 1985، عندما قررت الولايات المتحدة استخدام وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه) لتصعيد العمليات السرية الأمريكية في أفغانستان، فإنها ألقت بثقل دعمها، إلى جانب الدعم السعودي، وراء حكمتيار الأصولي، بينما فضل آخرون القومي العلماني مسعود. وفي الوقت الذي لعب فيه مسعود دوراً رئيسياً في طرد القوات العسكرية السوفيتية من أفغانستان، فإنه في الوقت نفسه كان على استعداد لإيجاد وسيلة للعمل مع العناصر الموالية لروسيا داخل أفغانستان وخارجها بعد انسحاب القوات السوفيتية. وبقي حكمتيار يعارض بشدة العمل مع العناصر الموالية لروسيا.

وفي أغسطس 1989؛ أي بعد ستة أشهر من انسحاب السوفييت من أفغانستان، نشرت صحيفة **واشنطن بوست** مقالاً بقلم ستيف كول بعنوان: «الولايات المتحدة تواجه معضلة في تسليح المتمردين: المجموعة الأكثر فعالية هي الأكثر تطرفاً»؛ ويشير المقال إلى حكمتيار «الذي كان ينتقد علناً الجماعات المتمردة المنافسة وحكومتَي الولايات المتحدة وإيران»، ثم يطرح كول السؤال: هل من المستحسن بالنسبة إلى الولايات المتحدة أن تقوم بتزويد حكمتيار الأصولي بمزيد من الأسلحة، أو لا؟

كان مسعود أكثر استعداداً للعمل مع العدو الروسي السابق مما كان عليه حكمتيار، وأصر على تلك السياسة حتى اغتياله في سبتمبر 2001. وفي واقع الأمر، كان قبل أشهر عدة من اغتياله قد حضر مؤتمراً للأمن الإقليمي في موسكو.

كان مفتاح المواجهة بين هذين القائدَين الأفغانيين أن الرئيس الباكستاني ضياء الحق كان يفضل حكمتيار، ويشاركه وجهة النظر المحافظة حول دور الإسلام في المجتمع، كما

فعل الجنرال بيج، الذي كان قد تولى زمام القوات العسكرية بعد وفاة ضياء الحق في حادث تحطم الطائرة المشبوه في أغسطس 1988.

ماذا يعني هذا كله؟ لقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية - بمساعدة من دول عدة - بتمويل حركة حكمتيار الإسلامية الأصولية وتسليحها. وتحولت هذه الجماعة إلى حركة طالبان، التي أصبحت بدورها عدواً للولايات المتحدة.

ولكن، مَن الذي فاز في الحرب ضد القيادة المدعومة من السوفييت في كابول؟ حكمتيار؟ هو أسهم في تلك النتيجة فقط. كان مسعود هو الذي دخل كابول يوم 29 إبريل 1992. وكما كتبت صحيفة **لوموند** الفرنسية في 2 مايو 1992، في مقالها بعنوان: «القائد مسعود يقوم بدخول العاصمة كابول»، و«القتال الذي استمر أربعة أيام انتهى لتوه في وسط كابول قبل هزيمة قلب الدين حكمتيار الأصولي».

وحين ركزت الصحافة العالمية بأسرها على مسعود المعتدل والعلماني؛ بوصفه المنتصر الحقيقي في الحرب، حافظت الولايات المتحدة على دعمها لحكمتيار الأصولي حتى بعد سقوط كابول. ويظهر أن العامل الحاسم في هذه السياسة، هو أن حكمتيار كان ضد السوفييت بقوة، بينما لم يكن مسعود ثابتاً إلى هذه إلى الدرجة في سياساته المعادية للسوفييت. وكان وزير الخارجية جورج شولتز قد دخل كابول سراً مع حكمتيار، عندما تم تحرير المدينة من النظام العميل للسوفييت. ولكن مسعود هو الذي أصبح وزيراً للدفاع في الحكومة الأفغانية التي تولت السلطة من النظام المدعوم من السوفييت، في حين انتهى الأمر بحكمتيار بالذهاب إلى المنفى؛ بوصفه عدواً عنيداً لرعاته الأمريكيين السابقين.

لماذا هذا الإيضاح الطويل؟ لأنه أمر أساسي للجمهور الأمريكي، أن يدركوا أننا - الولايات المتحدة - قد دعمنا الأصوليين الأفغان الذين انقلبوا علينا. ونحن انقلبنا عليهم في سنوات لاحقة. إن بعض الإرهابيين المناهضين للولايات المتحدة، الذين ارتكبوا أفعالاً رهيبة ضد الولايات المتحدة، هم المحاربون أنفسهم الذين قاتلوا بدعم من دول

عدة. كانت السياسة المعادية للسوفييت، هي التي هيمنت على قرارات الولايات المتحدة بشأن مَن تدعمه في الحرب الأفغانية، وإن كان ذلك يتطلب «الجلوس لتناول العشاء مع الشيطان»، فليكن.

كان القلق من الإرهاب جزءاً لا يتجزأ من الثورة الإسلامية. لما يكن العالم قد توصل بعد إلى وسيلة ذكية للتفكير حول الإرهاب العالمي ومواجهته، وهو جزء دائم من السياسة العالمية؛ ومادام الإرهاب استراتيجية يستخدمها المشحونون أيديولوجياً والضعفاء عسكرياً لمواجهة القوى المهيمنة، فقد اتخذ شكلاً أشد تدميراً، حينما وضع المتمردون الحديثون أيديهم على أسلحة أكثر فأكثر فتكاً، واستخدموه مع إمكانية أكبر للإفلات من العقاب، وهددوا مزيداً من الناس الأبرياء. وفي السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، قام عدد من الدول برعاية إرهابيين لتنفيذ تعليماتها. وقد تمكن الإرهابيون -بتمويلهم بملايين الدولارات وحصولهم على معلومات استخباراتية سرية- من إحداث اضطرابات واسعة النطاق.

وقد أفصح راجيف غاندي عن قلقه حول ما يمكن أن تفعله بلاده لمحاربة الإرهاب. تحدثنا في 13 مايو 1986، حول حدود سلطة الدولة ضد الإرهاب. هل كان بإمكان الهند استخدام قواتها العسكرية ضد باكستان إن تم إلقاء القبض على إرهابيين باكستانيين في الهند؟ أفادت تصريحاته ضمناً بأنه يعارض هذا النهج.

استمرت الحرب الأهلية الأفغانية من دون نهاية، ولكن حركة طالبان، وهي مجموعة أصولية متشددة، كانت قد سيطرت على نحو 90 في المائة من البلاد بحلول عام 1996. رحب الأفغان بحركة طالبان؛ لأن الشعب أصيب بالضجر من أمراء الحرب الفاسدين والحرب المستمرة، المدعومة من الأجانب، وصار يهزأ بهم.

إن بعض الأسلحة التي زودنا بها باكستان والمقاومة الأفغانية أضرت بنا لاحقاً؛ فصواريخ ستينجر التي تم تزويد المقاومة الأفغانية بها، أصبحت خطراً سياسياً على

الطائرات المدنية الأمريكية في أيدي الإرهابيين بعد انسحاب الجيش السوفيتي من أفغانستان. وحتى في أثناء فترة خدمتي في جنوب آسيا، كانت السفارات الأمريكية في إسلام أباد ونيودلهي، تراقب عن كثب لتعرف عدد صواريخ ستينجر التي كانت في أيدي المقاومة الأفغانية، وما شكلها، والجماعات التي كانت تحوزها بالفعل.

لطالما كانت صواريخ ستينجر تُستخدم ضد الجيش السوفيتي، ولم يكن يبدو أن هناك أحداً لديه أي شكوك. ولكن ماذا لو باعها الأفغان لآخرين نقداً بعد أن يغادر السوفييت أفغانستان؟ في يونيو 1993، ذكرت صحيفة **لوس أنجلوس تايمز** أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت قد طلبت 55 مليون دولار لإعادة شراء مئات الصواريخ المضادة للطائرات ستينجر التي زودت الولايات المتحدة المتمردين الأفغان بها. وكان ذلك المبلغ - الذي كان يساوي أكثر من خمسة أضعاف مخصصات سابقة لبرنامج إعادة شراء سرية لصواريخ ستينجر - قد تم عرضه من إدارة كلينتون بسبب المنافسة الشرسة على الصواريخ في السوق السوداء الدولية. وقد وجد عملاء الولايات المتحدة أنفسهم يزايدون على منافسيهم لأجل الصواريخ التي تطلق من على الكتف، والتي يكلف كل واحد منها الآن 100,000 دولار. ومضى المقال يربط بين النشاطات الإرهابية المعادية للولايات المتحدة وحركة المقاومة الأفغانية. «حتى إن تمكنت الولايات المتحدة من استعادة الكثير من هذه الصواريخ، فهناك نسخ جديدة من دول أخرى ستتدفق على الأرجح على السوق»، حسبما ذكرت الصحيفة.

هل ستستمر الثورة الأصولية في الازدهار؟ هل سيتم كبح جماح الإرهاب؟ هل تستطيع أمة متنوعة مثل الهند أن تبقى دولة ديمقراطية نابضة بالحياة؟ هل تمكن السيطرة على سباق التسلح، ولاسيما سباق التسلح النووي؟ هل يمكن أن يجد جيران بينهم سنوات من العداء وسيلةً للتوافق والمصالحة؟ وهل يمكن السيطرة على الأعمال القذرة في العالم، من أسلحة ومخدرات واتجار بالجنس؟ وهل يمكن لمجموعات متنوعة أن تتعايش في سلام؟

أثبتت تجربتي في الهند أننا يمكن أن نجتاز كل هذه الاختبارات. ولكن ذلك يتطلب شجاعة؛ لأنه يكمن وراء كل هذه الأسئلة عالم معقد وسري في التعامل والازدواجية، يجعل من الصعب اتخاذ قرارات مباشرة ونزيهة.

كلما ظهر أحد التحديات الصعبة؛ مثل بيع الأسلحة، أو تبادل التقنيات، أو معالجة التطرف الديني والعرقي، أصبح هناك توجه للبحث عن الحل الذي يزيل المشكلة الأكثر إلحاحاً. هل أنت بحاجة إلى محاربة السوفييت في أفغانستان؟ قم بتسليح المرتزقة للقيام بهذه المهمة، بغض النظر عن خلفياتهم أو مصالحهم. هل تحتاج إلى محاربة الإرهابيين؟ تحالف مع كل من يتعهد بإجراءات فورية، حتى إن كان دكتاتوراً عسكرياً وحشياً.

لقد وضعنا اغتيال ضياء الحق في موقف صعب في أفغانستان. فقد بقيت الحكومة الموالية لروسيا برئاسة نجيب الله في السلطة لفترة أطول مما توقعه الناس. وانتهى بنا الأمر إلى محاربة بعض الناس أنفسهم الذين قمنا قبل ذلك بتمويلهم عندما كانوا يقاتلون ضد السوفييت.

الجانب الأكثر ضرراً في القضية برمتها، هو أن عدداً من الدول يرى في اغتيال ضياء الحق مجرد مثال آخر على حماية الولايات المتحدة للإسرائيليين.

لم يسهم شيء مما حدث في كبح جهود باكستان الرامية إلى الحصول على قنبلة نووية. وهم يمتلكون القنبلة الآن.

كيف أنهي الفصل الخاص بآخر تكليف لي خلال خدمتي في السلك الدبلوماسي، وهي بالنسبة إلي نهاية حزينة لمهنة استمرت أكثر من أربعين عاماً من الخدمة المتفانية للوطن؟ كان يمكن أن أكون ناقماً، وغاضباً، وطامعاً في الحصول على تعويض، وساعياً للانتقام. وبدلاً من ذلك، فإنني أترك الأمر للزمن للسماح للحق بأن ينتصر. إنني لا أظن أن أحداً في وزارة الخارجية أو في الحكومة الأمريكية، في ذلك الوقت أو اليوم، يعتقد حقاً

بأني كنت مختلاً عقلياً عندما قلت بصوت عالٍ وواضح إن الرئيس ضياء الحق قد تم اغتياله، وإن سقوط الطائرة لم يكن بسبب عطل ميكانيكي. انضمت أصوات أخرى إلى صوتي في الإشارة إلى أن وكالات استخبارات أجنبية -قد تكون عاملة مع بعض العناصر الهندية أو الباكستانية المنشقة- قد تسببت في اغتيال ضياء الحق. كانت تلك الحادثة أيضاً بداية للتداعيات بين الولايات المتحدة وباكستان. ولعل تصاعد الإرهاب المناهض للولايات المتحدة، له جذوره أيضاً في الطريقة التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع المقاتلين الأجانب الذين قاوموا بنجاح الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، ولكن لم تعد هناك حاجة -أو قيمة- إليهم بعد انسحاب الجيش السوفيتي من ذلك البلد. وفضلاً عن ذلك، ليس لدي أي شك في أن اغتيال ضياء الحق وصدى تداعياته قد أديا إلى تدهور العلاقات الأمريكية مع العالم الإسلامي، وربما إلى ربط المسلمين في كل مكان بين السياسة الأمريكية والسياسات الإسرائيلية في الشرق الأوسط.

أنا لست مُطلقاً لصافرة الإنذار لوضع حد للتجاوزات، ولكنني ملتزم جعل الحقيقة تنتصر على القضايا التي تؤثر في سمعة الولايات المتحدة الأمريكية؛ ومن ثم، فإني عندما وصلني طلب خطي من الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر للتبرع بوثائقي وأوراقي إلى المحفوظات الوطنية الأمريكية، امتثلت للطلب، وشعرت أن هذه هي الطريقة الصحيحة للسماح للآخرين، من مؤرخين وباحثين ودبلوماسيين وأكاديميين وأمناء مكتبات وعلماء وسياسيين وصحفيين، بدراسة الوثائق، وتقرير أين تكمن الحقيقة.

إنني أفضل أن أختم الفصل المتعلق بالهند بمذكرة سعيدة.

إنها قصة لوحة صورة جورج واشنطن بالحجم الطبيعي بريشة جلبرت ستيوارت التي أحضرتُها إلى نيودلهي، وتم تعليقها في مقر إقامة السفير الأمريكي خلال فترة خدمتي (1985-1988)، وأصبحتْ عامل جذب للسياح الأمريكيين والمثقفين الهنود المهتمين بتاريخهم. وقد أضافت جولات «أمريكان إكسبريس» مقر إقامة السفير الأمريكي في الهند

إلى رحلاتهم السياحية في البلدة للسياح الذين رأوا صورة مؤثرة لما كنتُ آمل أن يكون تجسيداً لتاريخ التعاون بين الولايات المتحدة والهند.

نحو نهاية القرن الثامن عشر، كان التجار الأمريكيون من نيو إنجلاند يبحرون في كثير من الأحيان إلى كلكتا للاتجار في السلع المتبادلة بين المستعمرات الأمريكية المستقلة حديثاً والهند القديمة التي ماتزال تحت الحكم البريطاني. كان هناك تاجر هندي ثري في كلكتا، وعندما سأله شركاؤه التجار الأمريكيون عما يرغب في الحصول عليه كدليل على صداقتهم، أجاب: «أرسل إلي لوحة بصورة محرركم، جورج واشنطن، الذي حرركم». وهكذا قام التجار الأمريكيون بالحصول على اللوحة التي رسمها جلبرت ستيوارت لجورج واشنطن بعد صنعها في أمريكا، ثم أعطوها إلى التاجر في كلكتا، وبقيت في بيت ذلك التاجر نحو 150 عاماً، ولكن المناخ الرطب والحار لم يكن ملائماً للقماش. وعندما قام مخترع البازوكا بعد الحرب العالمية الثانية، وهو أمريكي من أصل تشيكي، بزيارة الهند مع صديقة له، قام بشراء اللوحة من منزل التاجر، وأعاد لها مجدها ورونقها الأصلي. وانتهى بها المطاف أخيراً في واشنطن وجامعة لي في ليكسنجتون بولاية فرجينيا. وتصادف أن عائلة زوجة ابني الرائعة كانت تملك معرضاً فنياً في نيويورك، وكانوا على دراية خاصة باللوحات الأمريكية، ونجحوا في التفاوض مع الجامعة حول إعارة لوحة ستيوارت لوزارة الخارجية الأمريكية خلال فترة جولتي لأداء الواجب في الهند.

إن لوحة جورج واشنطن، بعرضها من جديد في الهند بعد مرور أكثر من 150 عاماً، عكست في الواقع وجود صلة بين الولايات المتحدة والهند؛ فبالنسبة إلى الأمريكيين، كانت لوحة «المحرِّر» رمزاً لرسالة الحرية من أمريكا إلى العالم، وبالنسبة إلى الهنود، كانت رمزاً لتطلعاتهم إلى الحرية والتقدم اللذين نالوهما بشق الأنفس؛ ليكونوا مصدر إلهام لجميع الذين تحرروا من الاستعمار.

كلمة أخيرة

حينما أجلس مع عائلتي للاحتفال بعيد ميلادي الثمانين، أتساءل: ما الفكرة التي كانت تهيمن على حياتي؟ فأخرج بالجواب نفسه الذي كنت أعطيه عندما كنت شاباً: خدمة بلدي الذي تبنيته، الولايات المتحدة الأمريكية، بكل ما أوتيت من قدرة في الاختصاص الذي اخترته لمسيرتي المهنية: الدبلوماسية. وقد قمت على مدى اثنين وأربعين عاماً بخدمة الإدارتين الديمقراطية والجمهورية معاً، وبقدر متساوٍ من الحماسة والتفاني. وثمة قضية واحدة، هي قضية النزاهة، وجدت أنه من الصعب تقديم تنازلات فيها. لقد نشأتُ على عدد من القيم العالمية والتقاليد الأمريكية التي لم أكن على استعداد للمساومة عليها.

عندما ترعرعت وكبرت في الغرب الأوسط في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات في القرن الماضي، كنت أؤمن حقاً بصحة قصيدة إيما لازاروس عام 1883، **العملاق الجديد**، المنقوشة على قاعدة تمثال الحرية:

أعطني جماهيرك المتعبة، الفقيرة، المحتشدة،

التي تتوق إلى تنسّم الحرية،

إن النفايات البائسة على شاطئك المزدحم،

تبعث بهؤلاء الذين لا مأوى لهم، والذين تقذفهم العواصف إلي،

وأنا أرفع مصباحي بجوار الباب الذهبي!

رأيت في الشعلة المرفوعة عالياً في يد تمثال الحرية، منارةً للأمل، ليس لبلدنا فحسب، بل لكثير من الناس في جميع أنحاء العالم. نعم، كنت أعتقد في صغري، ومازلت حتى

اليوم، أن العلم الأمريكي رمز لبلدنا، وعلى الرغم من أنني لم أكن في حاجة إلى وضع نسخة طبق الأصل من العلم على صدري، فقد حملت العلم الأمريكي بالفعل في كمبوديا على ذراعي اليسرى؛ لأنني لم أكن أريد أي شخص - من الأجانب أو الأمريكيين - تدنيس الرمز الذي كان يمثله.

كنت طوال تلك السنوات كلها، أؤمن بالتقاليد الأمريكية، التي أعتقد أنها تحظى أيضاً بالإعجاب في جميع أنحاء العالم: احترام القانون، والصدق، والتسامح، والشعور بالعدالة، والمساواة. ولعلي كنت أهتم أيضاً بأسطورة أن لدى أمريكا نوعاً من المهمات أو دوراً تقوم به؛ لنشر هذه القيم سلمياً في جميع أنحاء العالم.

حاولت كممثل للشعب الأمريكي أن أعيش هذه القيم في مشاغل عملي اليومية. وقد أخبرني سياسي أجنبي قبل سنوات قائلاً: «هناك بلدان أخرى تُضفي القيادة عليكم أيها الأمريكيون؛ فأنتم لا تمسكون بها من جانب واحد. وتَدين الولايات المتحدة، وهي دولة تملك الكثير من السلطة والثروة، بالكثير لأولئك الذين يملكون أقل منها». ويستخدم البريطانيون عبارة «النبل يتطلب التزام المسؤوليات» للمفهوم نفسه. وكيفما تم التعبير عن ذلك، فإنه يتعين على الولايات المتحدة؛ بوصفها أقوى دولة منذ الحرب العالمية الثانية، أن تكون قدوة حسنة إن أردنا للبلدان الأخرى في جميع أنحاء العالم الإذعان لقيادة الولايات المتحدة. وإذا ما أمسكنا بهذه القيادة من طرف واحد، فإننا لا نعود دولة ديمقراطية حقاً، بل نجازف بأن يتم اتهامنا بأننا ذوو سلوك سلطوي في علاقاتنا الدولية.

وبوصفي عضواً في القوات المسلحة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية وحرب فيتنام، تعلمت أن الطريقة الوحيدة لقيادة الناس، هي القدوة الحسنة. وفي تمثيلي بلدي، لا يمكنني القيادة إلا من خلال فعل الشيء الصحيح بنفسي، وليس عن طريق حض الآخرين على فعل الشيء الصحيح. عندما يكون شخص رب العمل - في أي مهنة أو وظيفة، مدنية أو عسكرية، في القطاع العام أو الخاص - يتعين عليه أن يكون قدوة حسنة.

وقد سعيت لأن أفعل ذلك في حياتي. وأترك الأمر للآخرين لتحديد هل كنت قد نجحت في هذا التحدي، أو لا؟.

وبالعودة إلى الماضي، وجدت النهج الذي سلكناه في الشؤون الخارجية بعد وقت قصير من الحرب العالمية الثانية، أكثر بعثاً على الرضا من سياساتنا الأنانية في الآونة الأخيرة؛ وبوصفي عضواً في فريق خطة مارشال في أوائل خمسينيات القرن الماضي، فقد كنت جزءاً من إدارة التعاون الاقتصادي (ECA). نعم، كدنا نؤكد التعاون الاقتصادي السلمي مع الدول الأخرى. وقد أُعجب الأوروبيون بهذه السياسة، باستثناء تلك الدول التي كانت تخشى أن يؤدي هذا النهج إلى تقويض النظامين الاقتصادي والسياسي. لقد تم تغيير إدارة التعاون الاقتصادي إلى وكالة الأمن المشترك، مع التركيز على «المشترك» لا الأحادي؛ وكان هدف الولايات المتحدة الأمريكية، المشاركة في المشكلات الأمنية وعدم فرض وجهات نظرنا من جانب واحد. ربما لم تكن جميع المشروعات مشتركة بدرجة متساوية، ولكن مع ذلك تم إعداد جميع المبادرات لكي تتحقق الفائدة المتبادلة لكل الأطراف.

وحتى وقت قريب جداً، لم نكن نضع أنفسنا فوق القانون في علاقاتنا الدبلوماسية مع المجتمع الدولي، بل - على العكس من ذلك - كنا نساعد على إقامة منظمات دولية وضعنا أنفسنا فيها على المستوى نفسه مع القوى الكبرى الأخرى: الأمم المتحدة، والعديد من الوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة؛ مثل: منظمة العمل الدولية، ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو)، ومنظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (اليونيدو)، ومنظمة الصحة العالمية، وغيرها. لم ننسحب إلا من بعض المنظمات الدولية في حالات معزولة، وكنا نقوم عادة بدفع المستحقات علينا، وإن مع تأخير في بعض الأحيان. متى بدأنا نعتقد أن الولايات المتحدة الأمريكية فوق القانون والأنظمة التي قبِلها المجتمع العالمي، بما في ذلك الولايات المتحدة، على مر الزمن؟ لقد انسحبنا خلال السنوات الأخيرة من جميع أنواع المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمتها المنظمات التي ساعدنا على إنشائها. وعلى أي أساس نعد أنفسنا الآن فوق القانون؟

واليوم، أتساءل أحياناً: هل كنا نطبق قاعدة «افعل كما أقول أنا، ولكن ليس كما أفعل»، أو لا؟. هل اعتمدنا معايير مزدوجة في الشؤون الخارجية: هذه للأقوياء وتلك للضعفاء؟ يتهمنا بعض الأجانب بالنفاق. ألسنا في الواقع نعيش جميعاً معاً في عالم واحد؛ حيث لا نمثل فيه نحن في الولايات المتحدة إلا الأقوى بين العديد من الدول على هذا الكوكب الصغير، الأرض؟ ألم يحن الوقت بالنسبة إلينا للعودة إلى فضيلة حاولنا ممارستها في الماضي؛ وهي احترام القانون؟ وماذا عن التسامح؟ هل نُظهر اليوم الاحترام لجميع الأجناس والأعراق والأديان، أو أننا نتحدث عنه فقط؟

عندما غادرت الهند ودخلت في التقاعد، جاء زميلي السفير السويسري في نيودلهي إلى المطار لوداعي. مازلت أتذكر النصيحة التي قدمها لي في تلك المناسبة: «جون، لا تنسَ، الدبلوماسيون وصانعو السلام، وأنت، يجب أن تستمروا في عيش ذلك الدور». صحيح أنني، كلما استطعت، كنت أسعى لأن أجد حلاً غير عسكري للصراع: في محادثات سلام فيتنام في باريس؛ وفي الانتقال من الاستعمار إلى السيادة القومية في غرب إفريقيا وجنوب شرقي آسيا؛ وفي لبنان فيما يتعلق بالصراع الفلسطيني-الإسرائيلي؛ والعمل في الهند على إيجاد بداية جديدة لأفغانستان بعد انسحاب الجيش السوفيتي من البلاد. ألم تكن أفغانستان في الواقع مواجهة عسكرية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وجزءاً من الحرب الباردة؟

مازلتُ أميل اليوم إلى الاعتقاد بأن أمريكا يجب أن تفرغ جزءاً أكبر من مواردها وقدراتها المالية لتجنب الحلول العسكرية، واستخدام المفاوضات والدبلوماسية إلى أقصى حد. وينبغي أن يكون هدفنا تجنب الدمار والبؤس والخسائر في الأرواح الناجمة عن استخدام القوة؛ وهذا لا يعني إهمال المؤسسة العسكرية لدينا، لكنه يعني ضمناً بالفعل استخدام الدبلوماسيةأولاً، والقوة العسكرية كملاذ أخير.

وإذا كان لا بد من أن يكون لنا عدو، كما يدعي بعض السياسيين، فلماذا لا نتبنى بعض الأفكار التي أوضحها قبل قرن من الزمان، الأستاذ في جامعة هارفارد جورج سانتايانا،

عندما اقترح أن نجد سبلاً لتوجيه طاقاتنا إلى العمل مع الطبيعة وحماية البيئة؟ أليست زراعة الأشجار وتسخير الطاقة المائية – على سبيل المثال – المفاهيم الكامنة وراء قيام منظمات؛ مثل إدارة سير الأعمال (WPA)، وهيئة الحماية المدنية (CCC)، التي أنشأها فرانكلين روزفلت في ثلاثينيات القرن الماضي، وماتزالان ساريتين حتى اليوم؟ لعل مكافحة الفقر أو الكوارث الطبيعية تمثل تحدياً كبيراً شأنه شأن المواجهة العسكرية. أليست مساعدة ضحايا الزلزال في كشمير أكثر فائدة لبلدنا وللإنسانية من بناء المزيد من أنظمة الدفاع المضادة للصواريخ؟ وضد من: روسيا، والصين؟ للأسف! هناك عناصر قوية في بلدنا ماتزال تعتقد أنه يجب علينا مواجهة الاتحاد الروسي الذي برز مع اختفاء الاتحاد السوفيتي. بينما يدعو آخرون إلى معارضة مسيرة الصين نحو الحداثة؛ لأنهم يخشون أن يصبح الصينيون منافساً فعالاً لدور أمريكا المهيمن في العالم. وهل يتعين علينا حقاً إيجاد خصم للولايات المتحدة لكي تؤدي دورها؟ آمل ألا يكون الأمر كذلك.

المقصود بهذا كله فعل الشيء الصحيح، وليس الاقتصار على التعبير عن النيات الحسنة. ففي إخماد انقلاب في لاوس ووضع حياتي على المحك، نجحت في مساعدة لاوس على استكمال المفاوضات بين اللاوسيين التي وضعت حداً لعشرين عاماً من الحرب. وفي تنفيذ أوامر رئيسي في لبنان، لم أكن أتودد إلى بعض العناصر في الشرق الأدنى، ولكنني كنت بالفعل أساعد في جعل الفلسطينيين محاورين مقنعين عبر البحث عن حل سلمي للصراع الفلسطيني – الإسرائيلي.

يبقى الدبلوماسيون هم المدافعون على خط المواجهة عن مصالح أمريكا الوطنية خارج حدودنا. وينبغي عدم التفكير في الخيارات العسكرية إلا إذا فشل الدبلوماسيون. وحينما ننظر في مستقبل يتّسم بأوقات عصيبة، تكون فيه شعبية بلادنا في الحضيض، يتعين على الأمريكيين، ولاسيما القيادة السياسية لدينا، أن ينظروا بجدية إلى قضية أساسية واحدة. هل ضربُ مثال جيد – من خلال التصرف اللائق وبطريقة تنسجم مع سيادة القانون والقيم الأمريكية التقليدية الأخرى التي نزعم أننا نؤمن بها – من المرجح أن يكون

استراتيجية أكثر نجاحاً من السعي لفرض إرادتنا بالقوة والتهديدات باستخدام القوة؟ أي مسار سيخدم المصالح والرفاهية والسعادة، ليس للشعب الأمريكي فحسب، بل لبقية العالم أيضاً؟

قارن هدف الهيمنة العالمية الذي سعينا وراءه في السنوات الأخيرة، من دون إحراز نجاح ملحوظ، بهدف إلهام العالم من جديد من خلال قيمنا التقليدية والتمسك بها. من المؤكد أن استعادة احترام البشرية وإعجابها من خلال ضرب المثل الأعلى بسلوكنا تعد الهدف الأنبل والأكثر أخلاقية لبلد عظيم وشعب عظيم؛ وهو هدف يمكن أن يفخر به الأمريكيون كافة.

نبذة عن المؤلف

جون جونتر ديـن John Gunther Dean؛ هـاجر مـن ألمانيـا إلى الولايـات المتحـدة الأمريكية عام 1938، وكان في الثانية عشـرة من عمره. خدم في الاستخبارات العسـكرية الأمريكية إبان الحرب العالمية الثانية، ثم انضم إلى طاقم صندوق مارشال ببـاريس. وبعـد ذلك انتقل إلى وزارة الخارجية؛ فأسس أول بعثة دبلوماسية في توجو ومالي، ثم عمل نائبـاً لقائد المنطقة العسكرية الأولى لـدعم العمليـات المدنيـة والتنميـة الثوريـة (CORDS) في فيتنام (1970–1971)، وقائماً بالأعمال في السفارة الأمريكية بلاوس (1972–1973). كما شغل منصب السفير في كل من: كمبوديـا (1974–1975)، والـدانمرك (1975–1978)، ولبنان (1978–1981)، وتايلند (1981–1985)، والهند (1985–1989).

تخرج جون في جامعة هارفرد عام 1947، وحصل على درجـة الـدكتوراه في القـانون الدولي مـن جامعـة السـوربونببـاريس عـام 1949، ثـم عـاد ونـال درجـة الماجسـتير في العلاقات الدولية من جامعة هارفرد عـام 1950. وهـو يـتقن - إلى جانـب الإنجليزيـة - الفرنـسية والألمانية والدانمركية.